دم احمر

«عندما يغيب الآمان تبدأ الحكاية»

رقية ميري كاظم

احذر!

أنت على وشك الدخول إلى عالم لا يرحم.

هنا لا تجد الرحمة، ولا السلام، بل وحوش تترصد في الظلال، ودماء تكتسح كل شيء بلا هوادة.

إذا كنت تبحث عن قصة هادئة تُسليك، فأغلق هذا الكتاب الآن ولا تُضيّع وقتك.

أما إذا قررت المضي قدمًا، فتوقع أن تُمزق روحك بين صفحات حمراء لا تنتهي.

هل أنت مستعد لأن تتحمل الألم؟

هل تستطيع مواجهة الحقيقة التي ستُحطم كل ما تؤمن به؟

هل تجرؤ على قلب الصفحة والمضي في هذا الجنون؟

إذا كانت إجابتك "نعم"، فتابع... أما إن شككت للحظة، فأغلق الكتاب قبل أن تغرق في الدماء.

تحذير قبل القراءة:

1. لا تتعاطف مع أي شخصية.
حتى من يبكي قد يكون هو من قتل، ومن يبتسم قد يكون ينتظر دمك.

2. لا تثق بما تقرأ.
هذه الرواية كاذبة... وأنت الهدف القادم.

3. لا تبحث عن منطق، ولا تتوقع عدالة.
"دم أحمر" كُتبت لتؤلمك، لا لترضي فضولك.

4. إذا شعرت بالراحة... فأنت لم تفهم شيئًا.
الألم هنا مقصود، والطمأنينة فخ.

في صباح هادئ، كانت أشعة الشمس تتسلل عبر نافذة غرفتي الصغيرة، تنير الزوايا التي اعتدت أن أختبئ فيها.
كنتُ في السابعة من عمري، صبي عادي في مظهره، لكن قلبي كان يحمل شيئًا مختلفًا.

أحببت اللعب والضحك مع أقراني، لكني كنت أشعر بداخل نفسي بفراغ لا يعرفه أحد.
أمي، رغم برودتها، كانت تتحدث كثيرًا مع أخي كايل، أما أنا فكنت أشعر أني غريب في بيتي.
أبي، إيثان، كان دائمًا مشغولًا بعمله كمحقق، لكنه كان يحاول أن يجد وقتًا لي، يمد لي يده عندما أحتاجها، ويجعلني أشعر أنني لست وحيدًا.

كان الصباح يمضي بهدوء حين فتحت الباب ونظرتُ إلى الخارج. هناك، كان أبي واقفًا عند عتبة البيت، وجهه مُتعب لكنه يحمل ابتسامة دافئة.

لم أره منذ يومين، وقلبي انفجر فرحًا حين رأيته. ركضت نحوه بسرعة، وابتسمتُ له ابتسامة صادقة لم أعرف كيف أخفيها.

"أبي!" ناديت باسمه، واحتضنته بشدة، كأنما أريد أن أمتص كل غيابه في هذا العناق.

كان حضنه هو الأمان، والدنيا كلها تبتسم لي حينما أكون بين ذراعيه.

بينما كنتُ لا أزال بين أحضان أبي، أطلّت أمي من خلف الباب، تتحسس شفتيها بعناية، ترسم عليهما لمسة حمراء لامعة كأنها درع تحمي به وجهها من العالم الخارجي. كانت ميرا تبدو كأنها امرأة على موعد مع مصير يومها، تسير بثقة لكنها تحمل في عينيها برودة قاتلة.

وقفت على عتبة الباب، نظرت إلى أبي بنظرة حادة، كانت كلماتها مثل سهم موجه لا يخلو من الاستفهام والتحدي:
"هل لازلت تحقق في قضية قتل الطالب جونيور؟"

كان صوتها هادئًا، لكن في نبرته وقعٌ من الإصرار الذي لا يُخترق، كأنها تريد أن تعيد فتح جرح قديم لا يريد أن يلتئم.

أبي، رغم كل ذلك التعب الذي بدا على وجهه، لم يتراجع، بل أومأ برأسه بثبات، وكأن تحقيقه في القضية أصبح أكثر من مجرد وظيفة، بل رسالة شخصيّة لا يمكنه التوقف عنها.

وقفت أمي للحظة، وعيناها تلتقطان كل تفاصيل البيت، كل صورة، كل صمت، ثم قالت بنبرة كأنها تخفي غضبًا أو استياءً:
"هذا الطريق سيؤدي إلى مشاكل أكثر، أنت تعلم ذلك. هل أنت مستعد لتحمّل ما سيأتي؟"

لم يرد أبي، لكنه نظرتُ إليه في تلك اللحظة ورأيت فيه مزيجًا من العزم والخوف، رغبة في العدالة لكنها مدفوعة بثمن قد يدفعه الجميع.

ثم، بلا أن تنظر لنا مجددًا، أغلقت ميرا الباب خلفها بخطى ثابتة، تاركة في الهواء ثقل الكلمات التي لم تُقل، وصمتًا ثقيلًا أكثر من كل ما مرّ.

ثم رن هاتف إيثان....

رنين الهاتف قطع سكون الصباح بهدوء، فالتقط إيثان السماعة بيد متزنة ونظرة ثابتة، كمن يستقبل خبراً معتاداً لكنه يدرك أبعاده.

كان صوت زميله في التحقيق هادئاً ومطمئناً، ينقل له رسالة من دون أن يثقل كاهله:
'إيثان، ليس هناك ما يستدعي القلق، لكن هناك أمر بسيط يحتاج حضورك. لا تستعجل، الأمور تحت السيطرة، فقط تواجدك ضروري.'

أومأ إيثان برأسه رغم أن الهاتف لا يرى، ثم ألقى نظرة إلى ليام الذي كان يراقبه بعينين يملؤهما الفضول والبراءة، فابتسم له بابتسامة تفيض دفئاً واطمئناناً، وقال:
'سأذهب الآن يا بني، لا تخف، كل شيء سيكون على ما يرام. هذا جزء من عملي المعتاد.'

ثم أغلق الهاتف برفق، وعاد إلى تهيئة نفسه للخروج، ويده تمر برقة على رأس ليام، كأنها تعده بأن الحماية والسكينة لن تغيب عنهما في هذا الصباح.

ثم غادر إيثان المنزل بخطواتٍ متزنةٍ وثابتة، يحمل على كتفيه ثقل مسؤولية لا تضاهيها أي مسؤولية، ذلك العبء الثقيل الذي يثقل قلب المحقق الشريف. كان يمشي بلا استعجال، لكن في عينيه كان توهجٌ خافتٌ ينبعث من عمق الحنان، نور يملأ روحه لأجل ابنه الصغير الذي تركه خلفه، يحمل له أملًا غامضًا في عالم مملوء بالظلام.

خلفه، في زاوية المنزل، وقف ليام بعيون مفتوحة على اتساعها، لا يدري أن هذا الصباح، بصمته، همساته، وحتى خروجه، سيُسطر فصولًا جديدةً من حياته. كانت أجواء المنزل ثقيلة، كأنها تتنفس الألم الذي لم يُقال، وتحمل سرًا دفينًا لم يحن الوقت لكشفه.

خطوات إيثان تتردد عبر الممرات، تصنع إيقاعًا هادئًا لكنه مثقل، يحمل في كل خطوة صدى صراع داخلي بين ما هو حق وما هو واجب. كان يعلم أن خروجه ليس مجرّد رحلة عمل، بل هو بداية لدوامة قد تبتلع كل شيء.

في الهواء، بقيت رائحة عطره الذكوري، مختلطة بهدوء الصباح، وكأنها تقول بصمت: "سأعود، مهما كان الثمن".

عندما وصل إيثان إلى مركز الشرطة، استقبله زميله جان بابتسامة متوترة تحمل في طياتها قلقاً دفيناً. اقترب منه وهو يحمل بين يديه مجموعة من الأوراق المغلقة، وضعها أمامه على الطاولة بثقل واضح.

قال جان بصوت منخفض وحذر:
"هذه رسالة وصلت قبل قليل، من المجرم الذي قتل الطالب جونيور... تهدد بأنه سيقتل صديقه."

نظر إيثان إلى الأوراق بتركيز، وقرأ كلمات مكتوبة بخط متعرج، تحمل تهديدات صارخة ووعدًا بالعنف القادم. تجمد لحظة، ثم ضمّ يديه بقوة كمن يستجمع قواه، وابتسم بابتسامة نصفها تحدٍ ونصفها خوف على من يحب.

كانت تلك اللحظة بداية دوامة لا تنتهي من الصراعات التي ستغير مجرى حياته وحياة كل من حوله.

جلس ليام على أريكة صغيرة في غرفة المعيشة، يُقلّب قناةً بعد أخرى دون اهتمام، لكن عينيه كانتا تتحركان نحو الباب بين لحظة وأخرى، وكأنّ قلبه لم يغادر مع والده قبل ساعة. كان في داخله شعور غريب، ليس قلقًا، بل فراغًا خفيفًا يشبه غياب ظلّ في منتصف النهار.

مدّ يده نحو دفتره الصغير، ذاك الذي رسم فيه ذات مرة شارة المحقق، وكتب تحته: "عندما أكبر، سأصير مثل أبي." تأمل العبارة للحظات، ثم أغلق الدفتر ببطء، وانكمش على نفسه فوق الأريكة.

من المطبخ، كانت رائحة القهوة التي نسيتها أمه على النار قد بدأت تتسلل، بينما ساعة الحائط تُعلن اقتراب الظهيرة. رفع ليام رأسه نحوها، ثم همس:

"أتمنى أن يعود بسرعة..."

لم يكن يعلم أن تلك الساعة الهادئة تخبئ ما هو أبعد من الصمت.

ثم انفتح باب المنزل ببطء، ودخل نواه، الأخ الأكبر، بخطوات ثقيلة وعينين نصف مغمضتين من تعب المدرسة. كانت حقيبته معلقة بإهمال على كتفه، وكأنها لا تنتمي له بل عبءٌ لا يريد الاعتراف به.

ما إن لمح ليام جالسًا على الأريكة حتى ارتسمت على شفتيه تلك الابتسامة الساخرة التي حفظها ليام عن ظهر قلب، ابتسامة لا تُبشر بخير، بل تبدأ بها دائماً حرب صغيرة تنتهي بصراخ أو دمعة أو تهديد من الأم.

اقترب نواه دون أن يخلع حذاءه، ثم وقف أمام ليام متصنعًا الدهشة:

"أوه... ألا زلتَ هنا؟ ظننت أنهم تخلصوا منك أخيرًا."

رفع ليام نظره إليه، لم يتكلم، فقط رمق شقيقه بنظرة باردة. كان يعرف تمامًا أن الرد سيشعل نيرانًا لا يريد إشعالها في غياب أبيه.

لكن نواه لم يتراجع، بل جلس إلى جانبه ودفع كتفه بخفة مستفزة:

"أبي مشغول كالعادة؟ أوه، آسف... نسيت أنك ما زلت تحلم أنه بطل."

في تلك اللحظة، شدّ ليام قبضته فوق ركبتيه، يحاول أن يمنع نفسه من الرد، لكن نارًا صغيرة بدأت تحترق خلف عينيه.
دخل كايل، الأخ الأوسط، ببطء وتثاقل، وجهه شاحب وعيناه تحملان ثقل تعب يوم طويل مُرهق، كأنه يحمل أعباء المنزل كلها على كتفيه. توقف عند باب الغرفة للحظة، تردد في التدخل لكنه لم يقدر على الصمت. توجه نحو نواه وهو يواجه ليام، ورفع صوته بنبرة ملؤها التعب والقلق قائلاً:

"اتركه... لست مستعدًا لسماع صراخه اليوم، صدقني."

وقف لبرهة، ثم ألقى نظرة خاطفة إلى ليام، كأنما يريد أن يبعث له برسالة صامتة: "تحلَّ بالصبر"، ثم عاد يحدق في نواه بجدية أكبر، محاولًا أن يُرسخ نوعًا من الهدوء:

"دع الأمور تسير بهدوء، لا داعي لإشعال نار الفتنة، خصوصًا في هذا اليوم الملبد بالهموم."

كانت كلماته محاولة ضعيفة لتحقيق بعض الاستقرار في بيتٍ يعتصره الحزن والضغط النفسي، محاولة لحماية ليام من انفجار جديد. ورغم تعبه وارتباكه، كان كايل يعلم أن كل صرخة وكل توتر يزيدان من ألم الجميع، فحاول أن يكون درعًا هشًا يحفظ ما تبقى من سلام العائلة. لكنه في قرارة نفسه، كان يعرف أن كل شيء على وشك الانهيار، وأن الصراعات لم تُحسم بعد.

مر الوقت ببطء، وظهر إيثان أخيرًا عند عتبة البيت، وجهه محاطٌ بعبق التعب، عينيه تعكس ثقل يوم حافل بالأحداث التي لا تنتهي. لكن فور رؤيته لليام، لم تستطع التعب أن تكسو ابتسامته الصافية، التي تفتح نوافذ الأمان في قلب الصبي الصغير. اقترب ليام منه بخطوات متسارعة، واحتضنه بقوة، محاولة أن يلتقط دفء ذلك الحنان الذي بالكاد يرى له أثراً في أيامه المظلمة.

ابتسم الأب وهو يحتضن ابنه، كأن كل همومه تنحسر للحظة، ثم سحب نفسه بلطف، ولكن فجأة، كان نواه قد شغل التلفاز على غير عمد، ظنًا منه أنه سيجد متعة في رسوم متحركة ملونة ومرحة. لكن الشاشة لم تُظهر ألوان الفرح، بل انقلبت إلى بث حي لخبر عاجل.

وبصوتها البارد والرصين، ظهرت ميرا على الشاشة، وجهها صارم وعيونها تخترق الكاميرا بثقة الصحفية التي تحمل خبراً ثقيلاً:

"صديق جونيور تلقى تهديدًا مباشرًا من القاتل نفسه، الذي أودى بحياة جونيور. الليلة، سيكون هدفًا للموت، والشرطة تراقب تحركاته عن كثب."

صمتٌ خانق خيم على الغرفة، وصدى الكلمات ما زال يتردد في الأذهان، ليملأ الجو بعبق الخوف والقلق، كأن النيران بدأت تأكل الأمان الذي كان يعانقهم للحظة.

توقف إيثان فجأة عن الحركة، وعينيه تركزت على شاشة التلفاز كما لو أنها تحمل له رسالة مشفرة لا يفهمها سواه. ظل ثابتًا لبرهة طويلة، والدهشة والغضب يتشابكان في ملامحه، حتى بدا أن الهواء من حوله قد تجمد. اتسعت عيناه بشكل مفاجئ، وعادت أنفاسه تتسارع، فازدادت سرعة نبضات قلبه كما لو أن شيئًا ما كان ينهش روحه من الداخل.

رفع نظره نحو الغرفة، حيث كان كل شيء يبدو هادئًا، لكن داخله كانت العاصفة تشتعل. في لحظة لا شعورية، استدار بسرعة نحو الباب، وصارعه التفكير ثوانٍ معدودة قبل أن يقرر أن يترك كل شيء خلفه. لم ينطق بأي كلمة، ولم يلتفت لأحد، بل اندفع نحو الخارج بخطى سريعة، كأنه يركض نحو مجهول مظلم يلاحقه.

دخل إيثان مقر التحقيق بخطى متسارعة، وجهه مشحون بالتوتر والشك، كأنما يحمل ثقل عالمٍ كله مظلمةٍ وسوء نية. وقبل أن يلقي كلمة، تلاشت الأحاديث والضجيج، وصمت المكان برمته، كل العيون التفتت نحوه باهتمام وريبة.

تنفس بإثارة وقال بصوت محمّل بالغضب والريبة: "أين غابرييل؟"

تردد الرد قليلاً قبل أن يقول أحدهم بصوت خافت: "غادر منذ وقت، لا أحد يعرف إلى أين."

ارتفع نبض إيثان في صدره، وعلت علامات الشك والحيرة على وجهه، فهو لم يكن واثقًا من هذا الزميل الذي طالما شكّ في نواياه، والآن أصبح أكثر يقينًا بأنه قد يكون العقل المدبر وراء الجريمة التي تحيط بها الأسرار.

ارتدى إيثان معطفه الثقيل بسرعة متعثرة، كأن كل ثانية تمر تمتص منه القوة والحماس، ثم خرج من المقر وهو يلهث، يجر وراءه أثقال الأفكار والشكوك التي باتت تقيده بقوة. لم يكن يعرف إن كان سيتعثر في الطريق، أو يصل في الوقت المناسب، لكن قلبه المتوتر كان يدفعه للمضي قدمًا بلا توقف.

في تلك اللحظة، لم يكن الضباب الذي يكسو شوارع ريفنشيد سوى غلاف رمادي يتغلغل في عروقه، بينما صوت خطواته المتسارعة يتردد صداه على الأرصفة الباردة، يشق طريقه بين المارة الذين استداروا بفضول يتخلله بعض الخوف الغامض. كان يعلم أن ثمة شرًا يلاحقه، وأن الوقت لم يعد في صفه، لكنه لم يستطع الوقوف.

بينما كان إيثان يركض بخطوات متسارعة في الشارع الخالي من المارة، في ذلك الزقاق الضيق الذي تحيط به جدران مهجورة ومتعرجة، اصطدم فجأة بجسمٍ قوي. ارتطمت يد إيثان بكتف الرجل الذي كان أمامه، وفي لحظة لم يكن يتوقعها، شعر بأن يده قد تلطخت بشيء بارد ولزج.

ببطء رفع عينيه، ليجد أمامه غابرييل هانتر، زميله في التحقيق، يرتدي معطفًا أسود ثقيلاً يغطي معظم جسده، وملابسه متسخة ببقع دماء حمراء داكنة تلطخت بها الأكمام والصدر. كانت تلك الدماء واضحة على قماش المعطف، وكأنها تروي قصة وحشية لم تُعلن بعد.

نظر إليه غابرييل بابتسامة هادئة، أشبه بابتسامة تجرح أكثر مما تداوي، وقال بصوتٍ هادئ ولكنه يحمل في طياته معنى مزدوج: "آسف، لقد كنت في أحد المواقع الجنائية قبل قليل، وقد تعرضت الملابس لبعض الدماء... لا تقلق، الأمر ليس كما يبدو."

وقف إيثان مشدوهًا، وأمسك بيده الملطخة بالدماء، متأملًا اللون الأحمر القاني الذي يذكره بدم الأبرياء الذين قضوا ضحايا للفساد والظلم. شعور غريب انتابه، مزيج من الاشمئزاز والريبة، بينما كانت عينا غابرييل تراقبه بلا كلل، كأنما يحاول قراءة كل فكرة تخطر في ذهنه.

لم يستطع إيثان أن ينطق بكلمة، لكنه شعر بثقل هذا اللقاء، وكأن شيئًا ما قد تغيّر إلى الأبد في حياته. كانت الدماء على يده ليست مجرد بقعة، بل رسالة صامتة تحمل بين خباياها نذير موت قادم، ونذر خيانة لن تُغتفر.

وبينما انطلق غابرييل في طريقه بخطوات ثابتة، ظل إيثان واقفًا، محاصرًا بين الغموض والشك، مدركًا أن هذه اللحظة ستكون نقطة انطلاق رحلة طويلة من الألم والانتقام.

رنين الهاتف كسر صمت المكان فجأة، فرفع إيثان سماعة الهاتف بيد مرتعشة، متوترًا كأنه ينتظر صفعة القدر القادمة. على الطرف الآخر، جاء صوت الشرطي مثقلاً بالخطورة والجدية: "سيدي، لدينا تطور جديد بخصوص قضية صديق جونيور..."

تنفس إيثان بعمق، محاولًا أن يسيطر على توتره، ثم أكمل الشرطي قائلاً: "لقد تم العثور على صديق جونيور ميتًا. الجثة في موقع الحادث، وكل الدلائل تشير إلى جريمة قتل مبرمجة. لدينا أدلة مبدئية توصلت إلى المجرم، ولكن التحقيقات مستمرة."

قال إيثان بصوتٍ مبحوح، لكن ثابت: "لقد عرفت من هو المجرم."

أضاف بلهجةٍ صارمةٍ تكاد تخترق جدران الغرفة: "سأبلغكم به في تمام الساعة السادسة مساءً. أريد أن أتأكد من كل التفاصيل قبل أن أفصح عنه."

صمت الطرف الآخر لدقائق قصيرة، ثم أكمل الشرطي: "نحن بانتظار تعليماتك، وسنكون على أهبة الاستعداد."

أغلق إيثان الهاتف ببطء، وشعر بثقل المسؤولية يزداد فوق كتفيه، بينما نظر إلى السماء التي بدأت تتلون بألوان الغروب المائلة إلى القاتم. قال لنفسه بخشونةٍ ملؤها العزم: "هذه ليست مجرد قضية قتل، إنها بداية معركة طويلة... سأجعلهم يدفعون الثمن، واحدًا تلو الآخر."

توجه إيثان مباشرة إلى المستشفى، خطواته سريعة وثقيلة في آن واحد، يرافقه وزن السؤال الذي يثقل صدره: هل يحمل الدم على يديه الحقيقة التي طالما ظنها مخفية؟ دخل مختبر التحاليل بحذر، مدّ يديه التي ما زالت ملوثة بدماء غامضة أمام المختصين.

بدأوا بفحص الحمض النووي بعناية ودقة، كل ثانية تمر كانت كأنها قرن من العذاب لإيثان، تنتظر النتيجة التي قد تغير مسار حياته ومسار القضية بأكملها. كانت عيناه تلاحقان شاشة النتائج، حيث أرقام وحروف ترتسم لتكشف سر الدماء.

حين ظهر التطابق، ارتجف إيثان، كأن الأرض تهتز تحت قدميه، والدم على يديه لم يعد مجرد أثر، بل شهادة دامغة. لقد ثبت أن الدم الذي على ملابس غابرييل هو نفسه دم صديق جونيور، معلنًا بذلك بداية صراع لا رجعة فيه.

نظر إيثان إلى ساعته بحسرة وضغط عميق في صدره، كانت الساعة تشير إلى الخامسة وخمسين دقيقة، والوقت يداهمه كما لو أنه عد تنازلي نحو لحظة حاسمة. كل خطوة يخطوها في تلك الأزقة الضيقة كانت مثقلة بثقل المسؤولية التي تحملها، وكانت أنفاسه تتسارع مع كل نبضة قلب تخبره أن الحقيقة التي اكتشفها لن تمر بسهولة.

كانت العتمة تحيط به من كل جانب، ظلّت الجدران المتهالكة تهمس بأصوات الماضي، وأشباح الفساد التي تحوم في المدينة كانت تتربص به بصمت قاتل. لم يكن يعلم أن خطواته هذه قد استدرجته إلى فخ مدبر بإحكام، ولا أن العدو الذي ظنه زميلًا وصديقًا، كان ينتظره في الخفاء ليضرب بلا هوادة.

فجأة، بينما كان يسرع نحو مركز الشرطة، أوقفته دفعة عنيفة قوية من الخلف، صدمت رأسه بحائط خشن مغطى بطبقة من الغبار والأوساخ، لتسمع صوت ارتطام عظامه بالحائط في صدى مزلزل داخل الأزقة الضيقة. الألم اجتاح رأسه وقلبه، لكنه ظل واعيًا، مدركًا تمام الإدراك أن هذه الدفعة ليست مجرد حادث عابر، بل رسالة قاتمة من غابرييل، الرجل الذي كان يعتقد أنه حليفه، والذي أراد بكل الوسائل أن يمنعه من كشف الحقيقة.

لم تكن هناك فرصة للشك، فاليد التي دفعت به بقوة كانت يد الغدر التي طالما تنكرت له خلف قناع الصداقة، والألم الذي شعر به كان بمثابة تحذير دموي بأن المعركة القادمة لن تكون سهلة، وأنه قد دخل عرين الذئب حيث لا رحمة ولا شفقة.

ثم، وبينما كان الدم يقطر من جبينه وتغلي داخله نيران الغضب، نهض إيثان بتصميم شرس، عينيه تقدحان شررًا، واندفع نحو غابرييل بكل ما تبقى فيه من قوة. لم يكن إيثان مجرد محقق، بل كان أبًا يحمل غضب العدالة في قلبه، وذاكرة من الألم، وقسمًا داخليًا بأن لا يرحم الخونة.

اصطدمت قبضته بكتف غابرييل، ثم وجهه، تبادلا الضربات بعنف، كان صراعًا بين من يمثل الحقيقة ومن يجسد الخيانة. ولكن، فجأة... شعر إيثان بيد قوية كالصخر تمسكه من الخلف، أصابعها تنغرس في ذراعيه كأنها أنياب وحش. جف حلقه وهو يلتفت، ليجد رجلاً ضخماً، مجهول الاسم، وجهه مخيف، وندبة حمراء عميقة تمتد على خده الأيسر، كأنها علامة من ماضٍ مليء بالجرائم.

الرجل لم ينطق بكلمة، فقط شدّ جسد إيثان للوراء بقوة جعلت عظامه تصرخ. وبينما كان إيثان يصارع للبقاء واقفًا، أخرج غابرييل من معطفه سكينًا لامعة، مسح نصلها ببطء بقطعة قماش وهو يبتسم ابتسامة كأنها نُحتت من سمّ.

نظر إلى إيثان بتلك النظرة الهادئة المريبة، وقال بصوتٍ منخفض، كمن يهمس لقتيله:
"لم يكن عليك التدخل يا صديقي... كان يجب أن تموت قبل أن تبدأ بالحفر."

ثم، ومن دون تردد، اندفع غابرييل على جسد إيثان المنهك، وبدأ يطعن... مرة، ثم أخرى، ثم ثالثة، طعنات عشوائية بلا رحمة، كل ضربة كانت تصدر صوتًا خافتًا مخيفًا بينما يئن إيثان بصوت مخنوق، يصرخ ويتلوى من الألم. الدم تناثر على الجدران، وامتزج بظل الغروب المتسلل من الأزقة. أنفاسه أصبحت ثقيلة، متقطعة، وكأن الحياة تفر منه شبرًا شبرًا.

وفي الطرف الآخر من المدينة، كان ليام يسير بهدوء في طريقه إلى السوبر ماركت، يمسك قائمة صغيرة كتبتها له والدته على عجل. خطواته كانت عادية... حتى سمع ذاك الصوت. صوت صراخ. ليس أي صراخ، بل كان يعرفه تمامًا. توقف للحظة، حدّق في الفراغ، تسارعت دقات قلبه، ثم اندفع نحو مصدر الصوت، جسده يتحرك دون إذن من عقله، وكأن قلبه هو من يقوده.

اقترب من الزقاق، وكل شيء داخله كان يصرخ "لا تدخل"، لكن قدماه لم تتوقفا. وما إن وصل حتى تجمد في مكانه، عيناه اتسعتا كأن الزمن توقف، ووجهه أصبح شاحبًا. أمامه كان والده... ممددًا على الأرض، يتلوى من الطعنات، ودمه يغرق الأرض تحته.

كان غابرييل واقفًا فوقه، يقطر سكينه دمًا، وعيناه تلمعان بشيء لا يُوصف. التفت إليه ببطء، وابتسامة هادئة زحفت على وجهه الملطخ، كأن هذا المشهد بالنسبة له لوحة فنية.

اقترب منه بخطوات هادئة، ومدّ يده، وأمسك معصم ليام الصغير بقوة مرعبة، ثم انحنى ليهمس في أذنه:
"كنت أريده أن يراك... أريدك أن تشاهد النهاية، يا ابن إيثان."

ثم، انفجرت الصرخة من قلب ليام قبل فمه، صرخة مزّقت سكون الزقاق وأوقفت الزمن للحظة.
صرخ بصوتٍ مبحوح يكاد يُمزق حنجرته:
"لماذا فعلت هذا؟!!"

واندفعت يداه الصغيرتان بكل ما يملك من غضب، من وجع، من انكسار. بدأ يضرب صدر غابرييل، يده على وجهه، على ذراعيه، ضربات عبثية لكنها مليئة بالقهر. لم تكن تؤلمه، لكنها كانت كأنها تحاول اختراق جلده للوصول إلى ضميره الذي مات.

غابرييل لم يتحرك... بل بقي واقفًا، ينظر إلى ليام بنفس الابتسامة الملتوية.
وكأن دموع الطفل وعجزه كانا يغذّيان متعته.

صرخ ليام مرةً أخرى، وهو يواصل ضربه دون توقف:
"كان والدي!! كان والدي!! لماذا فعلت هذا؟!!"

لكن غابرييل اكتفى بأن حنى رأسه قليلًا، واقترب من أذنه وهمس بصوت باردٍ كالموت:
"لأن والدك عرف الكثير... ولأنك الآن تعرف أكثر مما يجب."

ثم دفعه للخلف بلطف، وكأنما يضع نقطة في نهاية الجملة.
تراجع ليام خطوة، ثم وقع على الأرض، يختنق بدموعه وهو يرى جسد والده لا يتحرك...
ولا حتى أنفاسه تصعد.

ومع مرور الوقت، خطا غابرييل مبتعدًا عن المشهد وكأنه لم يرتكب جريمة هزّت الأرض تحت قدمي طفل. ترك خلفه جسدًا هامدًا... وطفلًا مكسورًا.

وصل الخبر أخيرًا إلى مركز الشرطة، إلى زملاء إيثان، إلى الصحف، إلى العائلة...
لكن الغريب أن أحدًا لم يأتِ.
لا ميرا.
لا نواه.
لا كايل.
لا أحد.

فقط ليام، طفل السابعة، واقف وسط دماء والده، بين صراخ سيارات الإسعاف وهمهمات رجال الشرطة الذين وصلوا متأخرين... دائمًا متأخرين.

بدأت الأضواء الحمراء والزرقاء تتراقص على الجدران، تنعكس فوق وجه ليام الشاحب، بينما وقف جامدًا، لا ينطق بكلمة، عيناه معلّقتان بجسد إيثان المسجّى على الأرض، وجفناه لا يقويان على حبس الدموع أكثر.

انزلقت دمعة، تلتها أخرى، ثم انهارت السدود.
لم يكن يبكي فقط... كان ينزف من الداخل.

أحد الضباط اقترب ببطء، همس لزميله:
"أهذا ابنه؟"
هز الآخر رأسه بصمت.

أما ليام، فلم يسمعهم، لم يرهم، لم يشعر بأحد.
كان في عالمٍ مكسور، حيث لم يبقَ سوى صورة واحدة تُعيد نفسها في ذهنه:
وجه والده... ويد غابرييل المغطاة بالدماء.

وسط الزحام والهمهمات، والضباط الذين يحيطون بالجثة والمكان، كانت عينا ليام تبحثان، تفتشان وسط الحشود عن أي وجه يعرفه... ثم توقفت.

غابرييل.

كان واقفًا بين المحققين، يتحدث مع أحدهم بهدوء تام، واضعًا يديه خلف ظهره كأن شيئًا لم يحدث. ثيابه نظيفة، وجهه هادئ، ملامحه باردة كثلجٍ لا يذوب. بل كان يبتسم.

اتسعت عينا ليام، وارتجف جسده، ثم تحولت دموعه إلى شرارات.
الغضب اشتعل في صدره، والحزن صار لهبًا.

"أنت..."

ثم انفجر.

شقّ صفوف الشرطة راكضًا، دفش أحدهم، تجاوز الآخر، وصرخ بكل صوته، بصوتٍ حادٍ مجروح:

"إنه هو!! إنه المجرم!! غابرييل هو من قتل والدي!! رأيته!!"

توقف الجميع.
كل الأعين التفتت نحوه.

تجمّد غابرييل في مكانه، لكنه استعاد ابتسامته الباردة بسرعة، ثم انحنى قليلًا ليقترب من ليام، وقال بصوتٍ مغطى بالشفقة الزائفة أمام المحققين:

"ليام... أعرف أن ما حدث صعب، لكنك خائف ومصدوم، لا بأس..."

دفعه ليام بكل ما في جسده الصغير من قوة، وهو يصرخ مجددًا:

"كاذب!! رأيتك! كنت هناك!! يدك كانت ملطخة بدم والدي!"

اقترب أحد المحققين بسرعة ليبعد ليام، محاولًا تهدئته، بينما غابرييل يحرك رأسه نافيًا، يقول:

"إنه مجرد طفل... لقد رأى والده ميتًا... عقله لا يستطيع احتمال ذلك."

لكن ليام، رغم قبضات الشرطي التي أحاطت بذراعيه، ظل يصرخ:

"أقسم أني رأيته!! إنه هو!! لا تصدقوه!!"

صمت تام خيم على المكان، قبل أن تبدأ الهمسات بين أفراد الشرطة:

"هل قال إن غابرييل؟"
"هل يمكن أن يكون هذا ممكنًا؟"

لكن لم يقترب أحد من غابرييل. لم يجرؤ أحد على التصديق.
ففي النهاية... من سيأخذ بكلام طفل فقد والده للتو؟

ليام نظر إليهم جميعًا، بعينين تحترقان، وعرف في تلك اللحظة الحقيقة المرّة:

لن يصدقه أحد.
وأنه أصبح وحده، تمامًا.

وفي داخله، بدأت النيران تتكوّن، نار لا تطفئها الدموع... بل تُشعلها.

ومع مرور الدقائق، بدأ المكان يستعيد نظامه وسط ضوضاء سيارات الشرطة والإسعاف، لكن خلف هذا المشهد الصاخب، بدأت خيوط التحقيق تُنسج. تم تكليف المحقق "ريتشارد هايز" — أحد المحققين المعروفين بدقتهم وبرود أعصابهم — بتولي قضية مقتل إيثان ڤوس، الذي كان زميلًا له.

استمع ريتشارد إلى إفادات الشهود، ثم إلى صراخ ليام الذي لم يتوقف، وأخيرًا قرر أن يجري استجوابًا سريعًا.

في إحدى غرف الاستجواب الباردة، ذات الإضاءة البيضاء القاسية، وُضع ليام على كرسي خشبي، وقد احمرت عيناه من كثرة البكاء، وكان جسده الصغير يرتعش لكنه لا يزال ممسكًا بكبريائه وكلماته.

دخل ريتشارد الغرفة، وبعده بدقائق، دخل غابرييل، الذي جلس بهدوء وثقة على المقعد المقابل، كأن شيئًا لم يحدث.

نظر المحقق ريتشارد إلى ليام وسأله بصوت متزن:

"ليام، أريد أن تكون صادقًا تمامًا... هل أنت متأكد مما رأيته؟ هل كان غابرييل هو من قتل والدك؟"

هزّ ليام رأسه بسرعة، كأنه يخشى أن يُنسى ما رآه، ثم قال بصوت مرتجف لكن مملوء بالغضب:

"أقسم... رأيته وهو يطعن والدي، رأيته بعينيّ... لم أكن أتخيل... الدم... السكين... حتى ابتسامته! كانت حقيقية!"

حاول ريتشارد أن يبدو محايدًا، لكنه زفر بهدوء ثم قال:

"ليام، أحيانًا الصدمة تجعلنا نخلط الأمور... قد يكون ما رأيته مجرد ردة فعل لعقلك من الخوف."

صرخ ليام، مقاطعًا:

"أنا لست مجنونًا! أنا متأكد! لماذا لا تصدقني؟!"

في الجهة المقابلة، كان غابرييل يراقب المشهد بهدوء، ثم قال بنبرة رخيمة:

"أنا آسف لما يمر به... لا ألومه، لقد فقد والده للتو... لقد كان إيثان أخًا لي. لا يمكن أن أؤذي عائلته."

نظر ريتشارد بين الاثنين، ثم أغلق دفتره وقال بهدوء:

"انتهينا الآن... يمكنكما الذهاب."

كانت تلك الجملة كصفعة باردة على وجه ليام.

أطلقوا سراح غابرييل.

لم يصدق أن الكابوس يمكن أن يكون بهذا العمق.
بينما غابرييل ينهض ويضع يده على كتف ليام وهمس له بكلمات لا يسمعها أحد:

"لن يصدقك أحد، صغيري... لكن لا تقلق، ستكبر... وربما، ستفهم."

شعر ليام بأن النيران التي كانت تحترق في صدره، بدأت تتحول إلى رماد يتجمع ببطء... ليصبح شيئًا أعظم من الحزن.

ثم، عندما خرج ليام إلى الشارع وقد بدأ نسيم الليل البارد يهمس على بشرته الطفولية، شعر بالبرد يتسلل إلى عظامه، ليس من الجو فحسب، بل من الشعور بالخيانة والخذلان.

لكنه لم يمشِ كثيرًا حتى توقفت أمامه سيارة سوداء صغيرة، نزلت منها امرأة ذات شعر بني مائل للأشقر، عيناها تشتعلان غضبًا، خطواتها سريعة كأن الأرض لا تجرؤ على إبطائها. كانت زوجة غابرييل.

اقتربت من ليام، ثم صرخت بوجهه دون رحمة، وصوتها يشق سكون الليل:

"من أنت لتتهم زوجي هكذا؟! طفلٌ ضائع لا يفرق بين الحقيقة والخيال؟! هل هذه هي تربية إيثان؟ أن يُخرج للعالم كاذبًا صغيرًا؟!"

نظر ليام إليها، وصدره يعلو وينخفض من الغضب، عيناه تلتمعان بالدموع التي لم تنهمر، بل تجمدت خلف كبرياء موجوع. لم يتحرك، ولم يصرخ، لكنه رفع رأسه ببطء، نظر في عينيها مباشرة، ثم قال بصوتٍ هادئ، لكنه يحمل من الحدة ما يكفي لقطع الزجاج:

"اسكتي لسانك القذر..."

سكتت المرأة، ولو للحظة، وقد باغتها الهدوء المشتعل في نبرة الطفل.

أكمل ليام، بعينين كأنهما تحملان ظل إيثان وصوته:

"أنتِ لا تعرفين من هو زوجكِ... لكني رأيته، رأيت وجهه الحقيقي وهو يقتل والدي، وأقسم... لن أنسى."

لم تنتظر المرأة المزيد، بل استدارت بعصبية، ولوحت بيدها وركبت السيارة مجددًا وهي تتمتم بكلمات لا يفهمها أحد. أما ليام، فوقف في مكانه، ينظر إلى السماء الصامتة، كأنها وحدها من صدّقه.

جلس ليام على الرصيف البارد، عينيه معلقتان في اللاشيء، والشارع من حوله صامت إلا من همسات النسيم العابث بشعره. طوى جسده الصغير، احتضن رأسه بين ركبتيه كمن يهرب من العالم، أو يحاول لملمة أشلاء ذاكرته المكسورة. كان كل شيء يعيد نفسه في ذهنه: صوت والده، ضحكته الخافتة في الصباح، حضنه قبل أن يرحل... ثم الدم، الصراخ، وذاك الوجه الذي لم يكن ليتوقعه.

أخافته فكرة أنه لن يرى والده مجددًا... لن يسمع خطواته عند عودته، لن يشعر بذراعه الحانية تُربّت على رأسه. فكرة الانتظار التي كانت دومًا مريحة، تحوّلت الآن إلى جحيم. لن يعود... هذه المرة، لن يعود.

دمعت عيناه، وانزلقت دمعة بصمت على خده المتجمد من الحزن، لكن قبل أن يسترسل أكثر في انكساره، سُمع صوت سيارة تتوقف فجأة أمامه. لم يرفع رأسه. لم يهتم. كل شيء في داخله كان ميتًا أو يحتضر.

ثم، جاء الصوت. حاد، غاضب، جاف كصفعة:

"انهض!"

رفع رأسه ببطء، ليقع بصره على والدته، ميرا، تقف أمامه بوجه متجهم، عيناها تشتعلان غضبًا لا يشبه الحزن. أمسكت بذراعه بقوة، شدّته كأنها تنتزع الألم من جلده وليس فقط تنهضه.

"قلت لك انهض!" صرخت مجددًا، دون أن تلاحظ كم كانت قبضتها مؤلمة، أو كم كان قلبه ينزف.

سُحب ليام نحو السيارة، دُفع نحو المقعد الخلفي، أُغلق الباب بقسوة، ثم اندفعت السيارة في الطريق، تاركة خلفها ظلال ليلة فقد فيها الطفل كل شيء....

دلفت السيارة إلى الممر أمام المنزل، وتوقفت بحدة كما انطلقت. خرجت ميرا من المقود وفتحت الباب الخلفي بعنف، ثم أمسكت بذراع ليام الصغير وكأنها تفرغ فيه غضبها لا حزنها، وجّرته إلى الداخل دون أن تنبس بكلمة.

دخلوا المنزل، فارتد صدى خطواتهم على الجدران الصامتة، وكأن المكان بأكمله ينكمش على نفسه في انتظار الانفجار. كان نواه وكايل في غرفة المعيشة، جالسين بصمت ثقيل حين دخلا.

وقفت ميرا لوهلة، ثم رمت بحقيبتها جانبًا وتقدّمت بخطى سريعة نحو نواه، نظراتها مشتعلة كعاصفة لم تجد طريقها للهدوء. أمسكته من ذراعه بقوة، شدّته وكأنها تريد أن تقتلع روحه معه.

صرخ نواه من الألم:
"أمي! توقفي! هذا مؤلم!"

لكنها لم تتراجع، بل صرخت في وجهه بنبرة مشوشة، يغلب عليها الانفعال:

"ستأتي معي، انتهى الأمر!"

أراد أن يحرر ذراعه، لكنه كان صغيرًا أمام قبضتها الغاضبة. قال بصوتٍ مختنق، ملامحه متشنجة:
"لا أريد الذهاب! أريد البقاء مع إخوتي... مع كايل ومع ليام!"

كان كايل يقف خلفهم بصمت، عينيه واسعتان من التوتر، بينما ليام كان لا يزال واقفًا قرب الباب، يحدق بالمشهد دون أن يجرؤ على التدخل.
في تلك اللحظة، لم تكن ميرا أمًّا حزينة... بل كانت امرأة مكسورة، تبحث عن تحكم زائف بأي شيء يمكن أن يمحو حقيقة أنها فقدت زوجها للأبد.

جلس كايل بصمت على حافة الأريكة، ينظر إلى الباب الذي أُغلق قبل لحظات بعنف خلف والدته ونواه. كان الصوت لا يزال يرن في أذنه، مختلطًا بصراخ نواه ودموع ليام غير المرئية.

التفت نحو أخيه الأصغر الجالس أرضًا قرب الحائط، رأسه منحنٍ ويداه تتشابكان فوق ركبتيه. لم يكن يبكي، لكن ملامحه كانت مطفأة، كأن شيئًا داخله انكسر ولن يعود.

قال كايل بصوتٍ منخفض، يحمل شيئًا من القلق:
"يا ترى... أين ستأخذ أمي نواه؟"

انتظر ردًا، ولو حتى نظرة، لكنه لم يحصل على شيء. بقي ليام صامتًا، عيناه ثابتتان على الباب، كأنّه يتوقع أن يُفتح فجأة ويعود والده، أو يرجع نواه، أو يُقال له إن كل ما حدث اليوم لم يكن سوى كابوس ثقيل.

لكن الصمت طال، ولم يتحرك ليام... لم يرد، لم يومئ، لم يتنفس بوضوح.

فهم كايل وقتها أن أخاه لا يملك إجابة... وربما، لا يريد أن يعرف.

في تلك الليلة التي بدت وكأنها أغلقت أبواب الطفولة في وجه ليام وكايل، كانت والدتهما قد قررت الرحيل... ليس فقط عن المنزل، بل عن دور الأمومة بكامل ثقله.

غادرت دون أن تنظر خلفها، أخذت نواه بقسوة وكأنها تنتزع آخر خيط يربطهم ببعض، وقادته إلى دار الأيتام كمن يتخلص من عبء لا يُحتمل.

لم تبكِ. لم تتردد. كانت خطواتها باردة كأنها تمشي فوق رماد الذكرى، بينما نواه كان يبكي بصوتٍ يشقّ القلب، يستغيث بأن يعود، بأن لا تتركه، لكن لا أحد أنصت.

مرت الساعات، والبيت أصبح خاليًا من الصوت... لا صراخ، لا ضحك، لا حتى خطوات أم تسأل عن واجباتهم.

كان ليام واقفًا في الممر، كأنّه لا يزال يرى ظِلّ نواه يُسحب من يده، يسمع صوته وهو يصرخ باسمه، وعيونهم تتقاطع لحظة... لحظة لن ينساها ما دام حيًا.

قال كايل بصوت خافت، مكسور:

"هي... رحلت."

لم يرد ليام، فقط أغمض عينيه وهمس كأنّه يكلّم نفسه:
"لقد أخذت جزءًا منّا معها."

مرّت السنوات كأنها تنحت الغضب في قلبه حجراً بعد حجر، وكبرت الظلال التي تسكن عينيه حتى أصبحت أوضح من نورها.
أصبح ليام في العشرين من عمره، طالبًا جامعيًا، لكنه لم يكن كأي طالب. كان يحمل على كتفيه ذاكرة مشوهة، وطفولة مبتورة، وندبة لا تُرى لكنها لا تنفك تؤلمه.

في أحد الممرات الباردة في الجامعة، كان ثلاثة فتيان يلاحقونه بكلماتهم المسمومة، يسخرون من ماضيه دون رحمة، يضحكون كأنهم يطعنون جرحه القديم بسكاكينهم. أحدهم قال بصوتٍ ساخر:
"أين والدك الآن؟ أظنه ما زال في قبره يهرب من خيبته بك!"

ضحكوا، وأحمر وجه ليام، لكن ليس بالخجل... بل بالغضب.

كانت يده ترتجف، ونبضه يتسارع، وشيء ما في داخله يهمس: **""اقتلهم، لن يشعر أحد، لن يفتقدهم أحد..."**

رأى في خياله وجوههم مضرجة بالدماء، يتخيل المشهد وكأنه لوحة فنية يشتهي تنفيذها. لكنه، في كل مرة، كان يُبعد تلك الفكرة... يُقصيها كما يُقصى شبح في العتمة.

رفع رأسه بصمت، ونظر إليهم نظرة جامدة، كأنها وعد لا يُقال، ثم تابع سيره دون كلمة.
لكنهم لم يعرفوا... أن هذا الصمت، ليس ضعفًا.
بل بداية احتضار.

وفي أحد الأيام المشمسة، حيث كان الطلاب يتوزعون في أرجاء الجامعة بين الكتب والضحكات، اشتعلت النيران فجأة في حديقة الجامعة، وتحولت الأشجار المزروعة بالعناية إلى أعمدة من الدخان الأسود. ركض الجميع في هلع، بينما ألسنة اللهب تلتهم الأخضر واليابس، وتصاعدت صرخات الاستغاثة والدهشة.

لكن المفاجأة لم تكن في الحريق ذاته... بل في الاتهام.

في اليوم ذاته، وقف مدير الجامعة غاضبًا، وبجواره أفراد من الأمن الجامعي، والطلاب يتجمعون في دوائر يتهامسون بأصابع تشير إلى ليام.
"أحدهم رآه في المكان قبل اشتعال الحريق."
"إنه غريب الأطوار، دائم الصمت."
"أليس هذا هو اليتيم؟ ربما بدأ يفقد صوابه!"

لم يكن لليام دفاع. لا شهود، ولا أصدقاء، ولا حتى كلمة تعاطف. فقط نظرات الاتهام تحاصره كالسكاكين.

وأسوأ من ذلك... الفتيان الثلاثة.
وقفوا في الصف الأول من المشتكين، يتظاهرون بالبراءة، وأحدهم قال أمام الجميع وهو يضع يده على قلبه المزيّف:
"لقد رأيناه يعبث في الحديقة قبل الحريق! علينا أن نكون حذرين منه!"

في تلك اللحظة، لم يكن في قلب ليام إلا الصمت... لكن بداخله، كان هناك شيء يتحطم نهائيًا.

وكأن داخله قال: **"انتهت الأعذار، وسقطت الحدود... سأقتلهم. لن أتركهم يُفلتون هذه المرة."**

لم يعبّر عن شيء. لم يصرخ. لم يدافع عن نفسه.
فقط وقف بهدوء كمن يستمع إلى عزفٍ جنائزي يعزفه القدر للفتيان الثلاثة…
وفي قلبه، اتخذ القرار.
الدماء ستُراق.
ولن يتراجع.

قسّم ليام انتقامه بدقة قاتلة، كأنما يُخطط لمقطوعة من الرعب موزعة على ثلاثة أيام...
كل يوم سيكون مخصصًا لواحدٍ من أولئك الفتيان.
ثلاثة أيام... ثلاثة أجساد... ثلاث رسائل.
ليس لأنهم يستحقون الشفقة أو التدرّج، بل لأن الألم يجب أن يُوزع كما وزّعوه عليه يومًا بعد يوم.

اليوم الأول:
مع غروب الشمس، راقب ليام أول الضحايا وهو يخرج من النادي الرياضي، يبتسم بغرور، لا يعلم أن الليلة ستكون الأخيرة في حياته.
تبعه بصمت في الأزقة المعتمة خلف الجامعة.
كان يحمل في جيبه خيطًا متينًا ومعدنًا صغيرًا.
وفي لحظة، انقض عليه كذئبٍ يعرف بالضبط أين يغرس أنيابه، وخنقه حتى بهتت عينيه وتوقفت أنفاسه، وتركه جثة ترتجف عند حاوية النفايات، كتب على صدره بدمه:
"1"

اليوم الثاني:
اختار ليام أن يكون القتل صاخبًا، مؤلمًا.
راقب الفتى الثاني وهو يضحك مع أصدقائه في ساحة الجامعة، ثم تبعه إلى منزله في الليل.
تسلل إلى غرفته من النافذة، وكأن الشياطين فتحت له الطريق،
أمسك به وكمّ فمه، وبدأ يطعنه مرارًا وتكرارًا...
كل طعنة كانت تحمل صرخة دفينة عاشها ليام لسنوات.
تركه في فراشه، غارقًا بدمه، وكتب على الحائط قرب رأسه:
"2"

اليوم الثالث:
كان الأصعب. الأخير كان هو الأكثر استفزازًا، الأكثر قسوة، من قاد الحملة ضده.
انتظره ليام بعد دوام الجامعة، وتحدث معه لأول مرة منذ سنين، قال له بابتسامة باردة:
"أردت أن أراك قبل النهاية."
ضحك الآخر ساخرًا:
"نهاية مَن؟"
فأجابه ليام بصوت خافت:
"نهايتك."
وفي تلك الليلة، وُجد جسده في المختبر، مقيدًا ومحروق الوجه.
وفوقه، بخطٍ حادٍ كالسكاكين، نُحت الرقم:
"3"

ثلاثة أيام مرّت.
وثلاثة قبور جديدة نُقشت في المدينة.
لكن بالنسبة لليام، لم يكن هذا سوى البداية...
الدماء غسلت العار، لكنها لم تُطفئ النيران التي اشتعلت في قلبه منذ الليلة التي قُتل فيها والده.

تم فتح التحقيقات بسرعة بعد تصاعد حالة الذعر في الجامعة وظهور القتلى الثلاثة بنفس النمط المتسلسل:
كلهم كانوا من نفس الدائرة... وكلهم متصلون بشخص واحد: ليام ڤوس.

في البداية، لم يشك أحد فيه. كان مجرد طالب خجول، منطوٍ، لا يرفع صوته، لكنه كان حاضرًا في خلفية كل مشهد، في كل زاوية من زوايا الأيام الثلاث.
ثم ظهرت أول خيوط الشك حين لاحظ المحققون وجود بصماته على أحد أغطية النوافذ في منزل الضحية الثاني،
ثم كاميرا أمنية مهملة قرب المختبر، التقطت ظلًا لا يُخطئه من يعرفه: كان هو... ليام.

اقتيد إلى التحقيق، جلس أمام المحققين، وجهه بارد، عيناه لا ترتجفان،
وحين سأله كبير المحققين بصوت صارم:
"هل قتلتهم؟"
لم يجب فورًا. كان الصمت أضخم من جدران الغرفة.
ثم أخيرًا، قال بصوتٍ خافت:
"لم أقتلهم... أنا فقط حطّمت الموازين التي وضعوها لي."

لكن أقواله لم تنقذه.
أُدين رسميًا بثلاث جرائم قتل من الدرجة الأولى.
وبينما كانت العيون تراقبه وهو يُقاد مكبل اليدين، كان الناس يرونه مجرمًا بدم بارد...

لكن هناك من رأى شيئًا آخر خلف نظراته...
شيئًا أعمق من الجنون، شيئًا اسمه: الانتقام العادل.

في قاعة المحكمة، علت همسات الحاضرين وهم ينتظرون النطق بالحكم،
وجلست هيئة المحكمة بوجوه جامدة، ثم ارتفع صوت القاضي واضحًا وحاسمًا:
"ليام ڤوس... بعد النظر في حيثيات القضية، وبالرغم من فداحة الأفعال، فإن ظروفك المخففة قد أُخذت بعين الاعتبار. تُحكم بالسجن خمس سنوات."

ساد الصمت لوهلة، قبل أن يبدأ البعض بالتنفس مجددًا،
أما ليام، فلم يُظهر انفعالًا.
كان ينظر بثبات... فقط نظر إلى كايل.

وكايل كان هناك... يجلس في المقعد الأخير، عينيه ممتلئتان بمزيج من الحزن والارتياح.
لم يكن فخورًا، لكنه لم يكن غاضبًا أيضًا.
كانت نظرته تقول: "نجوت... بطريقة ما، على طريقتك."

وقف ليام، اقترب منه الحراس لوضع الأصفاد.
وقبل أن يبتعد، التفت إلى كايل للمرة الأخيرة، همس بكلمة لا صوت لها،
لكن كايل فهمها جيدًا...
كانت كلمة: "سامحني."

وأومأ كايل برأسه، كأنّه يرد:
"فقط عد... حيًّا."

ثم سار ليام بين القضبان...
خمس سنوات قد تبدو قصيرة، لكنها كافية لتُصقل روحًا انكسرت.

في السنوات الخمس التي قضاها ليام ڤوس داخل السجن، لم يكن مجرد نزيل عادي...
كان أشبه بشبحٍ يتنقّل بين الزنازين، صامتًا، بوجه جامد لا يظهر عليه أي أثر للندم أو الألم.
هدوءه كان قاتلًا، وبروده المتجمد جعل الجميع في حالة حذر دائم.

العيون كانت تلاحقه في كل زاوية، لكن لا أحد كان يجرؤ على الاقتراب منه أو العبث معه.
حتى أكثر السجناء عنفًا، أولئك الذين تعودوا على افتراس الأضعف، كانوا يتجنبونه كأنّه يحمل مرضًا لا يُشفى منه...
مرض "الانتقام".

كان يستيقظ كل صباح في نفس الموعد، يُمارس تمارينه، يقرأ بصمت، يكتب أحيانًا ملاحظات في دفترٍ صغير يخبئه بعناية،
ويتأمل الجدران التي تحيطه وكأنّه يحفظ شقوقها وعدد مساميرها.
لم يكن يختلط... لم يكن يتكلم...
وحين يُجبر على التحدث، كانت كلماته قصيرة، باردة، حادّة كنصلٍ جديد.

الضباط قالوا عنه:
"إنه ليس عنيفًا، لكنه يحمل شيئًا مخيفًا في عينيه... شيء يشبه الهدوء الذي يسبق العاصفة."

وفي داخله، لم يكن ليام يضيع وقته.
كان يعدّ الأيام،
يخطّط،
ويُعيد كل لحظة من ماضيه في ذاكرته،
ليس ليندم... بل ليُبقي الجرح مفتوحًا،
كي لا ينسى أبدًا لماذا وصل إلى هنا، ومن الذي ما زال يجب أن يُحاسَب.

بعد خمسة سنوات*

كانت السماء مظلمة كأحشاء الليل، والنجوم متوارية خلف غيمات رمادية،
حينما فتح باب السجن الحديدي بصوتٍ صدىً حادٍ،
ليخرج ليام ڤوس، في قلب ليلة رأس السنة.

الساعة تدق الحادية عشرة والنصف ليلاً،
بينما المدينة تحبس أنفاسها استعدادًا لاستقبال عام جديد،
خرج هو من ظلمات زنزانته إلى ظلمات الشارع المبتل بالندى والبرد القارس.

وجهه شاحب، عينيه تحملان حكايات خمسة أعوام من العتمة،
لكن خطاه كانت حاسمة، لا ترفرف فيها شفقة أو تردد.

رائحة المطر تسبق خطاه، تلامس أكتافه كأنها تمهد له طريق الانتقام،
وعقله مشحون بذكريات دم والده، وبصمت غابرييل الذي زرع جرحًا لا يندمل.

سار وسط الظلال، بينما الساعة تقترب من منتصف الليل،
تلك اللحظة التي تشرق فيها شمعة عام جديد على رماد الماضي.

توقف للحظة، رفع رأسه نحو السماء المتلبدة،
وقال ببرودٍ قاتل:
"خرجت اليوم، لكن السجن الحقيقي لم يبدأ بعد..."

كانت خطوات ليام ثابتة وواثقة، يسير في طريقه نحو المنزل الذي احتضن أيام شبابه برفقة كايل، أخيه الوحيد الذي بقي إلى جانبه في خضم العاصفة. قلبه يخفق بحماس لرؤية ذلك الوجه المألوف، لتلك الذكريات التي يشتاق إليها بشدة.

لكن أجواء ليلة رأس السنة كانت تتسلل في كل زاوية، أضواء النيون تتلألأ، وأصوات الموسيقى الصاخبة تخترق الأجواء، واحتفالات صاخبة تملأ الشوارع بزخم لا يُطاق. ازدحام هائل يحاصر كل مفترق، وصخب من البشر يحتفلون بنهاية عام وبداية آخر.

بينما كان ليام يشق طريقه بحذر بين الزحام، اصطدم فجأة بفتاة تُكاد تترنح من ثقل السكر في عينيها، تتمايل كأنها شجرة عصفها ريح الشتاء. وقعت نظراتها المبهمة عليه للحظة، ثم تمايلت وكادت تسقط لولا أن أمسكها ليام بحزم.

صوتها كان مخمورًا ومتناثرًا بين الكلمات غير المفهومة، لكنها كانت برائحة حياة غير متوقعة وسط تلك الليلة الملبدة بالصخب والفوضى.

ثم دوّى صوت من الخلف، مرتفعًا وسط الضجيج والموسيقى:
"إليورا! هل أنتِ بخير؟!"

كانت فتاة أخرى تشق الزحام، عيناها قلقتان، وملامحها مشدودة وسط الاحتفالات. لكنها، مثل الآخرين، لم تنتبه للشخص الذي يمسك بإليورا. ليام، بوجهه الجامد وجسده الواقف كالظل، بدا كأنه غير مرئي وسط موجة الناس المتدفقة.

لم يكن أحد يراه، لم يكن أحد يعرفه.
مجرد وجه آخر خرج لتوّه من غياهب خمس سنوات من العزلة.

نظر إلى إليورا، التي كانت لا تزال تتكئ على ذراعه، شعرها مبعثر، ووجهها مشوش، لكن عينيها بدأت تستعيد وعيها شيئًا فشيئًا. رفعت رأسها نحوه ونظرت بعينين نصف مغمضتين، وحدّقت فيه كما لو كانت تراه من عالم آخر.

"أنت... من تكون؟" همست بصوت خافت يكاد لا يُسمع وسط الضجيج.

لكن ليام لم يجب. اكتفى بنظرة ثابتة، ثم حرر ذراعه من قبضتها برفق، وابتعد خطوة للوراء.

إليورا كادت تسقط مجددًا، لولا أن وصلت صديقتها، التي أمسكت بها بسرعة واحتضنتها بذراعها.
"أنا غبية، قلتِ لي انكِ لا تشربي هذا الشيء!" تمتمت صديقتها، وهي تسحبها من مكانها.

التفتت إليورا إلى الوراء تبحث عن الشاب الغريب، لكن ليام كان قد اختفى بين الزحام.

كأنه لم يكن موجودًا أصلًا

ثم وصل ليام أخيرًا إلى المنزل الذي لطالما اعتبره ملاذه الوحيد. أمام الباب، توقّف للحظة، ابتسامة خفيفة ترتسم على شفتيه، ودفء داخلي اجتاح قلبه مع ذكريات كثيرة مرت كوميض أمام عينيه. أخذ شهيقًا عميقًا، ثم مدّ يده وطرق الباب بثقة واشتياق.

انتظر لحظات. لا صوت، لا حركة.
ثم فجأة... انفتح الباب.

ظهرت أمامه امرأة في الأربعينات من عمرها، شعرها مربوط للخلف بطريقة أنيقة، وعيناها مليئتان بالفضول والحذر. حدّقت فيه لثوانٍ ثم قالت:
"كيف يمكنني مساعدتك؟"

تجمّد ليام في مكانه. ارتبك. هذه ليست الوجهة التي كان يتوقعها. لكنه تمتم:
"أنا... أريد رؤية مالك المنزل. أخي، كايل."

رفعت المرأة حاجبها باستغراب وقالت بنبرة هادئة:
"أنا مالكة هذا المنزل."

اتسعت عينا ليام، وهزّ رأسه غير مصدّق، كأنما تلقى لكمة غير مرئية في صدره. نظر إلى الباب، إلى الجدران، إلى النافذة التي لطالما تسابق مع كايل ليغلقوها وقت المطر... كل شيء بدا مألوفًا، لكنه ليس كما كان.

قالت المرأة، بعد أن لاحظت ملامحه المتفاجئة:
"أوه... فهمت. أنت تقصد مالك المنزل القديم؟ آسفة، لقد باع لي هذا البيت منذ سنوات... أخذ منزلاً آخر في منطقة مختلفة، لكن لا أعرف أين تحديدًا."

شعر ليام أن الأرض تبتعد تحت قدميه. البيت الذي ظل متمسكًا بصورته في ذهنه... لم يعد موجودًا كما كان. وكايل، الشخص الوحيد الذي اشتاق له حقًا، اختفى في مكان مجهول.

قال ليام بصوت خافت بعدما صمت لوهلة:
"حسنًا..."
ثم استدار، وقد خفتت نبرة صوته وذبلت نظرته كأن الأمل الذي حمله في قلبه ذاب مع نسيم الليل البارد. لكن قبل أن يخطو بعيدًا، أوقفته المرأة بصوت ناعم:

"مهلًا... هل تملك منزلاً تسكن فيه؟"

توقف ليام، التفت ببطء نحوها، وعيناه تعكسان مزيجًا من الحيرة والإرهاق، ثم هز رأسه قائلًا:
"لا... لكنني سأبحث عن واحد."

رفعت المرأة حاجبيها بدهشة خفيفة ثم ابتسمت بلطف ودفء، وقالت:
"يمكنك أن تقيم معنا مؤقتًا، حتى تجد لك منزلًا... إن لم يكن لديك مانع."

حدّق بها ليام مذهولًا، لم يتوقع هذا العرض أبدًا.
قال بصوت متفاجئ، فيه ذرة أمل تسرّبت دون إذنه:
"هل... هل يمكنني حقًا؟"

أومأت المرأة برأسها بابتسامة صادقة:
"بالطبع، هذا أقل ما يمكن فعله لشخص بدا وكأنه عاد من معركة طويلة."

تردد ليام قليلًا، تلاحقت في رأسه ذكريات الوحدة والبرد، ثم خفض رأسه ببطء وقال:
"شكرًا لكِ... حقًا."

في الجانب الآخر، كانت إليورا قد استعادت جزءًا من وعيها بعد أن تناولت شرابًا يُخفف من أثر الكحول. وقفت في مكانها تتأمل الشارع المضطرب بأنواره وضجيجه، وما زالت في ذهنها تفاصيل الخديعة التي تعرّضت لها. تذكّرت صديقتها، تلك التي وعدتها بعصير تفاح منعش، لكنها قدّمت لها كأسًا من الخمر دون أن تتنبّهها.

قطّبت حاجبيها، وتمتمت وهي تمسح فمها بكُمّها:
"سأقتلها... تلك الحمقاء! سأدفنها خلف طاولة المشروبات."

غضبها كان ساخرًا، لكنه لم يخلُ من ضيق حقيقي، فقد كانت تكره الكحول ولا تقترب منه. إلا أن هذه الليلة كانت مختلفة، محمّلة بالمفاجآت غير المرحّب بها.

وفي غمرة شرودها، سقطت على خدّها قطرة مطر باردة. رفعت رأسها إلى السماء الملبدة بالغيوم، لتتبعها قطرة أخرى، ثم ثالثة، حتى بدأ المطر يهطل بغزارة، كأن السماء اختارت تلك اللحظة لتغسل ما علق بها من خمر وغضب.

شهقت وهي ترفع يديها فوق رأسها محاولة الاحتماء من البلل:
"يا إلهي... وكأن ما حدث لا يكفي!"

ركضت بخطى متعثرة نحو متجر قريب للملابس، والشتاء يصفع كتفيها المكشوفتين، وقطرات المطر تتسلل إلى عنقها. دفعت باب المحل بيدها المرتجفة، ودخلت تتنفس بسرعة وقد تبلّلت أطراف شعرها. قالت بامتعاض ساخر:
"يبدو أني سأشتري مظلة... "

ثم عادت إليورا إلى منزلها، تخطو خطواتها كأنها ترقص على نغمة المطر. كانت تدور حول نفسها، والمظلة تدور معها بخفة، بينما ترتسم على وجهها ابتسامة دافئة، نقية كوجه فتاة لم تلوّثها الحياة بعد. المطر ينهمر، لكنها لم تبالِ، وكأن البلل جزء من متعتها اللحظية، لحظة من جنون الطفولة وسط صخب ليلة رأس السنة.

عندما وصلت إلى الباب، وقفت لوهلة، نزعت حذاءها المبلل عند العتبة، ثم أزاحت المظلة جانبًا، ومررت أصابعها بشعرها المبلل ونفخته إلى الخلف بخفة، كأنها تحرر نفسها من عبء اللحظة السابقة.

دخلت إلى الداخل بخفة، توجهت نحو غرفة المعيشة وهي تصرخ:
"أمي! عدت!"
كانت لهجتها مرحة، دافئة، لكن صدى صوتها ارتدّ إليها بصمت غير مألوف.

وقفت فجأة، عيناها تحركت نحو الأريكة، وفجأة توقّف كل شيء.

هناك، على الأريكة، جلس ذلك الشاب الغريب...
عيناه الداكنتان تتأملان المكان، جسده مسترخٍ لكن وجهه يحمل ظلالًا من قصص كثيرة، إنه هو... الشاب الذي أنقذها قبل قليل من السقوط وسط الزحام.

فتحت فمها بدهشة وهمست:
"أنت...؟!"

نظر ليام إليها بدهشة، وكأن وجهها أعاده للحظة اصطدامهما وسط الزحام والصخب. عبست ملامحه قليلًا وهو يحدق بعينيها المتوسعتين دهشة، لم يتوقع أن يراها مجددًا، وبالتأكيد ليس هنا... في هذا المكان، في هذا المنزل بالتحديد.

مرّت لحظة صمت ثقيلة بينهما، فقط صوت قطرات المطر وهي ترتطم بزجاج النافذة كان يملأ الفراغ.

رفع ليام حاجبه قليلًا، ثم قال بصوت منخفض لكنه واضح:
"أنتِ... الفتاة من الشارع؟"

أما إليورا، فوقفت متجمدة في مكانها، تشير إليه بإصبع مرتجف، ثم قالت بصدمة:
"ما الذي تفعله في منزلي؟!"

وقبل أن يجيب، ظهرت والدتها صوفيا من المطبخ وهي تحمل كوبين من الشاي، نظرت إليهما باستغراب ثم ابتسمت:
"أوه! يبدو أنكما تعارفتما بالفعل!"

ثم التفتت إلى إليورا وقالت بنبرة دافئة:
"عزيزتي، هذا ليام... سيقيم معنا مؤقتًا حتى يجد مكانًا له."

لكن نظرات إليورا لم تكن دافئة على الإطلاق... كانت عيناها لا تزالا تحدقان فيه، كما لو أن القدر يعبث بها بطريقة عجيبة...
وهو، من جهته، لم يبعد نظره عنها، تلك الفتاة التي ظهرت وسط عاصفة... والآن تدخل مجددًا إلى قصته، دون استئذان.

تناولت إليورا الكوب من يد والدتها ببطء، وكأنها لا تزال تحاول استيعاب الموقف، ثم جلست على طرف الأريكة المقابلة، تبقي مسافة واضحة بينها وبين ليام. أما هو، فأخذ كوبه بصمت، يكتفي بنفث البخار المتصاعد من الشاي ومراقبة انعكاسه في سطحه.

لم يكن أحدهما يتكلم، لكن العيون كانت تفعل.
عيون إليورا تمتلئ بتساؤلات لم تُسأل بعد، وعيون ليام تراقب بحذر، كأن كل شيء حوله مؤقت... حتى الجلوس، وحتى الراحة.

قالت صوفيا بنبرة خفيفة تكسر الصمت:
"أرجو أن لا تمانعي يا إليورا، لقد شعرتُ أن الشاب لا يملك مكانًا ليذهب إليه، ولا يمكنني أن أتركه في هذا الطقس القاسي."

هزّت إليورا رأسها ببطء، ثم تمتمت دون أن تلتفت نحو ليام:
"لا بأس، مادام الأمر مؤقتًا."

رفع ليام عينيه نحوها، ثم قال بنبرة هادئة خالية من أي هجوم:
"أنا لن أكون عبئًا، وسأغادر بمجرد أن أجد مكانًا."

لكن شيئًا في نبرة صوته كان يحمل ثقل السنوات الخمس التي قضاها في السجن... ثقل الوحدة، وثقل الحقيقة التي لا يعرف أحد عنها شيئًا.

كانت إليورا تشرب من كوبها ببطء، تحدق فيه، ثم قالت دون أن تنظر إليه:
"ماذا كنت تفعل في الشارع تلك الليلة؟"

رفع حاجبه قليلًا، لكنه لم يجب، اكتفى بابتسامة خفيفة بالكاد ظهرت، ثم قال:
"ربما سأجيبك يومًا ما... عندما لا تمطر الأسئلة هكذا فجأة."

ومع تلك الجملة، عمّ الصمت مجددًا، بينما بقيت نظراتهما تلتقي في منتصف المسافة...
وكأن شيئًا ما قد بدأ، رغم أن لا أحد منهما يعرف ما هو بعد.

ثم فجأة، عادت شخصية إليورا الطفولية للظهور، وزحفت بخفة على الأريكة حتى اقتربت من ليام، وعيناها تلمعان ببريق بريء، وابتسامة صغيرة ترتسم على شفتيها، وقالت بنبرة مرحة:
"أخبرني إذن؟ أين كنت؟ هل كنت في منطقة جبلية جميلة؟ أو ريف هادئ تنتشر فيه الأزهار؟ أم لعلك كنت في دولةٍ ذات مناظر خلّابة؟ هيا، لا تُخفِ الأمر عني!"

نظر ليام نحوها بدهشة خفيفة، لم يتوقع هذا الفضول الطفولي المنطلق وسط سكونه، ثم أشاح ببصره إلى الأمام، ارتشف من الكوب بين يديه وأجاب بصوتٍ هادئ:
"كنت في مكان بعيد... بعيد بما يكفي لأن أنسى طعم الوقت."

أمالت إليورا رأسها، وعيناها تزدادان فضولًا، لكنها شعرت بشيء ثقيل في كلماته، لم يكن جوابه يحمل متعة المغامرة كما توقعت، بل عبقًا غريبًا من الغموض.

قالت وهي تضحك محاولة كسر الجو:
"بعيد عن طعم الوقت؟ هذا يبدو كشعر لا كمكان! هل كنت في دير بوذي على قمة جبل؟ أم تتبع طقوس عزلة روحية في كهف ما؟"

ابتسم ليام ابتسامة باهتة، كأنها كسرت شيئًا داخله للحظة، ثم قال:
"ربما... شيء من هذا القبيل."

ثم ارتشف مجددًا من الكوب، بينما كانت إليورا لا تزال تحدق فيه، تتساءل في نفسها: ما القصة التي يخفيها خلف صمته؟

ثم، وبينما كانت إليورا مستغرقة في تأمل وجه ليام الغامض، رمقت الساعة المعلقة على الجدار بطرف عينها، فتوسعت عيناها فجأة بدهشة طفولية وقالت بصوت خافت:

"يا إلهي... إنها الثانية صباحًا!"

نظرت إلى ليام بدهشة ثم قفزت واقفة وكأنها تذكّرت شيئًا مهمًا، وضربت جبينها بلطف وهي تضحك:

"لقد نسيت أنني وعدت نفسي بالنوم مبكرًا هذا العام... وها أنا أفسد القرار في أول ليلة."

أشاح ليام ببصره نحو الساعة، ثم أعاد نظره إليها وقال بنبرة هادئة:

"الوقت يمرّ بسرعة حين لا نراقبه."

أجابت وهي تتجه نحو الدرج بخفة:

"أو حين نكون بصحبة أشخاص غامضين مثلك."

ثم لوّحت له بيدها بخفة وهي تصعد:

"تصبح على خير، أيها الغريب ذو العيون الصامتة."

ظل ليام جالسًا في مكانه، يحدق في المسافة التي غابت فيها، والصمت يملأ الغرفة مجددًا... لكن شيئًا دافئًا بقي في الهواء بعد رحيلها.

..... في الصباح التالي، كانت أشعة الشمس تتسلل بخجل من بين الستائر، ترسم خطوطًا ذهبية على أرضية غرفة المعيشة. الهواء ساكن، يعمه هدوء ما بعد صخب ليلة الاحتفال.

كان ليام لا يزال نائمًا على الأريكة، رأسه مستقر على وسادة صغيرة، وملامحه هادئة على غير عادته. رغم قسوة السنين التي حُفرت في ملامحه، بدت عليه سكينة مؤقتة، كأن هذا المنزل منح قلبه المتعب لحظة راحة.

صوت خطوات ناعمة قطع الصمت، كانت إليورا تمشي على أطراف أصابعها، تحمل كوبًا من القهوة بين يديها. توقفت عند الباب، تنظر إلى ليام وهو نائم، وابتسامة خفيفة تتسلل إلى شفتيها.

همست لنفسها: "غريب... يبدو مختلفًا وهو نائم. كأنه شخص آخر تمامًا."

ثم اقتربت بهدوء، وضعت الكوب على الطاولة القريبة، وجلست على المقعد المقابل، تراقبه للحظات بصمت... كأنها تحاول فك شيفرة غموضه دون أن توقظه.

ثم فتح ليام عينَيه ببطء، كأن الضوء يثقل جفونه بعد ليلة طويلة من التعب. حدّق في السقف لحظة، وكأن ذهنه لم يستوعب بعد أين هو، ثم استدار بعينيه بهدوء ليقع نظره مباشرة على إليورا الجالسة بصمت، تحدق فيه بابتسامة خفيفة وكوب القهوة بين يديها.

قال بصوت أجش مبحوح من أثر النوم:
"كم الساعة؟"

أجابته وهي ترفع حاجبًا:
"الثامنة والنصف. توقعت أنك ستنام أكثر بعد كل ذلك التعب..."

جلس ليام ببطء، ومرر يده في شعره بتعب، ثم قال بنبرة منخفضة وهو ينظر إلى الكوب على الطاولة:
"هل هذا لي؟"

هزّت رأسها بالإيجاب وقالت:
"أعددته بنفسي... لا تقلق، هذه المرة هو قهوة، ليس كما فعلت صديقتي البارحة."

ثم اعتدلت إليورا في جلستها، ووضعت كوب القهوة على الطاولة أمامها، وقالت بنبرة تحمل مزيجًا من الاستياء والدهشة:

"تخيل فقط، أنا طلبت منها عصير تفاح... عصير تفاح! وبدلًا من ذلك ناولتني كأسًا من الخمر، وتظاهرت وكأنها لا تعرف شيئًا!"

ثم وضعت يديها على خديها وانفجرت غاضبة بطريقة طفولية:
"آه! تلك الحمقاء... سأشنقها! أقسم أنني شعرت بدوار الدنيا تدور بي! كنت سأقع على الرصيف وأبكي كالأطفال!"

ضحك ليام بصوت خافت، وهو يراقبها تنفعل بكل صدق، وكأنها لم تعد تهتم بأن مَن أمامها غريب عنها، أو أنه التقاها منذ ساعات فقط. ثم أضافت إليورا وهي تشير بإصبعها كمن يهدد:

"وغدًا، عندما تراها مجددًا، سترى إليورا جديدة... إليورا لا ترحم!"

ابتسم ليام، ولم يقل شيئًا، فقط ارتشف من كوبه بهدوء، وسمح لتلك اللحظة أن تتسلل إلى قلبه، كنسمة دافئة وسط شتاءٍ لا ينتهي.

ثم وضع ليام الكوب على الطاولة بهدوء، ونظر إلى إليورا بابتسامة خفيفة لكنه قال بحزم:

"سأخرج لأخذ جولة في المدينة، أحتاج لبعض الهواء والهدوء."

نهض ببطء من على الأريكة، وأخذ يرتدي معطفه. فتحت إليورا فمها لتقول شيئًا لكنه لم ينتظر، وتوجه نحو الباب. خرج من المنزل واندفع في شوارع المدينة المضاءة بألوان أضواء الشوارع، يمر بين الزحام والاحتفالات الصاخبة، وكأن قلبه يبحث عن شيء مفقود بين هذه الأضواء والوجوه الغريبة.

خطواته كانت متثاقلة لكنها ثابتة، يمر من أمام المحلات الصغيرة، المقاهي التي تملأها ضحكات الشباب، وأصوات الموسيقى المنبعثة من بعيد. في داخله عاصفة من الأفكار والمشاعر، لكنه لم ينطق بكلمة، فقط يمشي، يبحث عن هدوء بين ضجيج المدينة.

... في الجانب الآخر من المدينة، في مبنى التحقيقات الذي يعج بالغموض والأسرار، جلس رجل بملامح حادة ونظرة ثاقبة تخفي وراءها دهاءً لا يُضاهى. كان يرتدي بذلة رسمية داكنة، تُبرز قوامه القوي وهيبته التي تفرض احترامًا حتى على أقوى الرجال. بيده اليمنى كان يمسك بسيجار يطلق منه دخانًا أبيض يتصاعد ببطء في الهواء، يرافقه ابتسامة ماكرة تلمع في عينيه كأنها تخبئ خطة محكمة لم ينكشف طرف منها بعد.

وقف لحظة وهو يحدق عبر نافذته المطلة على أضواء المدينة المتلألئة في تلك الليلة، ثم التفت نحو الباب وطرق عليه بخفة وثقة، كأنه يعلم أن وراء هذا الباب تكمن معلومات ثمينة.

سمع صوت المساعد من الداخل: "تفضل."

فتح الباب ودخل مساعده، رجل في الثلاثينات من عمره، يرتدي بذلة بسيطة ولكنها مرتبة، يحمله على وجهه مزيج من الاحترام والقلق، وخفض رأسه احترامًا أمام رئيسه. قال بصوت منخفض، لكنه واضح: "سيدي غابرييل، لقد خرج من السجن الليلة الماضية."

ابتسم غابرييل ابتسامة لا تخلو من الغل والحقد، وأشاح بنظره صوب المساعد قائلاً بنبرة حازمة: "حسنًا، نواه، أريد منك أن تتابع كل تحركاته دون أن يلحظ شيئًا. لا أريد أن يلتقط أنفاسه، ولا أن يشعر بالأمان، أريد أن أكون دائمًا في ظله."

خرج نواه من المكتب وأغلق الباب خلفه بقوة، وحين استدار، ارتسم على وجهه تعبيرٌ غامض متقلب بين الحقد والكراهية العميقة، تلك التي يشاركها مع أخيه ليام تجاه غابرييل. لم يكن شعور الفرح الذي خيم على ملامحه نابعًا من رحمة أو ود، بل كان نتيجة انتظار طويل لرؤية النهاية التي لطالما حلم بها أخوه وليام.

نواه، الأخ الأكبر الذي عانى من ظلمة الفقد والخذلان، كان يحمل في صدره نفس الكراهية التي تملكت ليام. تلك الكراهية الموجهة لغابرييل، الرجل الذي دمّر عائلتهم، قتل والدهم، وجعل حياتهم تمضي في دوامة من الألم والانتقام.

لكن رغم الحقد المتبادل، لم يكن نواه لينسى أن خروج ليام من السجن يعني بداية حرب جديدة على غابرييل، وهي حرب قد تمنحه الفرصة لينال من هذا الرجل الذي سلب منهم كل شيء. في عيني نواه، كانت هذه اللحظة بداية إشعال نار الانتقام التي لن تنطفئ إلا بسقوط غابرييل المروع.

ابتسم نواه بابتسامة باردة وقاتلة، وعاد يسير بخطوات ثابتة في الممر، قلبه يعتصر من الغضب، وعقله يدبر كيف يستغل هذه الفرصة ليقرب معركة الإطاحة بغابرييل، ذلك الوحش الذي لا يستحق الرحمة.

ثم بينما كان نواه يسير في الممر الطويل المؤدي إلى المصعد، اهتز هاتفه المحمول بين يديه، أضاءت الشاشة باسم مرسل غريب لم يره منذ سنوات: فيكتور سانتوس، رئيس المافيا واليد القذرة التي تتحكم بخيوط الفساد في المدينة من خلف الستار.

فتح نواه الرسالة، فظهرت كلمات مقتضبة لكنها مشبعة بالغضب:

"لماذا غابرييل الأحمق لا يرد على اتصالاتي؟ هل يتعمد تجاهلي؟"

حدّق نواه في الكلمات برهة، ثم رفع حاجبه بسخرية خفية، كأنما وجد متعة في توتر العلاقة بين غابرييل وفيكتور. تمتم لنفسه بصوت منخفض:

"يبدو أن حبال اللعبة بدأت تتشابك... أخيرًا."

أعاد الهاتف إلى جيبه، ولم يرد. كان يدرك أن هذا الصدع بين الوحشين قد يكون المفتاح الذي ينتظره هو وليام منذ زمن طويل.

.... في الطابق الأعلى من برج زجاجي مظلم يطلّ على المدينة، جلس فيكتور سانتوس خلف طاولة فخمة من خشب الماهوغاني، تُحيط به نوافذ عملاقة تُظهر مشهدًا للمدينة المحتفلة بنهاية العام، بينما لمعة الشر تعكسها أضواء النيون على وجهه المتعب المليء بالندوب.

كان فيكتور رجلاً في أواخر الخمسينات من عمره، لكن هيبته طغت على كل سنواته. وجهه صارم، وعيناه كشفرات حادة تقطع كل من يجرؤ على النظر فيها طويلًا. بين أصابعه سيجارة فاخرة، تتراقص بين أنامله ببطء، وكأنها انعكاس لصبره المتلاشي.

وضع الهاتف بقوة على الطاولة بعد أن أرسل رسالته الأخيرة لنواه، ثم زفر بقسوة وقال للمساعد الواقف بجانبه:

"غابرييل بدأ يظن نفسه أكبر من اللعبة... نسي من الذي رفعه من القذارة وجعل منه رجلاً ذا شأن."

اقترب منه مساعده بخوف: "سيدي، هل تأمرني بأن أرسل رجالنا للتعامل معه؟"

لوّح فيكتور بيده بإشارة رفض بطيئة، وارتسمت على شفتيه ابتسامة مريضة:

"لا... بعد. دع الغبي يظن أنه في مأمن. سأجعله يشعر أن الأمور تحت سيطرته حتى يسقط بنفسه."

ثم رمق المدينة بنظرة طويلة، وقال بصوت منخفض يحمل في نبرته المرض والإرهاق:

"لم أعد أملك الكثير من الوقت... لكني لن أغادر قبل أن أُنهي هذه اللعبة على طريقتي."

سعل فجأة، سعالًا عنيفًا امتزج بطرف منديل ملطخ بالدم، لكنه تجاهل الأمر، ومسح الدم ببرود، ثم أكمل حديثه كأن شيئًا لم يكن:

"راقب كل شيء، وخاصة ذلك الفتى... ليام ڤوس."

ثم رفع رأسه للأعلى وهمس:

"ابن إيثان... سيأتي إليّ عاجلاً أم آجلاً، وحينها، سأكون مستعدًا."

ثم خفت ضوء الغرفة قليلًا، وغرق فيكتور في صمتٍ قصير. أدار كرسيه ليواجه النافذة المطلة على المدينة، وأخذ نفسًا عميقًا من سيجارته بينما تسللت إلى ذهنه صورة قديمة... صورة رجل كان يومًا ندًا له، بل الوحيد الذي تجرأ على الوقوف في وجهه.

إيثان ڤوس.

تسللت ابتسامة باهتة إلى وجهه المتجعد، مزيجٌ غريب بين الحنين والسخرية، وقال بصوت منخفض، كأنه يحدث شبحًا من الماضي:

"كنت عنيدًا، شريفًا، و... مملًا جدًا."

ضحك بخفة، ثم أردف وهو ينظر للسماء من خلف الزجاج:

"لكنك كنت خصمًا جديرًا يا إيثان. مؤلم أنك متّ بهذه الطريقة... لكن الأجمل أن ابنك يسير الآن على طريقك، أو ربما... طريقي."

ثم سعل مرة أخرى، بعنفٍ أكبر هذه المرة، حتى انحنى بجسده فوق الطاولة، وأمسك بالمناديل التي سرعان ما لطخها الدم.

مسح فمه وهو يهمس:

"الدماء القديمة لم تجف بعد... ولن تجف إلا بدماء جديدة."

رفع بصره نحو المدينة مجددًا، وبدا في عينيه وهج الموت القريب، لكنه أيضًا وهج من لا يخشى النهاية، بل يحتضنها كأنها وعدُ انتقام مؤجل.

دوى صوت خطوات ثقيلة على أرضية الرخام اللامعة، وفتح الباب ببطء، ليدخل أحد رجال فيكتور بثياب قاتمة ونظرة مشوبة بالحذر. انحنى باحترام أمام سيده، وقال بصوتٍ خفيض مشوب بالتوتر:

"سيدي فيكتور... أحد رجالنا، تم التأكد من خيانته. كان يتواصل سرًا مع جهة مجهولة، وقد علمنا أنه يخطط لقتل السيد جوليان."

توقف الزمن للحظة.

فيكتور لم يتفاجأ، بل كانت ملامحه ثابتة كلوحة من رخام، نفض رماد سيجارته فوق المنفضة، ثم اعتدل في جلسته ونظر نحو رجله بنظرة باردة حادة كحدّ السكين:

"ومن هو؟"

أجاب الرجل بعد لحظة تردد: "اسمه لوثر، كان من رجال ماركوس، يعمل حاليًا ضمن فريق الحماية الخاص بجوليان."

ارتفعت حاجبا فيكتور قليلًا، لم يكن الاسم غريبًا، لكنه لم يتوقع أن تأتي الطعنة من داخل فريق ابنه.

همس بصوت منخفض، كأن كلماته تخرج من كهف قديم:

"كل الخونة ينهارون قبل أن ينجحوا... لكن من يفكر بقتل ابني؟ تلك قصة أخرى."

ثم حدق به قائلاً بلهجة قاتلة:

"أريد لوثر حيًا... للحظات الأولى فقط. بعدها، اجعل منه درسًا لا يُنسى... لكل من تسوّل له نفسه."

انحنى الرجل ثانية وقال: "كما تأمر، سيدي."

وقبل أن يغادر، أضاف فيكتور بصوت ثقيل:

"واحذر... إن مس أحد شعرة من رأس جوليان، سأحول كل هذا المبنى إلى مقبرة، بدءًا بك أنت."

انحنى الرجل أعمق هذه المرة، وغادر سريعًا... تاركًا فيكتور وحده مع دخان سيجارته... ومع غضب لم يعد قابلاً للكتمان.

كان ليام يتمشى في الشارع بخطوات هادئة تحت السماء الرمادية، الهواء البارد يلف جسده كغطاء من الذكريات. لم يتغير شيء في ريفنشيد... سوى القليل. بعض المحلات أغلقت، وأخرى افتُتحت، لكن الأرصفة المتشققة، روائح الشحوم والقمامة، العيون المتطفلة، والوجوه المتبلدة... كلها كما كانت، كأن الزمن رفض أن يمر هنا.

لكن داخله لم يكن كما كان.

وبينما يمشي، مر بجانب إحدى الزوايا... وفجأة، اجتاحه ذلك الشعور.

مشهد الدماء، الوجوه المرتبكة، الصراخ، والذعر. كان ذلك في المرة الأولى... عندما قتل الفتيان الثلاثة. أولئك المتنمّرين، الذين اعتقدوا أن الألم الذي زرعوه فيه سيبقى بلا مقابل.
وقف في منتصف الرصيف، أنفاسه هادئة على نحو مخيف. تذكّر كيف لم يشعر بالخوف، كيف بدا له كل شيء منطقيًا، وكيف امتلأ قلبه بنوع جديد من السلام... السلام الذي لا يولد إلا بعد أن تأخذ العدالة بيدك، حين يخذلك العالم بأسره.

همس لنفسه، والمدينة تواصل ضجيجها كأنها لا تراه:

"ذلك الشعور... يجب ألا يغادرني أبدًا."

ابتسم ابتسامة باهتة، كأنها ليست له، بل لشيء يسكنه منذ تلك الليلة. شيء لا يمكن إصلاحه... ولا يحتاج إلى إصلاح.

ثم توقّف ليام فجأة وهو يحدق في رجل غريب يمشي بهدوء في اتجاهه، عينيه تملؤها ظلال الغضب والكراهية التي استيقظت من أعماق روحه. في لحظة عابرة، تخيّل يده تلتقط سكينًا حادًا أو قبضة قوية تضرب ذلك الرجل حتى يسقط بلا حراك. رسم في ذهنه المشهد بدقة، يسمع صدى صرخاته يختفي في صمت قاتم.

لكن فجأة، عاد وعيه بسرعة وكأن صاعقة هزّت فكره. أدرك بشدة ما كان يدور في رأسه، كأنه يرى نفسه من الخارج، يغوص في دوامة مظلمة لا يريد أن يغرق فيها مجددًا. حاول أن يبعد تلك الأفكار السوداء بعنف، كمن يطرد كابوسًا لا يطاق.

شد أنفاسه بعمق، وأغلق عينيه للحظة، يضغط على جفنيه وكأنه يريد أن يمزق تلك الرؤى ويُطمسها من ذاكرته. "لا، ليس هكذا،" قال بصوت مكتوم وكأنه يتحدث مع شبح داخله. "لن أكون ذلك الرجل الذي يقتل بلا رحمة. يجب أن أكون أكثر من هذا."

ففتح عينيه مرة أخرى، وحاول أن يستعيد هدوءه، لكن قلبه كان لا يزال ينبض بعنف، ينبض بشهوة الانتقام، ولكن بعقل مختلف، عقل يُريد أن يبني طريقه ببطء وثبات، لا بأن يترك لغرائزه الغضب تتملك منه بالكامل.

أخذ خطواته من جديد، محاولًا أن يبعد الظلال التي تحاصره، مع يقين واحد لا يتزعزع: المعركة الحقيقية ليست في الشارع، بل في داخله، حيث تنتظر روحه أن تحرر نفسها من قيود الظلام.

دخلت إليورا شقة سيليست موراي في صباحٍ رماديٍ رطب، لا تزال قطرات المطر تحفر خطوطًا زجاجية على نوافذ "معبد الفوضى المقدّس"، كما تسميه سيليست. كانت الأخيرة تجلس على الأرض أمام طاولة قصيرة مغطاة بأكواب وأوراق مبعثرة، ترتدي قميصًا طويلًا لا يتناسب مع لون جواربها.

رفعت نظرها بابتسامة عندما دخلت إليورا، وقالت ساخرة:
"لقد وصلتِ، أيتها الضحية الأولى لمزحة العصير!"

رفعت إليورا حاجبها وجلست على الكنبة:
"لن أسامحكِ على ما فعلتِ، كنتِ على وشك أن تكتبين اسمي في قسم الحوادث!"

قربت سيليست وجهها من وجه إليورا بابتسامة ساخرة تلمع في عينيها وقالت بنبرة ماكرة: "الرائع أنكِ حضّيتي بلحظة رومانسية."

رفعت إليورا حاجبها بغضب مختلط بالحرج، وصرخت قائلة: "أي رومانسية؟! من المستحيل أن أحب شخصًا ليس فارس أحلامي."

توقفت للحظة، ثم أضافت بنبرة أكثر هدوءًا، تحمل بين كلماتها بعض الحيرة والقلق: "وأيضًا... الليلة عندما عدتُ إلى المنزل، رأيته جالسًا على الأريكة. وقالت أمي إنه سيسكن معنا حتى يجد له منزلًا، لأن أخاه تركه."

ابتسمت سيليست بخبث وهي تقترب أكثر وقالت: "يبدو أن القدر يحب لعب الأدوار المعقدة، أليس كذلك؟ شاب غامض يسكن معك فجأة، وأمك تسمح بذلك بكل بساطة! هل تشعرين بأن قلبك بدأ يخفق أسرع؟"

تنهدت إليورا وهي تحاول أن تخفي توترها، لكن صوتها كان خافتًا: "لا أعلم، كل شيء يحدث بسرعة، وأنا لا أريد أن أفتح باباً لا أعرف ما ينتظرني خلفه."

ضحكت سيليست بصوت خافت وقالت: "أوه يا إليورا، أنتِ تعرفين أنني هنا لأجعلك تستمتعين بالقصة، لا تهربي من الشعور. ربما هو ليس فارس أحلامك، لكنه بالتأكيد ليس شخصًا عاديًا."

نظرت إليورا إلى النافذة وهي تفكر بعمق، المطر الذي كان يهطل لا يزال يتردد في ذهنها، وصوت ذلك اللقاء المفاجئ لا يخرج من رأسها. قالت أخيرًا: "سأنتظر... وأرى ما سيحدث."

تنهدت سيليست وقالت: "حسنًا، لكن لا تنسي، في هذه المدينة، لا شيء يبقى على حاله، وكل شيء قابل لأن يتغير في لحظة واحدة."

مع مجيء الليل، أقبل الظلام بخطوات بطيئة وثقيلة على المدينة التي لم تنم بعد، بل ازداد صخبها وضوضاؤها تعانق أضواء الشوارع المتلألئة والاحتفالات التي لا تهدأ. الهواء مشبع برائحة المطر القديم والدخان، والسماء ملبدة بغيوم سوداء كأنها تحمل أسرارًا لا يريد أحد كشفها.

في تلك الأجواء القاتمة، كانت إليورا تجلس أمام النافذة، تنظر إلى شوارع المدينة المبللة، تغمرها أفكار متشابكة عن الشاب الغامض الذي دخل حياتها فجأة، ليام. قلبها ينبض بقوة لكنها لا تعرف إن كان خوفًا أم فضولًا، أو ربما مزيجًا من الاثنين. تذكرت حديث سيليست الساخر عن "الرومانسية" التي تنمو بينهما، فابتسمت بخجل، ثم تحولت ابتسامتها إلى عزم.

أما ليام، فقد خرج من الغرفة التي استضافته، يتجول في أرجاء المنزل بهدوء، كأن خطواته تمشي على أوتار صمت الليل. وجهه خالٍ من التعب، لكن عينيه تحملان ثقل سنوات مضت، وألمًا دفينًا لا يبوح به لأحد. هو يعلم أن هذه الليلة ليست كباقي الليالي، وأن شيئًا ما يوشك أن يتغير إلى الأبد.

في الخارج، المدينة تتابع تنفسها الثقيل، والأضواء تلمع كنجوم ضعيفة في ظلام دامس. وكل زاوية تخبئ قصة، وكل ظل يحرس سرًا. الليل هنا ليس مجرد غياب للنهار، بل بداية لشيء عميق، مظلم، وملتهب في داخلهما.

.... مع حلول منتصف الليل، غابت أنوار الحياة عن أغلب من في المدينة، وتسلل السكون بثقل إلى كل ركن وزاوية، كأن العالم بأسره يختنق في هدوء مريب. لكن ليام لم يغب عن الوعي، بل ظل مستيقظًا، غارقًا في دوامة أفكاره المظلمة.

كان يجلس وحيدًا في الظلام، يراقب ضوء القمر الخافت الذي يتسلل عبر النافذة، تتراقص ظلاله على وجهه القاسي والمتعب، تلك الملامح التي حُفر عليها الألم والانتقام. في داخله رغبة محرمة تتوقد كجمرة مشتعلة، إدمان قديم لم يستطع تحرير نفسه منه، إحساس لا يُقاوم يدفعه نحو الجرائم، وكأنها الهواء الذي يتنفسه.

تخيل نفسه يخرج إلى الشوارع المهجورة، يقترب من هدفه بخطوات واثقة، يداه ترتجفان بشهوة القتل والهيمنة، لكن في الوقت ذاته كان يقاوم تلك الأفكار، يعلم جيدًا أنها طريق مظلم سيأخذه بعيدًا عن أي فرصة للنجاة.

مع كل لحظة تمر، كانت هذه الرغبة تنمو بداخله كوحش لا يُروى، تلهث في عروقه وتصرخ لتخرج. كان يعرف أن هذا السواد الذي يعتصر قلبه، هو جزء منه، جزء من جرحه القديم الذي لم يندمل، ولهذا كان مدمنًا على هذا الشعور، على هذه الجرائم التي تمنحه لحظات من السيطرة على حياته المبعثرة.

في تلك الليلة، كان ليام يقف على حافة الهاوية، بين رغبة التدمير وبين أمل ضئيل للنجاة، ويمضي وحيدًا في أروقة الظلام، يبحث عن نفسه في قاع الجحيم الذي بناه بنفسه.

ثم قرر ليام أن يرتكب جريمة، ذلك القرار الخطير الذي كان ينبع من أعماق روحه المظلمة، حيث الفوضى والدماء تولدان إحساسًا غريبًا بالتحرر والسلطة.

تحرك بخفة نحو المطبخ، خطواته هادئة وكأنها تمتمة لعهد قديم مع العنف، لا يريد أن يسمعه أحد، لا يريد أن يشكك فيه أحد. فتح درج السكاكين ببطء، يختار بيد مرتجفة سكينًا حادًا، يلمع تحت ضوء القمر كأنه قطعة من الجحيم.

قبضته عليها بقوة، استشعر ثقل الحديد وبرادته التي تعانق راحة يده، وهنا في هذه اللحظة، تحولت النية إلى فعل كامن، كالوحش الذي يتهيأ للانقضاض. كل شيء من حوله خفت، وساد صمت مخيف يكسو الغرفة، وصدى نبضات قلبه يتردد في الأفق.

ليام يقف وحيدًا، متأهبًا ليغوص في عتمة أفعاله، تلك التي يعرف تمامًا أنها ستغير مجرى حياته إلى الأبد.

تسلّل ليام في الزقاق بخطواتٍ صامتة، يتنفس ببطء، لا قلب ينبض في صدره، بل شيء مظلم وعتيق. كان الليل كثيفًا، والشارع فارغًا إلا من تلك الفتاة التي تمشي وحدها، سماعات الأذن تعزلها عن كل خطر.

لم يتسرع، بل راقب خطواتها، طريقة حركتها، كأنّه صيّاد يدرس فريسته. وحين اقترب بما يكفي، استدار حولها من زاويةٍ جانبيّة، ووقف مباشرةً أمامها دون صوت. وما إن رفعت عينيها حتى وجدته واقفًا هناك، يبتسم.

قال بنبرة هادئة مريبة، غريبة عن صوته المعتاد، كأنّها ليست من ليام:

"ليلٌ جميل لتكوني وحدكِ... أليس كذلك؟"

تراجعت الفتاة خطوة للخلف، محاولة نزع سماعاتها، نظرتها تائهة:
"ماذا تريد؟ من أنت؟"

اقترب أكثر، دون أن يرمش، وعيناه تلمعان بجنون مدفون خلف هدوءه:
"أنا؟ فقط ظلٌّ يعبر... ظل يبحث عن صرخة لا يسمعها أحد. لا تخافي، لن يحدث شيء... بسرعة."

ثم أخرج السكين ببطء من جيبه الداخلي، دون أن يرفعها نحوها. لوّح بها قليلاً أمام عينيها، كما لو كان يستعرض قطعة فنية.

"هل تعلمين؟ الألم... له لحن خاص، لحن لا تسمعه الأذن، بل تصرخ به الروح. أريد أن أسمعه منك."

صرخت، ركضت. لكنه أمسك بها، سحبها من شعرها نحو الجدار، ضاغطًا جسدها عليه، بيد واحدة تثبّت رقبتها، والأخرى تلامس وجهها بالسكين دون أن تطعن.

همس في أذنها:
"كلّ دقيقة تعيشينها الآن... ستكونين ممتنة لها بعد دقيقة فقط."

راح يشق طرف قميصها بالسكين، دون أن يمس جسدها، فقط الجلد يلامس البرد، والخوف يتكثف. ثم، فجأة، قطع جزءًا صغيرًا من كتفها، جرح ضحل لكنه مؤلم.

هي تصرخ، تحاول مقاومته، لكنه يتلذذ بتلك الرجفة، بالتوسل، بذلك الرعب المتسع في عينيها.

"أترين؟ لستُ قاتلًا... أنا مجرّد مُذوّق للفناء البطيء."

وكان الدم يسيل، ولم ينهِ الأمر بعد. لم يكن القتل هدفه، بل تلك اللحظة التي تسبق النهاية. اللحظة التي يتجرد فيها الإنسان من كل شيء إلا من الرغبة في النجاة.

اقترب ليام من وجهها أكثر، أنفاسه هادئة، عينيه تتمعنان في عينيها المرتجفتين، كأنّه يحدّق في مرآة الخوف ذاته. قال بصوتٍ مائل للهمس، ببطء محسوب:

"أتعرفين ما الشيء الغريب؟ ليس الألم... بل أنكِ الآن أكثر حياة من أي وقتٍ مضى."

كان جسدها يتلوى من الذعر، تحاول الصراخ لكنه كان قد وضع قطعة قماش على فمها، صوتها مكتوم، لا يصل لأي أذن، تمامًا كما يحب.

أخفض السكين وراح يمررها بخفة على ساعدها، لا ليجرح، بل ليُرعب. ثم فجأة، ضغطة خفيفة، انغرست الشفرة في الجلد، ببطء. نظرت إليه، دموعها تهطل بلا توقف، بينما هو يراقب شحوب وجهها كأنه طفل يكتشف لوحة فنية لأول مرة.

همس مجددًا:

"تصرخين بعينيكِ... هذا أجمل من الصراخ الحقيقي."

سحب السكين ثانية، والدم بدأ يسيل من طرف يدها، ثم وضع إصبعه على الجرح ولمس الدم، تأمله، ثم لطّخ به جدار الزقاق بخطٍ أفقي كما لو يرسم.

توسلت عيناها، وبدأ جسدها يرتجف بشدّة، يكاد ينهار.

اقترب ليام منها أكثر، عينيه تلمعان بجنون دفين، وسكينه البارد يلمع تحت ضوء القمر الخافت. صوته صار أكثر خشونة وقسوة:

"هذه النهاية التي لم تتوقعيها، وهذا الألم الذي تستحقينه."

تمدد ببطء، مسرحًا لهجومه كراقص محترف، رفع السكين وبدأ يجرحها ببطء، كل قطع تشق جلدها كانت تعني قطعة من حياتها تُقتلع. صرخات مكتومة تخرج من خلف فمها المغطى، دمها يسيل ببطء، عينيها ترمشان في رعب وحيرة لا توصف.

توقف للحظة، نظرت إليه بدهشة قاتلة، ثم بدأ يغرز السكين مرارًا وتكرارًا، لا يترك مجالًا للرحمة، يقتل كل نفس فيها كأنه يمزق صفحات كتاب ملطخة بالحقد.

الدماء تسيل من جسدها، والألم يغمرها، ولكن في عيني ليام لم يكن مجرد قتل، بل انتقام من الحياة كلها.

وأخيرًا، بعد أن تفارقت روحها جسدها، سقطت جثة هامدة، غارقة في دمائها، كأنها آخر فصل في فصل مظلم من حياة ليام السوداء.

ثم وضع ليام إصبعه الملطّخ بدماء الضحية على الأرض الباردة، وبدأ يرسم بحركات بطيئة ومتعمدة حروفًا متعرجة كأنها تُنسج من أوجاعه المكبوتة، دماؤها تنزف من أنامل يده على الرصيف القاسي. كل كلمة كانت حكاية غضب مكبوت، كل حرف يحكي عن ظلم ظلّ يطارده منذ سنوات.
كتب بحبر الجرح والألم:
"أنا الصمت الذي لا يُسمع، أنا الظل الذي يخيف كل من يجرؤ على الاقتراب. لن تمسكوا بي، فأنا أعلم دروبكم ومخادعكم."

كانت الكلمات تسيل على الأرض كما تسيل الدماء، تحكي قصة انتقام مستعر، وحقد متجذر في أعماق النفس، رسالة مبطنة للشرطة التي تفتقد القدرة على الإمساك به، رغم محاولاتها اليائسة، رسالة تُذكي نيران الخوف والارتباك في قلوبهم.

وقف ليام بثبات، وعيناه تخترقان الظلام، يحملان في أعماقه حرارة نارٍ لا تنطفئ، يرى في تلك اللحظة نفسه ليس مجرمًا فقط، بل حاكمًا في مملكة الفوضى التي صنعها بصمته.
رفع رأسه نحو السماء المغبرة، حيث رذاذ المطر يبدأ بالتساقط، يغسل الدم عن الأرض ويخفي أثر الجريمة، لكن أثر كلماته بقي محفورًا في ذاكرة ذلك الزقاق كوشم لا يمحى.

ثم بدأ يتراجع ببطء، خطواته الثقيلة تتلاشى في صمت الليل، تاركًا خلفه جثتها وحيدة، وكتابة تحمل تحديًا مكشوفًا لكل من يحاول التسلل إلى عالمه المظلم.

الليل كان شاهداً، والمدينة تنتظر هزّتها القادمة، إذ إن هذه اللحظة لم تكن نهاية، بل بداية قصة مظلمة، ستعيد ترتيب أوراق كل من تسول له نفسه أن يظلم أو يُسكت.

كانت يدا ليام قد امتلأت بالدماء، دموية وباردة كأنها قطعة من الليل نفسه، لكن قلبه بقي جامدًا كالصخر، لا ينبض بالندم ولا بالخوف. رغم رطوبة الدم التي تسللت بين أصابعه، لم يتردد، ولم ينظر خلفه. ترك الجثة هناك، وحطّ كفه على جدار الزقاق، وكأنّه يودع صديقا قديمًا، ثم أدار ظهره ببطء وثقة، وتوجه نحو طريق العودة إلى المنزل.

خطواته كانت ثقيلة، ولكنها متزنة، لا تلهث، ولا تسرع، كأنّه يسير في ممر مظلم يحكمه صمت قاتل، وحكاية غامضة لا تنتهي. كان يعلم جيدًا أن الجريمة لم تكن مجرد فعل عابر، بل بداية لسلسلة من الفوضى التي سيزرعها في قلب المدينة، بداية لإشعال نار الانتقام التي لا تعرف الرحمة.

في ذهنه، لم تكن دماء الضحية سوى حبرٍ يكتب به الفصل الجديد من حياته، فصلًا مليئًا بالغموض والرعب والانتقام، فصلًا لن يسمح لأحد أن ينساه أو يتجاهله.

وصل ليام إلى عتبة المنزل، وقبل أن يدخل، توقف للحظة، تنفس الهواء البارد بعمق، كأنه يستعد لمواجهة ما هو قادم، ثم دخل ببطء، تاركًا خلفه صدى خطواته في هدوء الليل.

دخل ليام إلى المنزل متسللًا كما دخل ليل المدينة. يداه ما تزالان تحملان آثار الجريمة —— دماء لم تجف بعد رغم الغسل المتكرر، ورائحة الحديد تلاصق جلده كوشمٍ لا يُمحى.

كل شيء ساكن. صوفيا نائمة. إليورا نائمة. كان يعلم أنه لا مجال لأي خطأ الآن. توجه نحو الحمّام بخطوات خفيفة، أقفل الباب، وفتح صنبور الماء بأقل صوت ممكن. بدأ يفرك يديه بقوة، أظافره تحفر في الجلد، والصابون يختلط بالدم، ويغسل أثر ليلةٍ كان فيها الوحش بلا قيد.

ثم... دوى صرير خفيف في أرجاء المنزل.

باب يُفتح.

تجمّد مكانه. لم يكن هناك من يُفترض أن يدخل. إليورا أخبرته أن لا أحد غيرها وأمها يسكن المنزل. دقات قلبه تسارعت، أعصابه كلها ارتفعت لدرجة القتل مجددًا.

أطفأ النور، وخرج بهدوء مميت من الحمام. من مكانه في العتمة، رأى ظلاً بشريًا طويلًا يخطو في الممر المؤدي للصالة. الظلال تمتد وتنسحب مع كل حركة. ليام لم يتردد، هرع نحوه بخفة قاتل، قبض على جسده بقوة من الخلف، وضع يده على فمه، وصوته خرج همسًا حادًا:

"من أنت؟!"

انكمش الجسد تحت قبضته، وأطلق صرخة مختنقة تكسّرت من الفزع:

"حرامي!! حرامي في البيت!!"

تراجع ليام بسرعة، واصطدم بالظلام الذي خلفه، يُحدق في هذا الشخص الذي ارتجف أمامه كأنه رآى شبحًا.

الصبي كان يرتدي حقيبة صغيرة على كتفه، بملامح فتى في الخامسة عشرة، عينيه مليئتين بالذعر.

ليام تمتم، مغمغمًا:
"من...؟"

لكن قبل أن يسأل أكثر، ظهرت صوفيا من أعلى الدرج وهي تهتف بفزع:

"دانيال؟! ما الأمر؟!"

ليام التفت نحوها مصدومًا... أما الفتى، فركض نحو والدته وهو يصرخ:

"هذا المجهول كان في البيت! حاول يخنقني! من هذا؟! من هذا يا أمي؟!!"

صوفيا، التي ما زالت في ثياب النوم، ركضت نحو دانيال واحتضنته بعنف، قلبها يكاد ينفجر من الهلع. عيناها انتقلت مباشرة إلى ليام، ثم عادت إلى ابنها، تبحث عن تفسير وسط هذا المشهد المجنون.

ليام وقف في منتصف الرواق، يتنفس بصعوبة، يداه ما تزالان مبللتين، ورذاذ الماء يقطر من أطراف أصابعه. لم يكن يعرف من هذا الفتى. لم يكن موجودًا عندما سكن مع إليورا وصوفيا. لم يُذكر اسمه. لم يُرَ له أثر.

لكن صوفيا لم تتردد، نظرت إلى ليام بذهول وهمست:

"أوه... لا. ليام... هذا دانيال، أخو إليورا."

ثم التفتت لابنها الذي ما زال يحدّق فيه بخوف:

"داني، هذا... هذا هو ضيفنا. لم أقُل لك عنه لأنه أتى فجأة."

لكن دانيال لم يكن طفلًا ساذجًا. نظر إلى ليام بعينين مليئتين بالشك والكره، وهو يصرّ على السؤال:

"لماذا أمسكني؟ لماذا كان يتسلل؟ ولماذا كانت يداه... مبللتين؟"

في تلك اللحظة، انتبهت صوفيا إلى التفاصيل التي لم تكن واضحة تحت الضوء الخافت: البلل في أطراف يديه، أثر أحمر داكن بالكاد يختبئ بين الخطوط الدقيقة لبشرة يده... ورائحة خافتة... كأنها دم.

ليام شعر بالهواء يضيق حوله، لكنه تمالك نفسه وقال ببرود:

"ظننتك لصًا. لا أحد أخبرني بوجودك. دخلت في الظلام، دون صوت... ماذا كنت ستظن لو كنت مكاني؟"

سكتت صوفيا للحظة، ثم قالت وهي تحاول تهدئة الجو:

"كفى... كان مجرد سوء تفاهم."

لكن دانيال لم يقتنع. بقي يحدق في ليام، كأنّه يعرف أن وراء هذا الوجه هدوءًا مشبوهًا، وعيناه تتأملان كل حركة كمن يصطاد كذبة.

تراجع ليام بهدوء نحو غرفته، وقبل أن يدخل، رمق دانيال بنظرة باردة، لمحة غامضة في عينيه، أشبه بوعد لا يُفهم.

أما دانيال، فقد قال بصوت خافت، لكنه مسموع:

"هذا الرجل... ليس عاديًا، أمي. انتبهي له."

دخل ليام إلى غرفته وأغلق الباب خلفه بصوتٍ مكتوم، ثم أسند ظهره إليه، أنفاسه ثقيلة، وصدره يعلو ويهبط كأنه يقاوم عاصفة في داخله. الظلام كان ساكنًا، لكنه في ذهنه كان يعجّ بأصوات، بأحكام، بتهديد جديد لم يكن في الحسبان.

شدّ على قبضته حتى انغرزت أظافره في راحة يده، ثم زمجر بصوت خافت:

"اللعنة عليك... أيها الصغير المتطفّل."

تحرك إلى زاوية الغرفة، ونزع قميصه الذي كان لا يزال رطبًا، رماه أرضًا بحدّة، وجلس على السرير وهو يحدّق بالجدار كأنّه يرى وجه دانيال محفورًا عليه.

ثم، بصوتٍ متكسر من الغضب المكبوت، قال:

"لو عرف شيئًا... لو شمّ حتى طرف الحقيقة... سأمزقه قبل أن يفتح فمه."

ابتسم ابتسامة باردة، مشوهة، هامسة بوعد مميت:

"لن أسمح لفتى مراهق أن ينسف ما بنيتُه بكل هذا الدم."

ثم تمدد على السرير، وهو ما يزال متوترًا، جسده متشنج، عيناه مفتوحتان في العتمة، كأنّه لا يستطيع النوم... لا لأنّه نادم، بل لأنه يخطط لما هو قادم.

الصباح التالي...

استيقظت إليورا على صوت صاخب يأتي من الطابق السفلي، صوتٌ مألوف، فيه من الحماقة ما يكفي لإفساد أي صباح هادئ.

فتحت عينيها بتثاقل، ضوء الشمس يتسلل عبر الستائر ببطء، يرسم خطوطًا ذهبية على الحائط المقابل. تنهدت، جلست على السرير، ثم قالت لنفسها وهي تفرك عينيها:

"عاد... وكان من الأفضل لو لم يفعل."

خرجت من غرفتها بخطى ثقيلة، شعرها ما زال فوضويًا، وملامح النعاس لم تغادر وجهها بعد. كل خطوة تقرّبها أكثر من مصدر الفوضى.

في المطبخ، كان دانيال يقف كعادته، مرتديًا بيجاما مزينة برموزٍ طفولية، يلوّح بذراعيه وكأنه يلقي خطابًا ملكيًا:

"أمي! أريد فطور الأبطال اليوم! لقد عدتُ من الرحلة منتصرًا، ويجب أن أُكرَّم كما يليق بالمقاتلين!"

كانت والدته، صوفيا، تقف عند الموقد تقلب البيض بهدوء، وفي نبرة أمٍ مرهقة لكنها صبورة، ردّت عليه بابتسامة خفيفة:

"البطل الحقيقي يغسل الصحون أولاً، وبعدها نحضر لك طعام الملوك."

ضحكت إليورا من أعلى الدرج، ثم نزلت وقالت بتهكم ناعس:

"صخبك يسبقك كالعادة، دانيال... ألم تترك شيئًا من الضجيج هناك في الرحلة؟"

استدار دانيال بفرح، وفتح ذراعيه:

"إليورا! اشتقت إليكِ! لدي مئة قصة لأرويها، بدأتُ يومي بسقوطي في بركة ماء، وانتهى بانفجار كيس النوم!"

اقترب منها ليعانقها، لكنها رفعت يدها لتوقفه:

"بعد الحمّام، أيها البطل المبلل. رائحتك كحقيبة نُسيت في الشمس."

قهقه وضحك، ثم ركض نحو الحمام، يصفّر كعادته.

خرج ليام من غرفته بصمتٍ ثقيل كأنّ خطواته تحمل صدى ليلٍ لم يُنسَ. لم يكن في مزاج يسمح له بتحمّل أصوات الضحك، ولا وجود ذلك "الطفل المزعج" الذي ظهر فجأة كشوكةٍ في حلق خططه.

وقف عند أعلى الدرج، عاري الصدر، شعره مبعثر، ووجهه كأنه خرج للتو من كابوسٍ لم يُروَ. عيناه تتجولان ببطء في الطابق السفلي حيث تقف إليورا تراقب فوضى دانيال المعتادة، وصوفيا تبتسم كأن كل شيء على ما يرام.

لكن داخله... كان شيء آخر.

نزل أولى درجات السلّم ببطء، وعيناه تلتقيان بعيني إليورا. شعرت بتلك النظرة — النظرة الباردة، الصامتة، التي لا تحوي شيئًا مفهومًا، ولا تخلو من شيءٍ مخيف.

ثم التفت نحو المطبخ، حيث دانيال عاد للتو من الحمام، شعره مبتل، يعبث بالمناشف ويصرخ:

"أمي! لم أجد المنشفة الكبيرة! أليست هنا؟!"

ليام توقف عند نهاية السلم، ذراعاه متشابكتان، وجهه متيبّس، تمتم بصوتٍ بالكاد يُسمع:

"لو علمت من أنا... لن تصرخ مجددًا في أي منزل."

ثم تابع سيره دون أن ينظر لأحد، ودخل إلى المطبخ، التقط كوبًا من الخزانة، وملأه ماءً، كل حركة يقوم بها محسوبة، ساكنة، لكنها توحي بشيء ثقيل يتكسر خلف ملامحه.

صوفيا نظرت نحوه، محاولة كسر الصمت:

"نمتَ جيدًا؟"

رد دون أن يلتفت:

"كما ينام من يحلم بما لا يُحكى."

ثم ارتشف الماء دفعة واحدة، وضع الكوب، وغادر دون أن ينبس بكلمة.

إليورا بقيت تراقب خطواته حتى اختفى في الرواق، شعرت بقشعريرة خفيفة على جلدها.

أما دانيال، فصرخ مجددًا:

"ما به هذا الرجل؟ هل هو صديقك الغامض؟ لا يبدو ودودًا على الإطلاق!"

إليورا لم تجب، بل بقيت تحدّق في حيث مضى ليام، وأفكار كثيرة بدأت تدقّ باب قلبها...

في صباحٍ رماديّ مائل للبرودة، خيّم الصمت على زقاق ضيّق في الجانب الشرقي من "ريفنشيد"، سوى همسات المطر المتساقط على الإسفلت. شريط الشرطة الأصفر كان ممتدًا بإحكام، محاطًا بعدد من رجال الأمن الذين أبقوا أعينهم على الجسد الممدد على الأرض.

خطوات حذاء ثقيل قطعت السكون، قبل أن يظهر ريتشارد كرين، المحقق المعروف ببروده وحدة ملامحه. توقّف لحظة عند مدخل الزقاق، نظر إلى الجثة أمامه، إلى الدماء المتيبسة، ثم إلى العبارة المكتوبة على الأرض بخطٍ مرتعش باستخدام دم الضحية:

"أول صمتٍ في العاصفة... ولن يكون الأخير."

اقترب ببطء، انخفض على ركبتيه، وعيناه تتحركان فوق كل تفصيل دون أن يظهر عليه أي انفعال. قال بصوت منخفض، حازم:

"ليست جريمة عشوائية... القاتل يكتب، يُرسل رسالة، هذا توقيع."

أجابه الضابط مايكل ستون، وهو يحمل دفتر ملاحظات:

"البلاغ جاء من عامل تنظيفات... قال إنه لاحظ الدم على الأرض بجوار الحديقة، لما اقترب وجد الجثة. الطعن عميق، في الرقبة، بلا أي مؤشرات على مقاومة."

ريتشارد لم يرد، فقط وضع قفازاته السوداء، واقترب أكثر من الحائط، لمس طرف الكتابة بحذر. تمتم:

"الدم لا يزال طريًا هنا... كتب بعد موتها مباشرة. كان مستمتعًا، لديه وقت."

استدار نحو مايكل وقال:

"أريد تحليل الحمض النووي من أي أثر وجدناه حولها، وأرسلوا الجملة للخبراء في علم النفس الجنائي. هذا ليس قاتلًا غاضبًا... هذا قاتل فنان."

ثم وقف، وسار ببطء بعيدًا عن الجثة، يخرج دفتره الجلدي الصغير، ويدوّن فيه عبارة واحدة:

"القاتل يتكلّم بصمته."

أعاد القلم إلى جيبه، ثم قال:

"ابدأوا بجمع تسجيلات الكاميرات من كل شارع يطل على هذا الزقاق. أريد أسماء كل الخارجين من الإصلاحيات أو المصحات النفسية خلال السنة الماضية. وهذا..."

وأشار إلى العبارة على الحائط:

"هذا ليس تحذيرًا... هذا وعد."
تحرّك ريتشارد كرين نحو سيارته، رفع الهاتف النقال واتصل برئيس قسم الجرائم العنيفة:

"نحتاج فريق تحقيق موسّع. أريد ملف كل جريمة قتل مشابهة خلال الخمس سنوات الأخيرة. لا تستهن بالأمر... هذا ليس مبتدئًا."

في قسم الشرطة، بعد ساعة فقط، اجتمع ريتشارد مع فريقه في غرفة الاجتماعات، الضوء باهت واللوحة البيضاء خلفه تتوسّطها صورة الضحية، وأسفلها عبارة القاتل المكتوبة بالدم.

أشار ريتشارد إلى الصورة وقال:

"الضحية: فتاة عشرينية، هويتها قيد التحقق، لا أوراق ثبوتية في مكان الجريمة، لا محفظة. القاتل تركها مستلقية بترتيب واضح، يداها إلى الجانبين، الرأس مائل بزاوية معينة. هذا ليس فوضويًا... بل مسرحي."

رفع صورة لعبارة الدم، ثم قال:

"الجملة هذه؟ (أول صمتٍ في العاصفة)... تحليل أولي يشير إلى أنه يتحدث عن نفسه. القاتل يرى نفسه بداية شيء أكبر. سلسلة جرائم؟ انتقام؟ استعراض؟"

تدخّل أحد المحققين، شاب يُدعى "أليكس":

"لكن لا بصمات، لا شهود، لا كاميرات حتى. الزقاق كان في منطقة ميتة إلكترونيًا، ولا يوجد أيّ أثر دخول أو خروج واضح."

هز ريتشارد رأسه ببطء، ثم قال بجمود:

"هذا ما يجعلني أكثر اهتمامًا. قاتل بهذه الدقة يعرف كيف يمحو أثره. إذًا، لا نبحث عن هاوٍ... بل عن رجل عاش في الظلال، أو دُرّب عليها."

ثم وضع صورة أخرى على الطاولة: لقطة قريبة لوجه الضحية. الخوف المطبوع في ملامحها كان كافيًا ليروي جزءًا من القصة.

قال بهدوء:

"الخوف في عينيها... سبق الموت. هذا يعني أنه كان يتلذذ بتعذيبها نفسيًا قبل أن يقتلها. لا تعاطف. لا تردد. فقط تصميم."

رفع نظره إلى الفريق وأضاف:

"ابدأوا من هذا: من لديه عقل فنان، ويد قاتل، ويكتب الشعر بالدم؟ ابحثوا في السجلات، في الأطباء النفسيين، حتى رسامي الشوارع المهووسين. هذا القاتل... ترك توقيعه، ولن يكون الأخير."

ثم صمت للحظة، ناظرًا للجملة الملطخة بالدم مجددًا، قبل أن يقول:

"نحن لا نطارد قاتلًا فقط... نحن نلاحق رسالة."

في صباحٍ غائم مائلٍ للرماد، كانت شاشة التلفاز الصغيرة في زاوية غرفة الجلوس تبثّ نشرة الأخبار المحلية. كان الصوت منخفضًا، لكن نبرة المذيعة، المشحونة بالتوتر، تسلّلت إلى الأرجاء كهمسٍ من بعيد.

جلس ليام على الأريكة، يُمسك بكوب القهوة، وعيناه شاخصتان نحو الشاشة دون رمشة، كأنّه يتأمّل مشهدًا يعرف تفاصيله مسبقًا.

"في حادثةٍ صادمة هزّت أرجاء مدينة ريفنشيد فجر هذا اليوم، عُثِر على جثة فتاة مجهولة الهوية في أحد الأزقة المهجورة وسط المدينة. لم تُفصح الشرطة عن كثير من التفاصيل، غير أن مصادر مقرّبة أفادت بأن رسالة كُتبت بدم الضحية بجوار الجثة، ما يرجّح أن القاتل تعمّد ترك بصمته. التحقيقات بدأت رسميًا بقيادة المحقق ريتشارد كرين، المعروف بخبرته في تعقّب الجرائم المعقدة وسجله في ملاحقة القتلة المتسلسلين."

كان الصوت يضعف تدريجيًا مع دخول إليورا إلى الغرفة، شعرها ما يزال مبتلًا، تمسك بمنشفة صغيرة على عنقها، وتتنهد بكسل:

"أتشاهد الأخبار؟ في هذا الوقت المبكر؟"

لم يلتفت نحوها، بل ارتشف من قهوته وقال بنبرة هادئة:

"الناس يعشقون المآسي الحقيقية أكثر من الخيال."

ضحكت بخفة، ثم مشت نحو المطبخ.

أما هو، فبقي يحدّق في الشاشة بثبات، حيث ظهرت لقطة مقرّبة على الجدار الملطّخ بالدم، وقد كُتبت عليه عبارة دامية:

"أولُ صمتٍ في العاصفة."

انفرجت شفتاه بابتسامة بالكاد تُلحظ... لم تكن ابتسامة شماتة، بل أشبه برضى خفيّ. وكأنّ هذا الإعلان العلني عن جريمته كان لحظة انتصار لا يتقاسمها مع أحد.

قطعت صوت التلفاز همسة من إليورا من المطبخ:

"أتريد كوبًا من الشاي بدل القهوة؟"

أجاب دون أن يزيح نظره عن الشاشة:

"لا... القهوة تليق بهذا النوع من الصباحات."

في غرفة هادئة تتسلل إليها خيوط الضوء الخافت من نافذة صغيرة، داخل منزل صغير يعبق بعبق الزمن، حيث الأثاث البني العتيق يحكي قصصًا ماضية، جلس رجل متربعًا على أريكة جلدية قديمة، صدرة عاري كاشفًا عن عضلات مشدودة، ترتسم على جسده خطوط القوة والعنف المكتوم، يرتدي بنطالًا أسود أنيقًا بعناية واضحة، وشعره المبعثر بأسلوب غير مبالٍ يكشف عن جاذبية طبيعية تفيض صمتًا عن هيبته وسلطته.

بين أصابعه كان السيجار يشتعل ببطء، يدخنه بتؤدة تامة، كل نفسٍ منه يشبه تهدئة عاصفة داخل صدره، بينما عينيه الثاقبتان تتشبثان بشاشة التلفاز التي تبث نبأً عن جريمة حديثة، جريمة تزلزل المدينة وتغذي ظلال الماضي الذي يطارده.

كان ذلك الرجل هو كايل، الأخ الأوسط في عائلة ڤوس، الذي لطالما حمل عبء العائلة بصمت، لكن هذه اللحظة تملأ قلبه بمرارة ما بين الغضب والندم، شعورٌ مبهم يتردد بين ذاكرته وأحداث الحاضر.

نظراته الحادة توقفت عند صور الضحية على الشاشة، جسد ملقى في الظلام، وعلامات الدم التي تزين المكان كوشمٍ غامض، كل تفصيلة تذكره ببيت عائلته الممزق، وبليام الذي لم يعد كما كان، بظل ذلك الرجل الذي يقتل ببطء وبدم بارد.

تنهد بعمق، مرر يده عبر شعره المبعثر، ثم رفع عينيه إلى السقف وكأنما يطلب من السماء إجابة على الأسئلة التي تثقل روحه.

كانت لحظة سكون عميق قبل أن ينطلق صمت الغرفة، يحاول أن يجمع شتات فوضى قلبه، محاولًا فهم ما إذا كانت هذه الجريمة بداية نهاية أم بداية لعاصفة جديدة لن تنتهي بسهولة.

التقط كايل الشارة المعدنية الموضوعة على الطاولة، انعكس ضوء التلفاز عليها فظهرت بوضوح: كانت شارة الشرطة، محفورٌ عليها اسمه ورتبته الحديثة. تأملها لحظات، ثم قلبها بين أصابعه وكأنها تحمل ثقلًا لا يُرى، ثقل قسمٍ قُطع يومًا ولم يعد متأكدًا إن كان لا يزال يؤمن به.

سحب نفسًا عميقًا من سيجارته، ثم أطلق الدخان ببطء نحو السقف. عينيه تابعتا نشرة الأخبار التي لا تزال تتحدث عن "جريمة الزقاق" — الجريمة التي هزّت المدينة فجر هذا اليوم.

"ضحية جديدة... والقاتل ما زال طليقًا." قال المذيع بصوتٍ جاف، وعُرضت صور الزقاق المُلطخ بالدماء، مع لقطات متفرقة للشرطة وهي تطوّق المكان.

كايل لم يحرّك ساكنًا. عيناه ثبتتا على الشاشة، لكن ذهنه غاص بعيدًا.

ثم همس:

"ليام... هل عدت أخيرًا؟"

وضع الشارة على الطاولة مجددًا، أطفأ السيجارة في المنفضة، ونهض عن الأريكة، ممدّدًا عضلاته بصمت، وكأنه يُعدّ نفسه لمطاردة طويلة بدأت لتوّها.

في عُمق الليل، حين تنام المدينة تحت عباءة الضباب، وتُطفأ آخر الأنوار في النوافذ المنهكة، كان ليام يسير.

لم يكن مجرّد مشي، بل عبور صامت كظلّ جريمة قادمة. معطفه الأسود يتماوج خلفه مع الرياح، ووجهه غارق في الظلمة، لا ترى منه سوى ومضات عينيه حين تعكسها أضواء الشوارع الخافتة.

كانت الساعة تشير إلى الثانية والنصف صباحًا.

خطواته لم تكن عشوائية. كان يعرف الطريق جيدًا، بل يحفظه أكثر من ملامح وجهه. زقاقٌ مهجور، خلف شارع سكني راقٍ، لا كاميرات، لا شهود، ولا رحمة.

يده اليمنى كانت داخل المعطف، تُمسك بشيءٍ معدني بارد: السكين ذاتها.

لم يكن يفكر كثيرًا. قلبه كان هادئًا كأن لا جريمة ستُرتكب بعد دقائق، لكن في داخله، عاصفة من الصور والأصوات والدماء. كان يعرف أن هذه الضحية لن تنجو.

أوقفه ضوء خافت عند شرفة منزل منخفض، نافذة مفتوحة قليلاً، ستارة تتحرك.

اقترب.

نَفَسه لم يرتجف، أنفاسه محسوبة بدقة قاتل محترف.

همس لنفسه:

"هذه الليلة... لا صوت سيعلو على صوت الصمت."

ثم اختفى داخل العتمة، متجهًا نحو تلك النافذة، نحو جسد بريء ينتظر دون أن يعلم أن آخر أحلامه ستبدأ الآن... وتنتهي إلى الأبد.

كان نواه جالسًا على المقعد الخشبي البارد خارج مقر التحقيق، تحت ظل شجرة تتقشر أوراقها. عيناه مركزتان على شاشة هاتفه، بينما تمرر أصابعه المحتقنة بالملل إشعارات لا تنتهي.

ثم... نقرة واحدة على رابط، دخول إلى قناة خاصة لا يصلها إلا من يعرف طريق العتمة الرقمية.

الفيديو بدأ.
صوت خافت، تصوير مهتز، ثم تظهر الجثة.

الفتى المراهق، رأسه مفصول. تفاصيل الجريمة لم تُطمس. الدماء، العينان المفتوحتان، الفم المتجمد على صرخة لم تكتمل. كل شيء كان واضحًا، صادمًا، مروعًا.

نواه تجمّد في مكانه.

ابتلَع ريقه بصعوبة، أصابعه تخشبت، وشعر بأن معدته التوت على نفسها. الغثيان صعد من عمقه، كأن شيئًا داخل أمعائه يحاول الهرب من بشاعة ما رأى.

دون أن يُنطق بكلمة، نهض بسرعة واندفع نحو أقرب حمّام داخل المبنى.

فتح الباب بعنف، انحنى فوق المغسلة، والتقيوء انفجر منه كأنه لم يكن مجرد رد فعل جسدي، بل تطهير داخلي لما شاهده.

تمسك بحواف الحوض، يتنفس بصعوبة، قطرات عرق تتجمّع على جبينه، وعيناه تتسعان بدهشة وخوف.

همس بينه وبين نفسه، صوته مبحوح:

"...هذا ليس عاديًا... هذا ليس إنسان."

بينما كان نواه لا يزال منحنياً فوق الحوض، يتنفس بصعوبة، ووجهه شاحب كأنه فقد دفء حياته، سُمع صوت خطوات هادئة وواثقة تقترب من باب الحمام المفتوح جزئيًا.

صوت رجولي ناعم، فيه بحة مميزة، قال ساخرًا:

"لم اظنك من النوع الذي يتقيأ لمجرد رؤية الدم، يا ڤوس."

في تلك اللحظة، رفع نواه رأسه عن الحوض، والتقى بعيني جوليان، ابتسامته المعتادة التي لم تخبُ رغم الموقف المتوتر. كان يعرفه جيدًا، صديقه المفضل الذي بقي إلى جانبه رغم كل الصراعات والخلافات التي عصفت بهم خلال السنوات الماضية. صداقة وُلدت في ظلال المدينة القاتمة، حيث لا مكان للضعف ولا للرحمة.

قال نواه بصوت متردد، لكنه يحمل شيئًا من الارتياح والتعب:

"جوليان... ما الذي جاء بك إلى هنا؟"

اقترب جوليان بخطى هادئة، ونظر إلى نواه بعينين ملؤهما الإصرار والقلق معًا. قال بلهجة حازمة:

"سمعت بما حدث، لم أستطع الجلوس مكانًا وأنا أسمع عن مقتل هذا الفتى بهذه الطريقة الوحشية. الأمور تزداد سوءًا، والمدينة تغرق في دوامة من العنف. لا يمكننا الوقوف مكتوفي الأيدي، علينا أن نفعل شيئًا."

تنهّد نواه بعمق، محاولًا استجماع قواه من بعد مشهد الجثة البشع. شعر بثقل الألم يتسلل إلى صدره، لكنه وجد في كلام جوليان قوة تدفعه للحركة. قال بهدوء لكنه مصمم:

"أعرف، يا جوليان. لكن هذه ليست مجرد قضية قتل، إنها رسالة... رسالة من شخص يريد أن يعيد ترتيب الفوضى بطريقته الخاصة، بشراسة لا ترحم."

تبادل الاثنان نظرات طويلة، مفعمة بالقلق والغموض. ثم قال نواه:

"يجب أن نكون حذرين، هذا ليس مجرد قاتل عادي. هذا شخص يعرف كيف يلعب بأعصاب الناس، كيف يجعلهم يشعرون بالعجز والخوف."

رد جوليان وهو ينظر إلى الأفق:

"صحيح. وأنا لا أثق في الشرطة كثيرًا. هناك أشياء خفية وراء هذا كله، أشياء لا يريدوننا أن نعرفها."

وقف الاثنان معًا للحظة، ووقع الصمت بينهما كأنه ثقيل، لكنه كان مشحونًا بشعور راسخ أن ما سيأتي لن يكون سهلاً، وأنهما أمام اختبار حقيقي لا يرحم. مدينة ريفنشيد تنزف، والعدو لا يزال طليقًا، يحمل في يده سكين الانتقام البارد.

مرت الأيام كخُطى قاتلٍ باردٍ في ظلامٍ دامس، وليام كان يمضي في طريقه، يزرع الرعب في قلوب الناس بلا رحمة، لا يعرف للندم طريقًا ولا للشفقة مكانًا. كل جريمة يرتكبها كانت كصفعة قاسية تترك أثرها في وجدان المدينة بأكملها. الشعب لم يعد ينام هانئًا، فقد تحول كل ركن من أركان ريفنشيد إلى ساحة انتظار للموت، حيث لا أمان إلا لمن يخفي نفسه جيدًا.

ليام كان يختار ضحاياه بعناية، أولئك الذين ظنوا أنفسهم بعيدين عن خطره، أو من حاولوا التمادي في التحدي والتمرد عليه. من يظن أن المجرم لا يستطيع الوصول إليه، كان يجد نهايته قاسية بلا رحمة، وكأن الموت ينتظر خلف كل باب وكل زقاق مظلم.

الرعب امتدّ ليصل إلى قلوب الشرطة نفسها، فكل محاولة للقبض عليه كانت تتبدد في مهب الريح، وكأن ليام يتحرك كظلٍ لا يُرى، ولا يُلمس. أصبح ذكره همسًا مرعبًا في المدينة، والصمت الذي يرافق ذكره يلف كل من يسمع به، لأنه ببساطة، لم يكن مجرد مجرم... بل كان الكابوس الذي لم يستيقظ منه أحد.

بينما كان ليام في المنزل، يغسل وجهه ببطء تحت ضوء مصباح الحمام الخافت عند الساعة الثامنة مساءً، التقط أنفاسه المتقطعة بعد يوم حافل بالدماء والرعب. نظر إلى وجهه في المرآة، تلك الملامح التي شهدت أكثر مما يحتمله بشر، ابتسم ابتسامة خبيثة، قاسية كالسكين، تنم عن شخص لم يعد ذلك الفتى المراهق الذي انكشفت أسراره بيومين.

كان الآن سيد اللعبة، متحكمًا بكل الخيوط، يتلاعب بالشرطة والمحققين، يلفّ البشر جميعهم في شبكة من الأكاذيب والدماء. شعوره بالقوة والسيطرة ملأ صدره، جعلته يذوق طعم الانتصار المرير، وكأنه ملك الظلام الذي لا يُقهر.

خرج من الحمام بخطوات هادئة، وأغلق الباب خلفه دون أن ينبس بكلمة. كانت أنفاس الليل تهب ببرودة، فخرج من المنزل يتنفس هواء المساء الثقيل. رفع نظره ببطء، فكانت الصدمة تنتظره... كايل واقف أمامه، عيناه تلمعان بحذر ونفَس متوتر.

وقف الاثنان صامتين، تتشابك أعينهما في مواجهة صامتة، حيث كل شيء محكوم بصمت قاتل، وكأن الليل نفسه ينتظر ما ستؤول إليه هذه المواجهة.

كسر ليام الصمت بحدة تغلفها مرارة سنوات من الغدر والخذلان، صوته كان كالرعد في ليل صامت، يملؤه غضب مكبوت وألم عميق يتسلل من أعماق روحه المجروحة:

"ماذا تفعل هنا؟ هل أخيرًا شعرت بالندم؟ هل جاءك وعي متأخر بأنك لم تكن سوى ظلي في غيابي؟ ظلي الذي صار بلا قيمة حين قررت أن تشتري منزلاً جديدًا، وتتركني أتخبط وحيدًا في ظلمات السجن؟ تركتني أُستغل، تُركتُ وحيدًا أذوب في برودة القضبان، بينما أنت تتفنن في بناء حياتك الجديدة، كأنني لم أكن سوى غبار في ماضيك!"

تقدم ليام خطوة نحو كايل، عيناه مشتعلة بنار الانتقام والخيبة، ووجهه المحمّر بالغضب يتلوّن بدموع مختلطة بين الحقد والأسى. صوته يخرج متقطعًا، لكنه مليء بثقل الذكرى المريرة:

"هل نسيتني؟ هل ظننت أنني سأبقى صامتًا إلى الأبد؟ أنا الذي تكسرته الأيام، أنا الذي تمردت عليه نفسي، وأنا الذي صنع من الألم سلاحًا لا يرحم. أنت يا أخي، لم تكن إلا خائنًا بحجم السماء التي خانتني تحتها."

وقف ليام مستكينًا للحظة، يلتقط أنفاسه الثقيلة، ثم أكمل بنبرة تزداد حدة:

"لكن اعلم هذا، مهما ابتعدت ومهما حاولت أن تمحو اسمي من حياتك، سأظل طيفًا يسكن ظلك، لن أغفر، لن أنسى، وسأجعل من كوابيسك واقعًا لا مفر منه."

تنفّس كايل ببطء، حاول أن يخفف من توتر الجوّ المشتعل بينهما، ثم رفع رأسه نظرة ثاقبة ملؤها مزيج من الندم والقسوة، وقال بصوت هادئ لكنه يحمل في طياته ثقل سنوات من الصمت:

"لم أشتري منزلًا وأنا أنسى من كنت... لم أهرب منك، ولا تركتك تموت في ظلك. لكن الحياة، يا ليام، أجبرتني على أن أختار بين نفسي وبينك. كنتَ تعرف أن وجودك معي في نفس المكان كان سيُدمّر كل شيء. لم أكن خائنًا، بل كنت أُحاول النجاة، وهذا العالم القاسي لا يعطينا رفاهية الخيارات المثالية."

أدار كايل ظهره قليلًا، كأنه يراجع ألم الماضي، ثم تابع بصوت أكثر حزمًا:

"أعرف أنك تحمل غضبًا لا يمكنني إنكاره، وربما كنت أنت الغضب ذاته الذي حطمني. لكن لا تحسب أنني أضعف منك. أنا هنا، لا كعدو، بل كأخ يحمل عبء الماضي مثلك. ما حدث لنا لم يكن صدفة، لكنه أيضًا لم يكن نهاية كل شيء."

ثم نظر إليه بثبات، وكأنّه يطلب فرصة لإصلاح ما يمكن إصلاحه، أو على الأقل لإنهاء هذا الصراع المميت بينهما.

ثم قال كايل، بنبرة ثابتة لكن مشوبة بشيء من المرارة:
"أيضًا... أنا أصبحت شرطيًا."

ساد الصمت بينهما لوهلة، كأن الزمن توقّف ينتظر ما سيحدث. ليام بقي واقفًا، عيناه تتفحصان وجه كايل كأنهما تحاولان اختراق قناعه الجديد.

تابع كايل بصوت خافت، لكن يحمل ثقل يقين مرّ:
"وأنا أعلم... أنك المجرم الذي زرع الخوف في المدينة."

ارتجفت عضلة في فك ليام، لم تكن صدمة بل تحفزًا... كأن هذا الاعتراف لم يكن مفاجئًا بل متوقعًا.

اقترب خطوة من أخيه، وعيونه تلمع بحدة:
"ومنذ متى عرفت؟"

أجاب كايل دون أن يرمش:
"منذ بدأت الجثث تسقط، وتلك التفاصيل التي لا تُكتب في الصحف... كنت أعرف طريقتك حتى قبل أن ترتكبها. أنت لا تقتل فقط، أنت ترسل رسالة، وأنا الوحيد الذي يعرف لغتك."

ارتسمت ابتسامة باردة على شفتي ليام، لم تكن تهديدًا ولا تحديًا... بل اعترافًا صامتًا.

"ومع ذلك... لم تبلغ عني." قالها وهو يرفع حاجبه، كأنه يتلذذ بالخذلان.

رد كايل بنبرة موجعة:
"لأني لا أريد أن أقف ضدك... لكني لا أستطيع أن أغمض عيني أكثر."

ليام ضحك بخفة، ثم اقترب أكثر، حتى صار وجهاً لوجه مع كايل، وقال:
"إذن أخبرني، يا شرطي... ماذا ستفعل الآن؟ هل ستطلق عليّ النار؟ أم ستغض البصر مجددًا كما فعلت لسنين؟"

كايل لم يجب. فقط حدّق في عيني أخيه. هناك، في أعمق نقطة، ما زال يرى شيئًا يشبه الطفل الذي نام بجانبه ذات يوم... لكنه يعرف أن ذلك الطفل مات منذ زمن.

تنهّد كايل بعد لحظة صمت طويلة، وكأن ما سيقوله كان أثقل من كل شيء مضى، ثم قال بصوت خافت لكن واضح:
"يمكنك أن تسكن معي في منزلي... بدل السكن مع الغرباء."

رفعت الجملة حاجبي ليام قليلًا، لم يكن يتوقع ذلك العرض. كأن شيئًا في داخله لم يتهيأ لاحتمال أن يمد كايل له يدًا – لا بالعتاب، بل بالمسكن.

سادت لحظة سكون، عيون ليام تراقب أخاه، تحاول أن تكتشف النية الحقيقية خلف هذا العرض.

لكن كايل كان جادًا.
"لا أبرّر شيئًا مما فعلت... ولن أصفق لجنونك، لكنك ما زلت أخي. وما دام في قلبي نبض يتذكّر كل ما مررنا به... لن أدعك تغرق وحدك."

نظر ليام بعيدًا، ابتسامة باهتة ظهرت على وجهه، أقرب للحنين منها للسخرية. ثم تمتم بصوت منخفض:
"الغرباء لا يطرحون أسئلة كثيرة."

فأجابه كايل:
"لكنهم أيضًا لا يعرفون متى تنهار."

ووقف هناك، منتظرًا، لا يأمر ولا يرجو. فقط يعرض مأوى… لمن بقي منه شيء.

ثم قال ليام بصوت خافت، وكأن الكلمات تثقل لسانه:
"حسنًا."

لم تكن "حسنًا" مجرد قبول، بل كانت اعترافًا صامتًا بأن هناك شيئًا في كايل لم ينطفئ بعد… رغم كل شيء.

في ذات اللحظة، على الجهة الأخرى من المدينة، فتحت إليورا باب غرفتها وتقدّمت نحو غرفة الجلوس، كانت الساعة الثامنة والنصف مساءً، والضوء الخافت يتسلل من الممر.

سألت والدتها وهي تربط شعرها بنعاس:
"أين ليام؟ لم أراه منذ فترة."

أجابت صوفيا وهي ترفع رأسها من كتاب في حضنها:
"خرج قبل قليل."

توقفت إليورا للحظة، ثم قالت بصوت شبه هامس:
"خرج؟ إلى أين؟"

هزّت صوفيا كتفيها، وقالت ببساطة:
"لم يخبرني، فقط ارتدى معطفه وغادر بهدوء."

خرجت إليورا من المنزل بخطى مترددة بعدما أخبرتها والدتها أن ليام خرج قبل قليل. لم تكن تنوي تتبعه، لكن شيئًا في قلبها دفعها للبحث، وكأن هناك أمرًا غير مريح في الهواء.

خطت خارج البوابة، لتتوقف فجأة.

على بعد أمتار قليلة، تحت ضوء عمود إنارة باهت، رأت ليام واقفًا بصمت أمام رجل غريب. كان أطول منه بقليل، ذو شعر مبعثر بطريقة عشوائية، ويرتدي قميصًا أسود بأكمام مطوية وبنطالًا داكنًا. ملامحه كانت مألوفة نوعًا ما، لكنها لم تستطع أن تتذكر من يكون بالضبط... حتى تذكرت.

هذا الرجل هو ذاته الذي وصفه لها ليام قبل أيام، حين أخبرها أن مالك المنزل السابق كان أخاه.

هو إذن... الأخ.

وقفت إليورا في مكانها، لا تنوي الاقتراب ولا الرجوع، فقط تراقب من بعيد بصمت. لم تكن تسمع ما يقولانه، لكن الجمود بينهما كان كافيًا ليبعث في صدرها شعورًا غريبًا... توتر، ربما، أو خوف من أن يتفجّر شيء خفي بينهما.

وبينما كانت إليورا تستدير لتعود أدراجها، التفت ليام دون قصد، لتقع عيناه مباشرةً على عينيها. كانت تقف على درجات المنزل، وشعرها يتمايل بخفة في نسيم المساء، ووجهها يحمل نظرةً متجمّدة بين الفضول والقلق.

حدّق بها للحظة، بعينين لا تشي بشيء، لكن داخله كان يغلي.

هل سمعت شيئًا؟ هل رأت ما لا ينبغي أن تراه؟ هل ستسأل؟

لم يُحرّك ساكنًا. لم يبتسم، لم يومئ، فقط ثبت نظره عليها كما لو كان يحاول سبر نواياها من بعيد. أما هي، فشعرت بتلك النظرة تسري في جسدها مثل وخزٍ خفي، لكنها لم تتوقف. بل أشاحت بعينيها سريعًا، ودخلت إلى المنزل وأغلقت الباب بهدوء.

تنهّد ليام بصمت، وعاد بنظره نحو أخيه كايل.

"لقد رأتنا." قالها دون أن يلتفت.

أجابه كايل ببرود:
"لا بأس. إن لم تكن هناك كلمات، فالشك لن يُثمر شيئًا."

بعد دقائق من ذلك اللقاء الصامت بينه وبين كايل، استدار الأخير وغادر بهدوء، متجهًا نحو سيارته المركونة على بُعد خطوات، ليعود إلى منزله البعيد في حيٍّ آخر. ترك ليام واقفًا في منتصف الطريق، يراقب خيال شقيقه يتلاشى بين عتمة الشارع وأضواء السيارات الخافتة.

تنهد ليام، ثم التفت عائدًا إلى منزل صوفيا حيث يقيم مؤقتًا. دخل من الباب دون أن يصدر صوتًا، ألقى نظرة سريعة على الصالة التي كانت خالية تمامًا، ثم خلع معطفه الثقيل وعلّقه بهدوء. كان المنزل لا يزال ينبض بحرارة العائلة، تلك الحرارة التي لم ينتمِ لها منذ زمن.

من الأعلى، سُمِع صوت حركة خفيفة. دانيال يتقلب في نومه، وصوفيا أغلقت باب غرفتها منذ ساعة. أما إليورا، فكانت غرفتها مظلمة، لكن ليام لمح من أسفل الباب ضوءًا خافتًا ينبعث من شاشة هاتف أو مصباح قراءة.

سار بخطوات هادئة في الممر، دخل غرفته، وأغلق الباب خلفه بإحكام. وقف للحظة، يتأمل المكان... هذا ليس منزله، لكنه كان يومًا له، لكنه الليلة الأخيرة تحت هذا السقف.

تمتم مع نفسه، بصوت لا يسمعه سواه:

"غدًا... أغادر، وأبدأ من جديد."

ثم جلس على سريره، ظهره مستند إلى الحائط، عيناه تحدقان في السقف، كأنما يقرأ ملامح المستقبل المكتوبة عليه بالدم والانتقام.

..... في مشهد ثقيلٍ بالرهبة، انتقل الليل إلى موقعٍ مختلف — إلى المقر الضخم والداكن الذي يتبع فيكتور سانتوس، ذاك المبنى المبني من الطوب الأسود والمُحاط بكاميرات المراقبة والأسوار العالية، والممتلئ برجال لا يشبهون المدنيين بشيء. الوجوه صارمة، الأسلحة ظاهرة، والجو مشبع برائحة الخطر.

دخل نواه قوس من البوابة الحديدية بعدما فُتحت له بتردد. لم يكن دخوله خيارًا منه، بل أمرًا مباشرًا من غابرييل هانتر، الذي قال له ببرود: "اذهب واعتذر له بدلاً مني... هذه الغلطة تخصك الآن."

كان نواه يشعر بتيار من القلق في عموده الفقري، يحاول أن يبدو ثابتًا وهو يسير في الردهة الطويلة. كل العيون تراقبه... بعضهم يبتسم بسخرية، والبعض الآخر يقبض على سلاحه وكأنه لا يطيق وجود غريب هنا.

توقف عند بابٍ خشبي ضخم، حارس ضخم الجثة أشار إليه بالدخول دون أن ينطق بكلمة. فتح الباب ببطء، ودخل إلى غرفة فاخرة، الإضاءة خافتة والهواء كثيف بدخان السيجار.

وفي منتصف الغرفة، يجلس فيكتور سانتوس على أريكة جلدية داكنة، يضع ساقاً فوق الأخرى، ويحدّق في شاشة تعرض لقطات أمنية متتالية. التفت إليه ببطء، ملامحه بلا تعبير، وصوته جاء عميقًا ومحمّلاً بالثقل:

"أرسلك غابرييل، إذًا؟"

رد نواه بسرعة محاولًا السيطرة على نبرته:

"نعم، هو... لم يستطع القدوم، وطلب مني أن أعتذر نيابةً عنه على ما حدث... لم يكن قصده..."

قاطعته نظرة باردة من فيكتور، نظرة جعلت الكلمات تتجمد في حلقه. ثم رفع فيكتور يده، يشير له بالاقتراب:

"اقترب، دعني أرى مَن يملك الجرأة ليقف أمامي بدلًا من هانتر."

اقترب نواه ببطء، بينما عقله يصيح بتحذيرات لم ينصت لها.

نهض فيكتور سانتوس من مكانه بهدوء قاتل، يزيح بيدٍ واحدة رماد السيجار عن سترته وكأن لا شيء يستحق العجلة. لكن نواه شعر بشيء يتغير في الهواء... إحساس غريزي خالص، كأن شيئًا قبيحًا على وشك الحدوث.

وبدون تفكير، وبحركة غريزية تسبق العقل، مدّ يده بسرعة خاطفة نحو المسدس الموضوع على الطاولة القريبة، وسحبه في لحظة، ثم وجهه مباشرة نحو صدر فيكتور.

كانت يداه ترتجف، لكن عيناه لم تهتزّا. نظر إلى فيكتور بنظرة متصلبة، متجمدة، فيها تحدٍّ لم يتوقعه من نفسه، وقال بصوت منخفض متماسك:

"أشعر بالخطر."

صمت طغى على المكان، فيكتور نفسه لم يبدُ مرتبكًا.

ضحك، ضحكة خفيفة لكنّها مشحونة بالخطر:
"أنت تجهل قواعد اللعب يا فتى... حين تصوب سلاحًا في هذا العالم، يجب أن تكون مستعدًا لاستخدامه، أو تُقتل وأنت ترتجف."

وحدها أنفاس نواه كانت مسموعة الآن، والمسدس لا يزال ثابتًا بين يديه... لكن السؤال لم يكن: هل سيطلق؟ بل: هل سينجو؟

تصلبت نظرة نواه أكثر، وضاق حدقاه بشراسةٍ لم يعهدها أحد فيه، ثم ضغط بإصبعه على الزناد قليلًا... فقط ليُشعر فيكتور أنه لا يمازح.

ثم قال بصوت منخفض كأنه يخرج من أعماق الغضب المكبوت:

"أنت لا تعرفني جيدًا."

كأن كل ما في داخله قد انفجر دفعة واحدة، لم يكن نواه الفتى الخائف، ولا الطفل الهادئ... بل رجل على حافة الجنون، يحارب الرعب بسلاحٍ مرتجف وإرادة متفجرة.

ابتسم فيكتور، ببرود المعتاد على التهديدات، لكنه هذه المرة لم يضحك، بل نظر بعمق إلى وجه نواه، وفهم شيئًا ما... ليس هذا الفتى هو ذلك الاسم العابر الذي وصله في التقارير. بل هو قنبلة مؤجلة.

"يبدو أنني فعلاً لم أعرفك... لكن لا تقلق، سأصحح ذلك قريبًا."

ارتفعت زاوية فم نواه بابتسامة خفيفة، لا تحمل سخرية خالصة ولا ودًا، بل شيء آخر... مزيج من جرأة مُتحدّية وكلمة لا مبالية تُلقى كالسهم.

ثم قال بنبرة هادئة لكنها تزداد وقاحة كلما اقتربت من أذنه:

"قال جوليان... إنك أباه."

كأن الجملة نُزعت من صدر فيكتور وانتُزعت معها آخر ذرة تماسك، جحظت عيناه للحظة، قبل أن يغلقهما في انزعاج بالغ، كما لو أن الاسم وحده يلوّث الهواء الذي يتنفسه.

تقدم خطوة، ببطء مدروس، ثم قال بصوت عميق متصدّع:

"جوليان ليس من شأنك، ولا تكرر اسمه أمامي."

لكن نواه، وهو لا يزال يصوّب السلاح، أمال رأسه قليلًا، وضاقت ابتسامته لتصير أكثر خبثًا:

"بل أظن أن كل شيء صار شأني الآن."

فتح نواه الباب بخفة، وخرج بخطوات ثابتة واثقة، لا ينظر خلفه، لا يتردد، وكأن المكان بأكمله لا يساوي شيئًا في نظره.
لكن حين فُتح الباب، كانت وجوه الرجال خلفه جامدة، أعينهم متحفزة، كأنهم تلقوا أوامر بالانقضاض لحظة خروجه.
تحرك اثنان منهم فورًا خلفه، لكن صوتًا أجشًا وقويًا جاء من فيكتور، كصفعة في الهواء:

"اتركوه."

تجمّد الرجال في أماكنهم، لم يتجرأ أحد على مخالفته، فأنزلوا أنظارهم بصمت، وعادوا إلى مواقعهم.

فيكتور وقف هناك، ما يزال عابسًا، يرمق الباب الذي خرج منه نواه كأنّه يشهد بوابة هزيمة صغيرة.
لقد دخل نواه ليعتذر، لكنه خرج كمن ألقى قنبلة صامتة في صدر رجلٍ لا يُفترض أن يهتز، وها هو يترك خلفه هواءً مشحونًا وصمتًا أكثر ثقلاً من أي صراخ.

بينما كان نواه يبتعد عن مقر فيكتور، وصلته رسالة قصيرة من غابرييل هانتر:

"هل اعتذرت بالنيابة عني؟"

أجاب نواه بسرعة، بنبرة باردة وكأنه لم يفعل شيئًا خارج المخطط:

"نعم، قلت له إنك آسف، بكل احترام."

مرت لحظة، ثم وصل الرد:

"جيد. فيكتور يجب أن يعرف أننا لا نريد مشاكل الآن."

نظر نواه إلى الرسالة، ثم ابتسم بهدوء دون أن يُظهر شيئًا.
هو لم يعتذر.
بل هدّد فيكتور وخرج حيًّا.
وغابرييل؟ ما زال يجهل تمامًا ما حدث.

نواه يعرف جيدًا كيف يبدو مطيعًا حين يريد،
وكيف يُخفي النار تحت جلده بابتسامة المتواضع.

ومرّت الأيام، وقد مضت عدّة أيام على مغادرة ليام للمنزل وسكنه مع كايل.
كان البيت أكثر هدوءًا منذ رحيله، كأن شيئًا من الظلال انزاح عن أرجائه،
لكن ذلك الهدوء لم يكن مطمئنًا... بل كان يحمل في طيّاته فراغًا غريبًا، وكأن الأرواح فيه باتت تمشي على أطراف أصابعها.

إليورا شعرت بذلك الفراغ أكثر من غيرها،
رغم أنها لم تعرفه طويلًا،
لكن حضوره في المكان كان كثيفًا، حتى في صمته، وحتى في نظراته التي كانت تخفي أكثر مما تبوح.
أما صوفيا، فكانت تكتفي بأن تقول: "هو بخير... كايل لن يتركه يضيع."

ومع أن ليام قد غادر المنزل وانتقل للعيش مع كايل، إلا أن شيئًا واحدًا لم يتغير...
لم يتوقف عن ارتكاب الجرائم.
بل على العكس، كانت جرائمه تزداد ظلمة وتعقيدًا، وكأن كل ضحية جديدة كانت تعني له خطوة أخرى نحو هدف أكبر، لا يعلمه أحد سواه.

كان ينتقل بين الظلال كطيف لا يُرى،
يترك خلفه بصمات من الرعب والدم،
لكن دون أثر يدل عليه.
هوية المجرم ما تزال مجهولة، والشرطة ما تزال تتخبط وسط الخيوط المتشابكة،
وكلما اقتربوا، وجدوا أنفسهم يبتعدون أكثر.

ليام... لم يكن ذلك الفتى الذي خرج من السجن فقط،
بل كان رجلاً وُلد من رحم الظلم،
وصار هو ذاته كابوسًا تمشيه المدينة على قدمين.

في أحد الأحياء المتطرفة من ريفنشيد، وقبل طلوع الشمس بقليل، توافدت سيارات الشرطة، تضيء الأزقة الباردة بأضوائها الحمراء والزرقاء.
وقف المحقق ريتشارد كرين صامتًا أمام جثة جديدة، هذه المرة أكثر بشاعة من سابقاتها. كانت الجثة مشدودة إلى عمود إنارة صدئ، كأنها معروضة للعامة، والدماء شكلت دائرة حولها على الأرض.

اقترب ريتشارد بخطوات ثقيلة، يتفحّص التفاصيل.
لم تكن الطعنة هي المروّعة وحدها، بل ما خُطّ على جلد صدر الضحية...
رسالة محفورة بشفرة حادة، بدقة مرعبة، تقول:

"إن تجاهلتُم دماء البارحة... فاستعدّوا لطوفان الغد."

شدّ ريتشارد على قبضته، ونظر إلى الفريق من حوله قائلاً:
"هذا ليس مجرد قاتل... هذا رجل يعتقد أن لديه رسالة."

ثم تمتم في نفسه، بعينين ضيقتين تشتعلان شكًا:
"إنه يتحدى المدينة... ويتحدانا جميعًا."

الهواء صار أثقل، والوقت بدأ ينفد.

في غرفة التحقيق المظلمة، حيث تعبث صور الجثث البشعة والرسائل المحفورة على جلد الضحايا بأعصاب المحققين، دخلت امرأة ذات حضور قوي، ملامحها حادة وعينيها تشتعلان بنار الغضب. كانت هذه أول مرة تظهر فيها سيلينا كاروس، خبيرة علم الجرائم المشهورة بحدة ملاحظتها وصراحتها التي لا تقبل المهادنة.

وقفت وسط الغرفة، ونظرت إلى الجميع بعينين ثاقبتين، ثم انفجرت بغضب:

"ألم تعرفوا من هو المجرم حتى الآن؟! أجساد الأبرياء تتساقط واحدة تلو الأخرى كل يوم، ونحن نقف مكتوفي الأيدي! أين العدالة؟ أين الحماية؟ كيف تجرؤون على التلكؤ بينما هذا الوحش يعبث في شوارع ريفنشيد بلا رحمة؟!"

سكون ثقيل عمّ المكان، وصدى كلماتها يتردد في الأرجاء، كأنها تفضح وجوه الجميع الذين كانوا يعانون من اليأس والإحباط. ريتشارد كرين، المحقق المكلف بالقضية، حاول أن يخفف من وقع الصدمة، لكن الحقيقة كانت أكثر مرارة مما يحتمل.

قال ريتشارد كرين ببرودٍ متمالكًا أعصابه:
"المجرم له طريقته الخاصة بالقتل... طريقة لا تشبه أي نمط جرائم سبق أن تعاملنا معه."

نظرت إليه سيلينا كاروس بعينين تلمعان بالحزم، وقالت بصوتٍ صارم:
"حين نعطيه لقبًا، نُجسّد هويته في عقولنا. يصبح اسمه علامة، وسيسهل علينا تضييق دائرة التحقيق. دعونا نطلق عليه لقبًا... لقب يليق بوحش لا يرحم."

تأمل ريتشارد كرين للحظة طويلة، يتلمّس الكلمات في رأسه كما لو كان يحاول أن يجد مفتاحاً لقضية معقدة بلا حل. ثم التفت إلى سيلينا، التي لم تخفِ حماستها، بل بدت وكأنها تحمل شعلة من اليقين وسط دوامة الغموض.

سألها بصوت هادئ لكنه مليء بالجدية:
"ماذا تقترحين؟"

كانت كلماتها سريعة وحاسمة، كالسهام التي تخترق الضباب:
"ظل ريفنشيد."

انعكس صدى هذه الكلمات في أركان غرفة التحقيق، شعرت وكأنها تفتح فصلاً جديداً من الصراع، فصلاً يحكي عن كيان قاتل يتخفى خلف ستار من الظلال والسرية، متربصًا في زوايا المدينة، تاركًا وراءه سلسلة من الرعب والدماء.

نظر ريتشارد إلى الحاضرين، ثم قال بصوت خافت لكنه قوي:
"لقب يليق بهذا المجرم الغامض، ظلٌ يلاحق ريفنشيد بلا هوادة، لا يُرى، لكنه يُحسّ، ظلٌ يزرع الخوف في قلوب الجميع."

ابتسمت سيلينا بثقة، وكأنها وضعت حجر الأساس لأول خطوة في فك شفرة هذه اللعبة القاتلة.

...... في اليوم التالي، وبينما كانت شمس الصباح تحاول شق ضباب ريفنشيد الكثيف، انتشر خبر العثور على جثة جديدة كالنار في الهشيم. لم تكن الجريمة عادية، بل أكثر وحشية من سابقتها.

في أحد الأزقة الخلفية المظلمة، حيث تتكدّس القمامة وتتعفن الأرواح الضائعة، وُجد جسد لرجل ثلاثيني، ممدّدًا على الأرض بعينين مفتوحتين نحو السماء، كأنه لم يفهم حتى لحظة موته كيف انتهى به المطاف هكذا. كان فمه مفتوحًا على اتساعه، ولسانه ممتدًا إلى الخارج بشكل غريب.

اقترب ريتشارد كرين من الجثة، وعيناه تلتهمان التفاصيل بصمت. انحنى ببطء، وألقى نظرة أقرب، لتتسع عيناه بدهشة مكتومة.
على لسان الضحية، وبأداة حادة، كُتبت كلمة واحدة فقط، محفورة داخل اللحم:
"أنصِت".

وقف ريتشارد مستقيمًا، زافرًا من أنفه بقوة، وقال بصوتٍ خافتٍ أشبه بالتحذير:
"إنه يُرسل رسالة، هذه المرة... يريدنا أن نستمع."

لم يعد المجرم يكتفي بإسقاط الجثث، بل صار يهمس في آذان المحققين بجنون صامت. ظل ريفنشيد، يكتب بلغته الخاصة، ويقودهم حيث يريد... جريمة بعد جريمة، دم بعد دم، وكلمة بعد كلمة.

كان غابرييل هانتر يقف أمام الواجهة الزجاجية العريضة لمقره، يراقب الحركة المستمرة داخله بعينين متفحّصتين، كأنه يراقب خلية نحل ضخمة أُشعلت في داخلها النار. المقر لم يعد مجرد مكتب خاص، بل بات أشبه بشركة ضخمة يديرها بنفسه، مزوّدة بأحدث الأجهزة، وخبراء في تحليل الجثث، ومحققين من مستويات مختلفة، وضباط ميدانيين، وموظفين تقنيين يعملون على مدار الساعة.

الضوضاء التي كانت تملأ المكان لم تكن إلا ضجيج التحقيقات. أصوات أقدام تركض، حوارات حادّة بين فرق التحليل، خرائط تُعلّق على الجدران، صور ضحايا وأدلة تتكدس أمام الجميع... وكلهم يسألون السؤال ذاته:
"من هو ظل ريفنشيد؟"

كان غابرييل يُراقبهم بصمت وهو يحتسي قهوته، دون أن يظهر عليه الانفعال. هو لا يهتم بالضحايا. لا تعنيه العدالة بقدر ما يعنيه السطو على زمام الفوضى. كلما تفاقمت الجرائم، زادت سلطته على المدينة، وازداد تعلق الشرطة به كقائدٍ لا يُستغنى عنه.

ابتسم لنفسه ابتسامة ضئيلة، وقال بهدوء:
"كلما طالت مدة البحث، زادت حاجتهم لي... وهذا القاتل، وإن كان عبقريًا، إلا أنه يخدمني أكثر مما يظن."

ثم دلف نواه إلى المكتب بخطى هادئة، رغم أن الخبر الذي يحمله كان كفيلًا بإثارة الرعب. تقدم حتى وقف أمام غابرييل، ثم انحنى قليلًا باحترام مفتعل، وقال بصوت منخفض وكأنما يُبلغ عن موعدٍ عادي:

"جثة أخرى قد قُتلت."

رفع غابرييل حاجبيه قليلًا دون أن يتفاجأ، ثم استدار عن النافذة وتقدم بضع خطوات نحو مكتبه. وضع الكوب على سطح الطاولة الخشبية الفاخرة، وقال بنبرة باردة:

"هل ترك رسالة هذه المرة أيضًا؟"

أومأ نواه برأسه، وأضاف وهو يقف مستقيمًا:
"نُقِشت الرسالة على لسان الضحية. إنه يتفنّن أكثر كل مرة."

ساد صمت لبضع ثوانٍ قبل أن يقول غابرييل بنبرة تأمل:
"إما أنه يسخر منّا... أو أنه يرسل إلينا دعوة مباشرة لنلحقه."

ثم نظر إلى نواه مطولًا، بعينين تقرأ ما خلف القشرة الصلبة، وكأنما يحاول كشف النوايا المختبئة خلف وجهه الهادئ، وقال:
"أخبر المحققين أن يجتمعوا. إن ظل ريفنشيد لا يحب التأخير، ولن يُمهلنا كثيرًا قبل أن يترك جثة جديدة."

... في الجانب الآخر من المدينة، وفي بيتٍ معتم لا يدخله ضوء الشمس إلا بخجل، كان ليام يجلس متكئًا على الأريكة، جسده مائل قليلًا، ويداه متشابكتان خلف رأسه بينما التلفاز أمامه يعرض نشرات إخبارية متتالية عن الجرائم المتصاعدة. المذيعة تتحدث بنبرة مرتبكة عن جثة الليلة الماضية، عن الرعب الذي يبتلع المدينة.

ابتسم ليام، تلك الابتسامة الهادئة التي لا تعرف الرحمة، وكأن ما يُقال عنه هو مجرد إنجاز يُعرض في نشرة فخرية. كان وجهه ساكنًا، وعيناه تعكسان استمتاعًا خفيًا، كأن الدماء التي تُراق تمنحه معنى.

في الغرفة المجاورة، كان كايل يقف أمام المرآة الصغيرة وهو يغلق زر قميصه الأخير، يُعِدُّ نفسه ليوم جديد في مركز الشرطة. ملامحه جادة، حاجباه معقودان، والحيرة لا تزال تسكن خلف نظرته. نظر نحو الباب قليلاً، كأنه يستشعر تلك الابتسامة خلف الجدار، لكنه لم يقل شيئًا. التقط شارة الشرطة من الطاولة، تثبّت منها، ثم خرج من الغرفة متوجهًا إلى العمل، بينما صوت الأخبار لا يزال يدوي في الشقة، وصدى الجرائم يثقل المدينة.

وفجأة، تغيرت الشاشة، وانتقلت القناة إلى بث مباشر لبرنامج حواريّ يعرض تقارير تحليلية عن الجرائم الأخيرة. ظهرت مذيعة جديدة على الشاشة، ملامحها مشدودة رغم مساحيق التجميل التي تخفي تعب السنوات. عيناها بنيّتان، وصوتها لا يزال يحمل ذات النغمة التي لطالما رددت الأوامر بدل التحنان.

جفّت ابتسامة ليام تدريجيًا، تحولت ملامحه من السخرية إلى صمتٍ متوتر. ملامح المرأة على الشاشة... مألوفة، موجعة، محفورة في ذاكرته رغم كل محاولاته لطمسها.

كانت هي.

ميرا.

والدته.

"في ضوء تصاعد عمليات القتل في ريفنشيد، ومع ظهور جثة كل يوم تقريبًا، نطرح السؤال الأهم: من هو هذا القاتل؟ وما الرسالة التي يسعى لتوصيلها؟"

قالت عبارتها تلك بنبرة حادة، لا تختلف كثيرًا عن الطريقة التي كانت توبخه بها في الماضي، حين كان لا يزال طفلًا يبحث عن دفء الأم في عينيها، ويعود خائبًا في كل مرة.

انكمش ليام قليلًا في مكانه، عينيه تحدقان بالشاشة دون رمشة. لم يكن يتوقع رؤيتها مجددًا... ليس هكذا، لا بين الأخبار، ولا وهي تتحدث عن ظله وكأنه مجرد موضوع في تقريرها.

ثم همس بخفوت متيبّس:
"حتى الآن، تتحدثين وكأنك لا تعرفينني... كما كنتِ دومًا."

مدّ يده وأطفأ التلفاز بضغطة واحدة، وعمّ الصمت في البيت مرة أخرى... الصمت الذي يعقبه دائمًا شيء أسوأ.

..... أما عن إليورا، فكانت تراقب الضجة التي تعصف بمدينة ريفنشيد، الضجة التي صنعتها الجرائم المتلاحقة، الجثث المبعثرة، والرسائل المنحوتة على الأجساد. كانت تتابع التفاصيل من شاشة هاتفها، تجلس على حافة سريرها، وقد غمر الضوء الأزرق وجهها الهادئ.

في البداية، رأت الأمر عادياً... مجرد مجرم آخر، مختل يقتل ويختبئ، كغيره ممن قرأت عنهم في ملفات الدراسة. لكنها ما عادت كذلك. شيءٌ ما تغيّر.

أصبحت تشعر بالخوف... ذاك الخوف الخفي الذي لا يظهر على الملامح لكنه يستقر تحت الجلد، في كل مرة تسمع فيها عن ضحية جديدة، عن رسالة جديدة، تشعر وكأن القاتل يقترب أكثر فأكثر. لا تعرف كيف، ولا لماذا، لكنها بدأت تشعر أن هذه الجرائم ليست عشوائية.

كانت فتاة جامعية، شابة في مقتبل العشرين، تدرس التحقيق الجنائي بشغف، وتكره المجرمين بكل جوارحها، ترى أنهم كائنات جبانة، لا تملك الشجاعة للمواجهة، فيلجؤون إلى الظلام والطعن والغدر. ولكن مع الوقت... لم تعد تكره المجرمين فقط، بل بدأت تكره هذا المجرم تحديدًا... "ظل ريفنشيد".

لماذا؟
لأنه لا يقتل فقط، بل يهين الحياة.
لأنه يتباهى... يبعث برسائل، يشوّه الجثث، ويرقص فوق ركام العدالة.

أغمضت عينيها لحظة، ثم تمتمت:

"لو كنتُ محققة حقيقية... لقيدتك بنفس يدي."

لكنها لم تكن بعد.
وكان المجرم لا يزال حُرًّا...
وكان هناك شيء قادم... أقرب مما تظن.

رغم الغضب الذي بدأ يتصاعد في صدرها، ورغم الكراهية التي راحت تبنيها لهذا القاتل المجهول الذي سرق النوم من عيون المدينة، كانت هناك فكرة واحدة تقطع كل حبال المنطق في ذهن إليورا... فكرة لا تعرف كيف تسمّيها ولا أين تخبّئها من نفسها.

كانت تتمنى أن تلتقي بليام مرةً أخرى.

ليام... ذلك الفتى الغامض الذي شاركها في لحظاتٍ بسيطة لكنها انغرست في أعماقها كالشوك الناعم، ترك خلفه أسئلة لا أجوبة لها، ونظرات لا تفسير لها، وغيابًا أثقل من الحضور.

هي لم تره منذ أن خرج من المنزل... ومنذها والأشياء تغيّرت، المدينة تغيّرت، وكل شيء أصبح مشوّشًا.
لكنها، رغم التوتر العام، كانت تشعر بالطمأنينة حين تفكّر به.
وإن لم تعرف السبب...

كان هناك شيء في عينيه... شيء يبعث على الخوف، نعم، لكنه لا يشبه خوف الجرائم التي تتابعها الآن، بل خوف آخر، أشبه بالاحترام، أو الغموض، أو حتى... الانجذاب.

رفعت هاتفها من جديد، قلبت الأخبار، ثم همست لنفسها:

"أين اختفيتَ يا ليام...؟"

ومرّت الأيّام الأخرى بثقلٍ أشبه بالدخان، تتراكم فيها الجثث، وتعلو فيها الأصوات داخل أروقة التحقيق، ويتنامى الخوف في قلوب الناس. لم يكن أحد ينام مرتاحًا، لا في منازلهم، ولا في مراكز الشرطة.

وهذه المرة... لم تكن الجريمة كسابقاتها،
الضحية لم يكن طالبًا، ولا مواطنًا عاديًا... بل كان شرطيًا.

شرطي شاب، كان يعمل في أحد الأحياء الجانبية من ريفنشيد، قد التقط شيئًا تلك الليلة، رآه،
رأى الظلّ... رأى المجرم.

لم يكن يعرف اسمه، ولا ملامحه، كل ما رآه كان عينيه،
عينان سوداوان، لا تُشبِهان إلا ظلمة المدينة نفسها.

وما إن لمح القاتل الشرطي يحدّق فيه، حتى تغيّرت خطواته،
وتحوّلت تلك الليلة إلى مطاردة قصيرة،
انتهت بسكينٍ يغوص في أعماق الرقبة،
وصوت أنفاسٍ تختنق في الظلام،
وجثةٍ أخرى تُلقى قرب أحد الجدران، وقد كُتب على صدره بالحبر الأحمر،
"رأيته... ولذلك مات"

عندما وصل المحقق ريتشارد كرين إلى مسرح الجريمة، تجمّدت ملامحه للحظة.
قال بصوتٍ ثقيل،
"إنه يتجرأ علينا... على رجال القانون أنفسهم"

أما سيلينا كاروس، فكانت ترتجف وهي تتأمل الجثة، وقالت بصوت يائس،
"إنه يتلاعب بنا... وكأننا بيادقه"

كل شيء خرج عن السيطرة،
المجرم، الذي أصبحوا ينادونه باسم "ظلّ ريفنشيد"، لم يعد يتستر، بل يُعلن عن وجوده صراحةً،
لكن الأسوأ…
أن أحدًا لا يعرف من هو،
ولا متى سيضرب مجددًا.

في ظلمة الليل الهادئة، عادت إليورا من حفلة جامعية مع أصدقائها، وأصوات الضحك والموسيقى لا تزال تتردد في أذنيها، لكنها رغبت بالابتعاد قليلاً عن الصخب، فتوجهت إلى مطعم صغير على أحد الأرصفة الخالية. كان المكان خاليًا إلى حد ما، كأن أهل المدينة يخشون أن يجرؤوا على الخروج، فقد زرع ظل ريفنشيد الرعب في قلوبهم.

جلست على طاولة وحيدة، تشرب عصيرها ببطء، وتنظر بلا وعي إلى أظافرها الطويلة التي كانت قد أعدتها بعناية، وكأنها تسرح بعيدًا في أفكارها المضطربة بين الدراسة والجرائم التي تملأ المدينة.

فجأة، صمت المكان، وجلست بجانبها على المقعد المقابل شخصية مألوفة. رفعت عينيها ببطء، لتلتقي بوجه ليام. بادرته بسؤال هامس:

"ماذا تفعل هنا؟"

ابتسم هو بابتسامة خبيثة هادئة، وقال:

"المطعم قريب من منزلي، لذلك أتيت لأتناول العشاء هنا."

كانت الكلمات بسيطة، لكن في نبرتها ثقلٌ غامض، كأنها تحمل ما بين السطور أكثر مما تظهره.

نظرت إليه مطولًا، ثم قالت وقد شبكت أصابعها فوق الطاولة:

"أتعلم؟ المدينة كلها تعيش رعباً حقيقياً هذه الأيام."

رفع حاجبه قليلًا، وكأن ملاحظتها قد راقته، ثم قال:

"وأنتِ؟ هل تعيشين الرعب مثلهم؟"

ترددت، لكنها أجابت دون أن تنظر لعينيه:

"أنا أدرس التحقيق الجنائي، من المفترض أن أكون عقلانية. لكن… أحياناً، أشعر بالخوف دون سبب منطقي."

أطرق ليام برأسه قليلًا، ثم همس:

"الخوف... شعور جميل أحيانًا، لأنه يعني أنك ما زلتِ حية."

ارتجفت يداها للحظة، لكنها تماسكت. نظرت إليه مباشرة هذه المرة، بعينين تفضحان شيئًا من القلق والفضول:

"لِمَ تقول كلامًا كهذا؟"

ابتسم من جديد، بنفس البرود:

"ربما لأني أقدّر الحياة بطريقتي الخاصة."

سكنت اللحظة بينهما. كانت طاولتهما في زاوية منعزلة من المكان، والضوء الخافت يرسم ظلالًا مرتجفة على وجه كلٍّ منهما. لم تعرف إليورا، وهي تحدق به، إن كانت تتحدث مع شخص تعرفه... أم مع شيء آخر تمامًا.

ثم قال ليام، بصوت مشوب بخوف مصطنع وابتسامة لم تفارق شفتيه:

"منزلكِ بعيد، أليس كذلك؟ أخشى أن تغادري وحدكِ... فيهاجمكِ المجرم."

رفعت إليورا حاجبها، نظرت إليه بنظرة فاحصة، كأنها تحاول تمييز المزاح من الحقيقة، ثم قالت بسخرية خفيفة:

"أهذا قلق حقيقي أم مجرد تهكم جديد من تهكماتك؟"

رد عليها بصوت خافت، وهو يتكئ إلى الوراء ويشرب من كوب الماء أمامه:

"ربما كلاهما... وربما لا شيء منهما."

ابتلعت ابتسامتها، وشعرت بشيء ثقيل يتسلل إلى قلبها دون أن تفهم سببه. كان وجوده مريبًا، كأن هناك ظلًا يقف وراءه طوال الوقت... لا يُرى، لكن يُحَس.

ثم قال لها ليام، وهو يضع كفيه على الطاولة ببطء ونبرة مصطنعة بالاهتمام:

"هل أرافقكِ في طريق العودة؟ فقط لأتأكد أنكِ لن تتعرضي لأي ضرر."

رفعت إليورا حاجبًا، وانحنت قليلاً للأمام وهي تبتسم بسخرية ناعمة:

"أخشى أن يهاجمك المجرم قبلي... لا تبدو أقوى مني."

ضحك ليام بخفة، صوته هادئ كأنّه لا يتأثر بالكلمات، ثم قال بعينين ضيقتين:

"قد تبدين قوية... لكنّكِ ناعمة أكثر مما تعتقدين، إليورا."

صمتت للحظة، وحدّقت فيه بفضول مشوب بالحذر، ثم أشاحت بنظرها كأنها لا تريد أن تُظهر أي انفعال. شيء فيه كان يربكها، دون أن تدري هل هو حضوره؟ أم كلماته؟ أم طريقة نطقه لاسمها بتلك الطريقة البطيئة الهادئة... وكأنّه يعرفها أكثر مما يجب.

رافق ليام إليورا في طريق العودة إلى منزلها، صامتًا أغلب الطريق، يكتفي بخطواته الهادئة خلفها.

كانت تمشي أمامه، تسمع وقع قدميه على الرصيف خلفها، يثير شيئًا غامضًا في صدرها. لم تلتفت، لكنها شعرت بنظراته، كأنها تخترق ظهرها وتلتف حولها دون أن تلمسها.

حين وصلا إلى زاوية الشارع المؤدي إلى منزلها، توقفت، واستدارت نحوه ببطء. كان يقف هناك، على بعد خطوة واحدة، يُحدّق بها بعينين لا تخبران الكثير... لكنّ صمته كان ثقيلًا، يشبه الليل الذي أحاط بهما.

قالت، بصوت منخفض متردد:

"شكرًا لأنك أتيت..."

ابتسم، ثم قال:

"أحيانًا، مجرد الحضور يكفي ليمنع الخطر."

ثم استدار بهدوء، وغادر دون أن يضيف كلمة، تاركًا إليورا في مكانها، تتأمل الظلام الذي ابتلعه بعد ثوانٍ... والنبض الغريب في صدرها الذي لم تعرف سببه بعد.

عندما وصل ليام إلى المنزل، كان الظلام يغلف المكان بصمت ثقيل، وكأن الجدران نفسها تترقب. خلع معطفه ببطء، وتقدم نحو الممر بخطى هادئة، لا صوت لها، كمن اعتاد التحرك بين الظلال. لكنه قبل أن يصل إلى غرفته، لمح ظلًا واقفًا عند زاوية الصالة... ساكنًا، كأنّه جزء من العتمة نفسها.

كان كايل.

واقفًا هناك، ذراعيه متشابكتين على صدره، عيناه معلقتان بوجه ليام، ينتظره بصبرٍ لم يكن وديًا.

لم يقل شيئًا في البداية، وكأنّ وجوده وحده هو السؤال.

حاول ليام تجاهله، نظر إليه نظرة سريعة خالية من الاهتمام، ثم تابع السير باتجاه غرفته.

لكنه لم يبتعد كثيرًا.

"هل نبدأ بالانتقام؟ معًا؟"

توقف ليام، ولم يلتفت. بقي ظهره لكايل، لكن جسده تجمد، كما لو أن الكلمات اخترقت جلده.

مرت ثوانٍ طويلة.

ثم تابع كايل، بصوت أكثر عمقًا، وفيه شيء من الحنين والمرارة:

"أنت تعرف أننا لن ننجو بمفردنا. كلانا فقد والده... كلانا شاهد الحقيقة تُدفن. العمل الجماعي سيسرّع الانتقام، وسيسهّل الطريق."

ظل ليام واقفًا في مكانه، لا حركة، كأن جسده صار تمثالًا.

لكن شيئًا ما كان يشتعل خلف ظهره.

رفع رأسه قليلًا، وابتسم بسخرية لا يراها أحد.

"أنا لا أحتاج أحدًا."

قالها ببطء، بصوت خافت، لكنه قاطع كالسيف.

ثم تحرك من جديد. خطواته ثقيلة لكنها محسوبة، توجه نحو غرفته وأغلق الباب بهدوء. لا عنف في الحركة، لكن فيها رفضًا لا يقبل الجدال.

بقي كايل في مكانه، ينظر إلى الباب المغلق، يتنفس بصمت... وتحت جلده، شيء يشبه الغليان.

الانتقام لا ينتظر، لكنه لا يُنسى من يُبعده أيضًا.

ما إن أغلق ليام باب غرفته، حتى بقي كايل واقفًا في مكانه، يحدق نحو الخشب الصامت، وكأن خلفه معركة لا صوت لها.

ثم تنهد ببطء، أخرج هاتفه من جيبه، وفتح جهة الاتصال.

مرر إصبعه على رقم بلا اسم محفوظ، لكنه محفور في ذاكرته منذ زمن، منذ الاتفاق الأول، حين اجتمع على الظلال هدف مشترك لا يُنسى.

ضغط زر الاتصال، رفع الهاتف لأذنه، وبعد رنّتين، جاء الصوت العميق، بنفس البرود المعهود:

"قلتَ إنك ستتصل إن تغيّر شيء."

قال كايل بنبرة ثابتة:

"لقد تغيّر، مايكل."

لحظة صمت، ثم أجابه الصوت بثقل:

"رفض؟"

"رفض. مثلما توقعت... عنيد. لا يريد العمل معي."

"دعه. لم نكن نعتمد عليه، بل فقط نراقبه."

قال كايل بنبرة فيها نفَس طويل:

"الخطة تستمر إذًا؟"

"تمامًا كما وضعناها."

أغلق كايل الهاتف دون وداع. حدّق للحظات في الشاشة السوداء، قبل أن يعيد الجهاز إلى جيبه ويتجه إلى غرفته.

كان من الواضح أن الاتصال لم يكن طارئًا... بل كان امتدادًا لاتفاق أقدم. بينه وبين مايكل.

في أزقة ريفنشيد الباردة، حيث يغمر الضباب الأرصفة، وقف مايكل بريمور عند زاوية مظلمة مقابل المقر الضخم الذي يشرف عليه غابرييل هانتر. يراقب بعينين لا تغفلان، كالذئب الذي ينتظر فريسته أن تخرج من العرين.

كانت خطواته ثابتة، وملامحه جامدة كمن يعرف جيدًا ماذا ينتظر، ومتى.

ثم فُتح باب المقر الأمامي، وخرج نواه ڤوس، يعدّل ياقة معطفه بنفَس ثقيل وكأن شيئًا في الداخل لم يكن مريحًا له.

خطا خطوتين، ثم توقف فجأة عندما سمع الصوت الغليظ يأتي من الظلال:

"أخيرًا..."

التفت نواه سريعًا، وبعين حذرة نظر إلى الرجل الواقف هناك، ضخم البنية، يملك هالة غريبة من الصمت الخطر.

ضيق نواه عينيه وسأله بنبرة مرتابة:

"من أنت؟ هل التقينا سابقًا؟"

تقدّم مايكل خطوة للأمام، لكن لم يجب فورًا. فقط اكتفى بنظرة طويلة... كأن وجه نواه يحمل ذكرى ما. ثم تمتم بنبرة واهنة لكنها قاطعة:

"ليس بعد... لكننا سنفعل."

تجمد نواه في مكانه، وبينما كان يهمّ بأن ينطق بشيء، سبقه مايكل بصوت هادئ... لكنه غاص مباشرة في أعماق الحقيقة:

"ابن إيثان، أليس كذلك؟"

ارتبكت ملامح نواه، وكأن أحدهم اقتحم أسراره المغلقة. لم يجب.

تابع مايكل وهو يقترب بخطى ثابتة، عيناه تراقبان كل تعبير في وجه نواه:

"هل أخبرت غابرييل أنك ابنه؟ أم أنك أخفيت الأمر كما فعلت مع الكثير من الأشياء؟"

شهق نواه بصمت، ولم ينبس بكلمة. فقط التفت حوله بسرعة، كأنه يتأكد ألا أحد يسمع.

لكن مايكل لم يمنحه وقتًا للهرب من المواجهة، وأضاف بنبرة مفعمة بالمرارة:

"أباك... لقد كان صديقي. وموته؟ لم يكن مجرد خبر على شاشة... بل خيانة نُفذت أمامنا جميعًا، ولم يردعه أحد."

سكن الليل، كأن المدينة احتبست أنفاسها للحظة.

نظر نواه إلى الأرض، كأن اعترافًا خفيًا وُلد في داخله... لكنه لم يكن مستعدًا بعد ليُقال.

ظل نواه صامتًا، عينيه تهربان من نظرات مايكل التي كانت تخترق جدرانه الصلبة. مرت ثوانٍ ثقيلة، ثم همس بصوت مبحوح بالكاد يُسمع:

"لم أكن أريد أن يعلم أحد... لم أكن أريد أن أُستثنى أو يُراقبني أحد بشفقة."

اقترب مايكل أكثر، حتى أصبح بينهما أقل من خطوة، وقال ببطء:

"لكن إخفاء هويتك لن يُغيّر الحقيقة. دم إيثان يسري في عروقك... وإن كنت تظن أنك قادر على الهرب من ماضيه، فأنت واهم."

رفع نواه عينيه إليه أخيرًا، نظرة منكسرة لكنها تحمل شيئًا من التحدي:

"أعلم من كان أبي... وأعلم من كان قاتله."

ارتفع حاجبا مايكل قليلًا، فهتف بصوت خافت:

"وهل تنوي الانتقام؟"

لم يجب نواه. فقط ظل يحدّق إليه بثبات، حتى ابتسم مايكل ابتسامة خفيفة، خالية من الدفء وقال:

"اتصل بي كايل قبل قليل... يبدو أنكما لا تختلفان كثيرًا."

ثم استدار، وألقى نظرة أخيرة على مقر غابرييل، قبل أن يتمتم:

"نحن لا نختار عائلاتنا يا نواه... لكننا نختار كيف نحارب لأجلهم."

ثم مشى مايكل وقبل أن يبتعد، صرخ نواه قائلاً بصوتٍ حادٍ ملؤه التوتر والقلق:
"هل تعرف كايل؟ أين هو؟ لم أره منذ يوم مقتل والدي!"

توقف مايكل فجأة، كأن الكلمات قد جرحت شيئًا عميقًا في داخله. التفت ببطء ونظر إلى نواه بعينين ثاقبتين، وقال بهدوء كأنه يزن كل كلمة:
"كايل... ليس كما تعتقد. منذ ذلك اليوم، تغيّر كل شيء."

ثم أضاف بصوتٍ منخفض وخافت، كأنه يهمس بأسرار دفينة:
"هو يسير في طريق مظلم، مختلف عن أي شخص عرفته من قبل."

عاد إلى خطاه ببطء، تاركًا نواه في مواجهة ظلال الشك والقلق التي بدأت تخنقه.

ثم بقي نواه واقفًا يحدق في المكان الذي اختفى فيه مايكل، تغمره دوامة أفكار متشابكة من الشكوك والأسئلة التي لا تهدأ. فجأة، صدر صوتٌ خلفه، ثقيلٌ ومتحفظ، لكن يحمل في طياته مزيجًا من التحدي والفضول.

"ماذا تفعل هنا؟ تبدو وكأنك تجمدت كالجليد."

التفت نواه ببطء، ليجد جوليان واقفًا خلفه، عينيه تتأملان بتأني، وكأنهما تحاولان استكشاف ما وراء صمت نواه. لم تكن بينهما علاقة صداقة وثيقة، بل علاقة هشّة ترتكز على الاحترام الحذر والتوجس المتبادل.

قال نواه، بنبرة هادئة لكنها محملة بالتوتر: "كنت أفكر."

اقترب جوليان خطوة، مائلًا رأسه قليلاً، مع ابتسامة ساخرة خفيفة تعلو شفتيه، وقال: "تفكيرك هذا يجعلك تبدو أضعف مما أنت عليه، يا نواه. المدينة لا ترحم الضعفاء، والوقت لا يسعف المترددين."

صمت نواه للحظة، ثم قال بنبرة متماسكة: "أنا لا أضعف، فقط أوزن الأمور جيدًا."

نظر جوليان إليه مباشرة، بعيون تنم عن خبرة قاسية، وقال: "احذر. لا تجعل كبر نفسك يقودك إلى السقوط."

وقفا وجهاً لوجه في ذلك الصمت الذي حمل معاني أكبر من الكلمات.

ثم قال جوليان بتشكك، وهو يحدق بنواه بعينين مشحونتين بالريبة:

"من ذلك الرجل الذي كنت تتحدث معه؟"

ابتسم نواه ابتسامة خفيفة، ثم أجاب بهدوء متحكم:

"مجرد شخص من الماضي، لا شأن لك به."

لكن جوليان لم يكتفِ بهذا الرد، اقترب قليلاً، وخفض صوته بحدة:

"لا تحاول أن تخفي شيئًا. أعلم أن الأمور أعقد مما تبدو عليه."

وقف نواه ساكنًا للحظة، ثم قال بنبرة جادة:

"قد يكون الأمر كذلك، لكن عليك أن تثق بي قليلاً."

نظر جوليان إليه لبرهة، ثم هز رأسه ببطء، وكأنّ الصداقة بينهما تحمل في طياتها الكثير من الغموض والشكوك التي لم تُحل بعد.

في الساعة الثانية صباحًا، خرج ليام من منزله كمن يسير في طقس طقسيٍّ خاص، وكأن جسده نفسه يحمل طقوس الموت. الشوارع فارغة إلا من أنفاس الليل الباردة، وأضواء المصابيح الخافتة التي ترسم ظلالًا متكسرة على الأرصفة المبللة بندى الخوف. لا أحد يجرؤ على الخروج في هذا الوقت، الجميع يعلم أن قاتلًا طليق... لكنه وحده يعرف أنه "ظل ريفنشيد" نفسه.

كان يتحرك بخفة قاتلٍ محترف، لا صوت لخطاه، لا رجفة في أنفاسه، ولا تردد في عينيه. لا يحمل مسدسًا، فهو لا يحتاج إلى ضجيج الرصاص؛ أدواته أهدأ، أبطأ، وأكثر رعبًا... سكين حاد، ملفوف بقطعة قماش سوداء، وكأنها جزء من جلده، وجهاز صغير للصعق، مخبّأ في كمّه كأنما هو امتداد لنبضه.

تسلل بين الأزقة الضيقة، يعرف طريقه كأنه حفِظها من ذاكرة قديمة. عيناه تراقبان النوافذ، أبواب الطوارئ، الكاميرات المعطلة عمدًا... كان هدفه هذه الليلة شرطيًا. واحد من الذين ساهموا يومًا في دفن الحقيقة، واحد ممن سمعوا صراخ "إيثان فوس" ولم يحركوا ساكنًا.

وحين اقترب من الزاوية التي يعرف أن الهدف سيخرج منها، توقف. أسند ظهره للحائط، أخذ نفسًا طويلًا، لا ليستعد... بل ليهدأ. فالقَتل، بالنسبة له، لم يعد فعلًا يستحق التوتر، بل طقسًا مقدسًا.

ثم ظهر الهدف، متثاقلًا، منهكًا من مناوبة ليلية. لم يكن يعرف أنه يخطو في اللحظة الأخيرة من حياته.

انقضّ عليه ليام كالشبح. قبضة على الفم، الأخرى على الرقبة، صعقة كهربائية خفيفة أربكته، ثم طعنة... لا في القلب، بل في الحنجرة، حيث تصمت الكلمات قبل أن تولد. عيونه اتسعت، حاول أن يتكلم، لكن ليام همس في أذنه:

"الصمت فضيلة... خاصة في الموت."

سقط الجسد بصمت، تمامًا كما أتى ليام. ثم جلس بهدوء، وأخرج شفرة صغيرة، وبدأ ينحت رسالة جديدة في جسد الضحية — توقيعه، ختمه، لعنته.

وتركه هناك، كشاهدٍ جديد، يضيف حلقة أخرى في سلسلة الرعب... التي ما زالت في بدايتها.

في صباح اليوم التالي، اهتزت المدينة من جديد. العناوين العريضة تصدّرت الصحف، والنشرات الإخبارية تقاطعت بين الذعر والتحقيق:

"جثة جديدة في بحيرة ريفنشيد – الرأس مغمور في الماء، والجسد مستلقٍ على اليابسة"

تجمهر الناس خلف الشريط الأصفر، على ضفاف البحيرة التي كانت بالأمس هادئة كقلب أم، واليوم صارت كأنها قبر مفتوح. رجال الشرطة يحيطون بالموقع، وبعضهم يتقيأ بعيدًا عن الأنظار، فالمشهد لم يكن اعتياديًا.

الرجل الميت كان أحد أفراد الشرطة، معروفًا بينهم، لكن ليس محبوبًا. وجهه لم يظهر، فقد غُمر تمامًا في المياه الضحلة، كأن قاتله أراد أن يُغرق صوت ضميره، لا أن يقتله فقط. الجسد كان مستلقيًا على اليابسة، بذراعيه الممتدتين إلى الجانبين، كأن الموت اختاره وضعية صلبٍ مهينة.

كان على عنقه جرح حاد، نظيف، لا يشبه فوضى الرصاص أو شراسة العراك. وفوق قميصه، نُحتت بخط حاد كلمتين فقط، بالكاد تُقرأ، لكنها كانت كافية لإشعال العاصفة:

"صمتك شراكة."

التحقيقات بدأت فورًا، لكن القلوب بدأت تهتز قبلها. فالقاتل لم يكتفِ بالقتل، بل صار يُعلن رسائله، يُهين ضحاياه، ويحرّض المدينة بأكملها على أن تتذكر ما حاولت نسيانه.

المحقق ريتشارد كرين حضر بنفسه، عابسًا أكثر من أي وقت مضى. كان يعرف... أن هذا التوقيع ليس مجرد تهديد. بل وعد.

وفي تمام التاسعة صباحًا، قُطع بث الأخبار العادية، وظهر على الشاشة وجه رئيس الدولة ذاته. لم يكن ظهوره مخططًا، ولا معتادًا، مما أضفى على اللحظة ثقلًا غير مألوف. بدا غاضبًا، مشدود الملامح، يكاد الغضب يتفجّر من عينيه وهو يحدق مباشرة في الكاميرا. صمت لحظة، ثم قال بصوت جهوري، ووجهه لا يطرف:

"أيها الظل... نعم، أنت!"
شدّ قبضته فوق المنضدة أمامه، ثم تابع:

"أتظنّ نفسك رائعًا؟ قاتلًا خارقًا؟ بطلاً يصفّق له الناس في الخفاء؟ ما شعورك... وأنت تقتل الأبرياء الذين لا ذنب لهم سوى أنهم مرّوا بطريقك؟"

ازدادت نبرته حدة، وارتفع صوته:

"لكنّك في الحقيقة... جبان. خائف من أن تخرج للنور. تخشى أن تُعرف. تختبئ خلف القناع، خلف الأرقام، خلف الدم!"

صمت لوهلة، ثم قال بنبرة أخيرة تحمل الوعيد:

"ستُكشف. وسنفضحك. ولن تبقى ريفنشيد رهينة ظلك إلى الأبد."

ثم انطفأ البث. لم يكن الناس يعلمون هل عليهم أن يصدقوا ذلك الأمل المتكسر في كلماته... أم يستعدوا لليلة جديدة من الرعب.

وفي زاويةٍ هادئة من حديقة الجامعة، جلست إليورا وحدها، والهاتف بين يديها لا يزال يعرض اللقطة الأخيرة من خطاب رئيس الدولة. خيّم الصمت على المكان، ولم يكن في الجوار سوى همسات الريح، وأصوات متقطعة لأوراق الأشجار المتراقصة فوق العشب.

كان البث قد انقطع، لكن الكلمات ظلت عالقة في أذنها، كأنها لم تخرج بعد من فم الرئيس:

"أيها الظل... نعم، أنت!"

ترددت صداها في رأسها أكثر من مرة، واستعاد عقلها التفاصيل: نبرة التحدي، الغضب الكامن خلف كل حرف، والتهديد الواضح كأن الحرب قد أُعلنت للتو.

حدّقت في الشاشة الصغيرة بين يديها، ثم همست:

"الظل..."

طرفت عيناها، ولم تكن تعرف هل ترتجف من الخوف، أم من الفضول.

لم تكن تعرف من يكون. لم تعرف حتى إن كان واحدًا من المجرمين الذين تدرّبَت على تحليلاتهم في دراستها... أم أنه شيء مختلف تمامًا. قاتل له فلسفة، صمت، وقناع من نار.

هزّت رأسها لتطرد هذا التفكير، ثم أغلقت الهاتف ووضعته في حقيبتها، لكن شيئًا ما لم يغادر صدرها. شعور بأن الكلمات لم تكن موجّهة للقاتل فقط... بل للمدينة كلها، ولها شخصيًا، كطالبة في علم الجريمة... وكشخص يبحث عن إجابات.

رفعت نظرها نحو السماء الرمادية، وقالت لنفسها:

"إن كنتَ موجودًا فعلًا يا ظلّ... فسأجدك. عاجلًا أم آجلًا."

ثم مشت بين الأشجار، وعقلها مشغول بأكثر من سؤال... وأكثر من وجه.

ثم انطلقت ضحكة خفيفة في الهواء، تلاها صوت مألوف يخترق أفكار إليورا المشوشة:

"إليورا، مرحبًا!"

كان صوت سيليست، يملأ المكان بحيويته المعتادة. ظهرت من خلف شجرة، ترتدي معطفًا واسعًا بألوان غير متناسقة كعادتها، شعرها البني المخلوط بخصل الأشقر يتطاير مع النسيم، وعيناها الرماديتان تلمعان بسخرية مرحة.

اقتربت منها بخطوات سريعة، وفتحت ذراعيها كأنها على وشك احتضانها، ثم تراجعت فجأة وقالت بتهكم:

"كنتِ تحدّقين في السماء كأنك تنتظرين وحيًا ينزل عليكِ. لا تخبريني أنكِ بدأتِ تصدقين خطاب الرئيس؟"

رفعت إليورا حاجبها وقالت بابتسامة باهتة:
"سيليست... أحيانًا أشعر أن العالم أصبح مسرحًا كبيرًا، ونحن مجرد ممثلين نرتجل أدوارًا لا نفهمها."

قهقهت سيليست بخفة، ثم أشارت لها بيدها كي تتحركا معًا:
"تعالي إذًا، لنُخرِجكِ من هذا المشهد الكئيب. لدي قهوة ساخنة، ونظريات مجنونة عن هذا القاتل الذي يسمّونه الظل."

وتحركتا بين الأشجار، وخلفهما كانت المدينة تخفي تحت جلدها أسرارًا لا تعرف الرحمة.

في المدينة، كان فيكتور سانتوس جالسًا في سيارته السوداء الفخمة، عيناه الثاقبتان تتابعان المشهد البائس الذي تخلّفه أخبار ظل ريفنشيد على شاشات المدينة المتناثرة في كل زاوية. بجانبه، يقود مساعده ماركوس فيغا السيارة بثبات وجدية، غير أن فيكتور لم يبادر بنظرة إلى الطريق، بل كان همه منصبًا على حديثه مع ماركوس.

قال فيكتور بصوت منخفض وحازم، يختزن غضبًا متكتّمًا:

"ماركوس، لا وقت للانشغال بأخبار السوق. ظل ريفنشيد... هذا الاسم سينهش من جسدنا، لكنه لن يقتلنا."

نظرت عين ماركوس إليه بتفهم، وأومأ قائلاً:

"سيدي، لدينا خطط للسيطرة على المدينة، ولن ندع شبحًا غامضًا يعكر صفو مملكتنا."

ابتسم فيكتور بابتسامة لا تخلو من مرارة، وأضاف:

"هذا الظل ليس سوى بداية لعبة. نحن من نتحكم باللعبة، وكل من يعترض طريقنا سيرى عواقب تمرده."

هنا، استدارت السيارة مع خفة إلى طريق مظلم، وكأن المدينة بأسرها تنتظر العاصفة القادمة.

كان ليام يمشي بخطى مترددة لكنها مليئة بالثقة، عبر الشارع الخالي من المارة، حيث كانت الأضواء الصفراء لمصابيح الشوارع تنثر ظلالًا طويلة على الأرصفة المتشققة. فجأة، لفت انتباهه وجود سيارة سوداء لامعة، فخمة للغاية، متوقفة بهدوء على بعد أمتار قليلة منه، عاكسة أضواء المدينة المتلألئة على سطحها المظلم.

خرج من السيارة رجل طويل القامة، مهيب الهيئة، يرتدي بدلة داكنة بقصة أنيقة تُظهر هيبته وقوته. وجهه بدا مألوفًا لليام، لكنه لم يستطع تذكر اسمه أو حتى اللحظة التي رآه فيها سابقًا. كانت ملامحه صلبة، عيونه تحمل بريقًا حادًا لا يمكن تجاهله، وكأنها تخفي وراءها أسرارًا ثقيلة ومعاركَ لم تُحكى.

وقف الرجل للحظة يتلفت حوله، لا يبدو وكأنه ينتبه إلى وجود ليام، بل كان غارقًا في أفكاره، أو ربما يراقب تحركات المدينة من حوله. ليام توقف في الظل، متحسّبًا، ولكن مع ذلك يشعر بأن هذه اللحظة تحمل شيئًا أكثر عمقًا من مجرد لقاء عابر. كان هناك شيء ما يشدّه إلى هذا الرجل، شيئًا في جوهره يجعل قلبه ينبض أسرع، ورغم الحذر، لم يستطع أن يحيد نظره عنه.

ثم فجأة، ومع لمحة خاطفة لكنها كافية لتشعل النار في قلبه، لمعت ندبة غائرة على جانب وجه الرجل الذي وقف أمامه. لم تكن مجرد علامة عادية، بل كانت مثل سهم مسموم اخترق ذاكرته، فأيقظ عاصفة من الألم والذكريات المكبوتة.

صُعق ليام، كأن البرق ضربه في منتصف صدره فجأة، وتجمد الزمن حوله للحظة طويلة، حتى الهواء بدا ثقيلاً لا يتحرك. انفجرت في رأسه صور والده إيثان وهو يقاتل بلا حول ولا قوة، ذلك اليوم الدامي الذي تحولت فيه حياته إلى جحيم لا ينتهي. ذلك الرجل، وجهه ظل مخيف ارتسم في ذاكرته، كان جزءًا من تلك اللحظة السوداء التي غرقت فيها دماء والده، وكان السبب المباشر في تدمير عائلته.

تسارعت أنفاس ليام، وبدأ قلبه يدق بقوة كطبول الحرب التي تعلن عن انتقام وشيك. لم يعد ذلك المارة العادي في الشارع، بل صار الآن عدوًا قديمًا يلوح في الأفق، ظلاً قاتمًا من ماضيه المرير. كانت اللحظة كالبركان الذي يستعد للانفجار، وتلك الندبة لم تكن مجرد أثر على وجه، بل كانت جرحًا غائرًا في روحه، يغذي نار الانتقام التي ستُشعلها يدا ليام بلا رحمة.

قبض ليام على يده هو، بإحكام لا يرحم، كأنها قبضته الأخيرة التي لن يفرّط بها أبدًا. أظافره غرست في الجلد بقسوة، والدماء بدأت تنساب ببطء، تتلوّن الأصابع بحمرة قاتمة، كل قطرة تنطق بالغضب المكبوت الذي تأجج في صدره طوال سنوات. عيناه تحولت إلى لهبٍ أحمر، مشحون بالغضب والحقد، وكأنها شرارات نار تشتعل من داخل جمره الحارق.

نظر إلى فيكتور الذي كان بعيدًا، واقفًا على بعد خطوات، يتباهى بنفوذه وسلطته، غارقًا في أجواء المدينة القاتمة. نظرات ليام لم تكن مجرد تحدٍ عادي، بل كانت سكاكين من الألم والانتقام تخترق صمت الليل، ترسل رسائل قاتلة لم تسمعها إلا روحه، تهدد كل من وقف في وجهه يومًا، وكل من شارك في دم والده البريء.

استدار فيكتور مع مساعده ماركوس فيغا، واستقلوا السيارة التي انطلقت وسط صخب المدينة كأنها قارب في محيط من العواصف.

وراءهم، بقي ليام واقفًا، يراقبهم بصمت قاتل، قلبه ينبض كطبول الحرب، وأحلامه المظلمة ترتسم في الأفق كظلال طويلة، تحمل معها وعدًا بالدم والانتقام الذي لا هوادة فيه.

... في غرفة التحقيق، كان ريتشارد كرين يجلس خلف مكتبه الخشبي الضخم، يحيط به كومة من الملفات والصور والملاحظات المتناثرة. عينيه الحادتان ترصدان كل تفصيل، يربط بين الخيوط المبعثرة واحدة تلو الأخرى، كما لو كان يعزف سيمفونية من الأدلة التي قد تقود إلى كشف الحقيقة.

كان يتحرك ببطء متأنٍ، يكتب ملاحظات بحبر أسود على دفاتره، يراجع الفيديوهات، يستجوب الشهود عبر الهاتف، يطلب التقارير الطبية والجنائية. كل خطوة يقوم بها، تُظهر مدى إصراره على الوصول إلى حقيقة القضية مهما تكالبت عليه الضغوط والتحديات.

رغم التعب الذي يكسو وجهه، ظل يكرس نفسه للعمل، كأنه يعرف أن مصير المدينة يعتمد على نجاحه في حل لغز "ظل ريفنشيد"، ذلك القاتل الغامض الذي يلقي الرعب في النفوس، ويشعل نار الانتقام في قلوب الجميع. كانت عيناه تحملان مزيجًا من الإرهاق والغضب والقلق، بينما يستمر في البحث دون توقف، وكأنه يقاتل وحشًا في الظلام بأدواته الوحيدة: العقل، والإرادة، والإصرار.

أمامه لوحة بيضاء كبيرة مغطاة بأسماء وأرقام مكتوبة بحبر أسود. يداه تمسكان بقلم جاف، وعيناه لا تفارقان الأسماء التي دوّنها على اللوحة، بينما يكرر بصوت منخفض: "اثنان وثلاثون... ثلاث وثلاثون... ستة وثلاثون."

يقف للحظة، يتنهد بعمق، ثم يمد يده ببطء ليضع علامة كبيرة حمراء بجانب الرقم 36. كان هذا عدد الضحايا الذين قُتلوا على يد "ظل ريفنشيد"، ذلك القاتل الغامض الذي تحوّل إلى كابوس المدينة، ومصدر خوف الجميع.

صوت القلم على اللوح يملأ المكان بصدى موحش، كأنه يعد على أنفاسه الأخيرة للمدينة التي تمزقها جراح الخوف والانتقام. عيناه تعكسان مزيجًا من الإرهاق والغضب، ووجهه لا يخفي عمق الحيرة التي تلتهمه: كيف يمكن لهذا الرقم أن يكون مجرد بداية؟!

في الصباح، خرجت إليورا من بيتها متجهة إلى الجامعة، تخطو بحذر بين زحام الناس وصخب المدينة الصاخب، وهي تشعر ببرودة خفيفة تخترق ألوان الصباح الرمادية. كانت تمشي على الرصيف المبلل قليلاً بنسمات الندى التي لم تجف بعد، تفكر في المحاضرات القادمة وخططها البسيطة لهذا اليوم، دون أن تدري أن المصير على وشك أن يقلب عالمها رأسًا على عقب.

بينما كانت تسير بخطى ثابتة، لاحظت حركة غير طبيعية على جانب الطريق، شيء ما استوقفها فجأة وكأن عقلاً غير مرئيّ أشار لها بالتوقف. هناك، في زاوية مظللة قليلاً من الشارع، كان جسد فتاة ملقى بلا حياة. لم يكن مجرد جسد عادي، بل كانت رأسها موضوعة على الأرض بجانبها، كأنها مفصولة لكن الدم لم يفصلها تمامًا، كانت الجثة تغطيها بقع من الدماء التي تسربت من جرح عميق وعنيف في الرقبة.

تجمّد الزمن حول إليورا، فغاص قلبها في دوامة من الرعب والدهشة، عيناها اتسعتا كأنهما تحاولان استيعاب المشهد المروع، لكن الرعب تجاوز قدرتها على التحمل. تسللت إليها رعشة شديدة، وسقطت يداها بجانبها كأنها فقدت القدرة على السيطرة على نفسها. ثم انفجرت صرختها الحادة التي ارتفعت كنداء يستغيث بالهواء، تصدّع الصمت المخيف الذي أحاط بالمكان.

ابتعدت إليورا خطوات قليلة إلى الوراء، تحاول أن تتخلص من ذلك المشهد الذي يحاصرها.

تدفق الناس من كل حدب وصوب، سحابة من الفضول والهلع تتجمع حول جثة الفتاة الممزقة. أصوات الهمسات تحولت إلى صرخات، والوجوه المغمورة بالخوف اختلطت بوجوه حائرة لا تعرف ماذا تفعل. كل شخص يحمل في عينيه مزيجًا من الرعب والغضب والفضول، وكأن المدينة كلها توقفت لتشهد لحظة سقوطٍ جديدة من الظلام.

كان الأطفال يختبئون خلف ظهور أمهاتهم، والرجال يتبادلون النظرات الحذرة، والنساء يحاولن كبح دموعهن، بينما الشرطيّات والشرطة وصلوا بسرعة، يطوقون المكان بحواجز معدنية ويحاولون السيطرة على الزحام، لكن الرعب كان أكبر من أن يقتصر على حدود الشوارع.

وصل ريتشارد كرين إلى موقع الجثة بخطوات متثاقلة، وجهه صارمٌ كأنه يحمل على عاتقه ثقل المدينة كلها. نظر حوله بعينين حادتين، تفتّش عن أي علامة تدل على القاتل أو تفسر هذه الفاجعة الجديدة. وقف قرب الحشد المتجمع، ورفع يده بهدوء ليطلب الصمت، لكن لم يكن هناك من يصغي سوى خوفهم المرتعش.

كانت يداه مرتعشتين قليلاً من شدة الضغط، لكنه حاول إخفاء ذلك خلف ربطة عنقه المحكمة. أخرج دفتر ملاحظاته وبدأ يدون التفاصيل، يحلل كل شيء: موقع الجثة، وضع الرأس، علامات الدم، وحتى ردود فعل الحاضرين.

كان يعلم أن هذه الجريمة ليست سوى قطعة جديدة من لغز كبير، وأن كل دقيقة تأخير تعني حياة أخرى تُزهق، لكن ريتشارد كان مصرًا على أن يُوقف هذا الظل، مهما كلفه الثمن.

ثم فجأة لاحظ ريتشارد شيئًا غريبًا، لم يكن جزءًا من اللغز المعتاد؛ أصبع واحد فقط من يد الضحية مفقود، مقطوع بلا أي أثر يوضح مكانه.

توقف للحظة، عينه تحترق بحدة التركيز، فكان هذا التفصيل الصغير كأنه صرخة صامتة في وجهه، رسالة غامضة تركها القاتل عمدًا ليوقظ فضوله أو ليشوه الحقيقة.

الدم لم يكن موجودًا حول منطقة القطع، ولا علامة عن نزيف جديد، وكأن القطع تم بدقة شديدة أو أن الأصبع قد نُقل بعيدًا.

هنا أدرك ريتشارد أن القاتل لا يترك شيئًا للصدفة، وأن هذا التفصيل يحمل في طياته رمزية قد تكون مفتاحًا مهمًا لحل اللغز الذي طالما حاول كسره.

في الوقت نفسه، بعيدًا عن موقع الجريمة، كان ليام يجلس في زواية معتمة من غرفته، يحدق في الأصبع المقطوع الذي يحتفظ به كقطعة ثمينة من الفوضى التي صنعها.

كان الأصبع يرمق الضوء الخافت المنبعث من النافذة، كأنه يهمس بقصة ما لا يريد أن تُروى، وكأن ليام يرسل رسالة صامتة للعالم:
"إذا وجدتم هذا الأصبع بين أيدي أحد، فاعلموا أن القاتل قد يكون أقرب مما تتصورون."

كانت عيناه تلمعان ببرود وجنون، وكأنه يتلاعب بالنار بيديه، يعلم أن هذا الدليل قد يرسم له طريقًا مباشرًا إلى السقوط أو الانتصار. ولكن في تلك اللحظة، لم يكن ليام مجرد قاتل، بل كان سيد لعبة الغموض والانتقام، يبتسم في وجه الظلام الذي أحاط به.

ثم همس ليام بصوت خافت وبارد، كأنه يتحدث إلى نفسه :
"التالي هو ذلك الغبي ذو الندبة..."

كانت الكلمات تنساب من شفتيه وكأنها تهديد مكتوم، غليان غاضب يختلج في صدره، وخطة الانتقام التي بدأ يرسم معالمها بخطى بطيئة وثابتة بدأت تتجلى في ذهنه بلا رحمة.

في مقر الشرطة، وقف كايل بجانب مكتبه الخشبي العتيق، الهاتف ملتصق بأذنه وكلماته تخرج بهدوء متأنٍ خالٍ من أي استعجال أو توتر، رغم أن الغرفة تعج بأصوات الزملاء الذين ينهمكون في أعمالهم المعتادة. كل ضجيج من حوله بدا كأنه خلفية بعيدة لا تعبأ بها روحه المنشغلة.

قال بصوت منخفض، متعمقًا في كل كلمة:
"وماذا قال نواه؟"

أجاب مايكل، صوته الجاف الخالي من أي أثر قلق أو تردد، كما لو أنه ينقل خبراً عادياً:
"سأل عنك. قال: 'أين كايل؟' يبدو أنه يريد لقائك."

توقف كايل للحظة، كأن تلك الكلمات الثقيلة سقطت كحجر غريب داخل صدره، يجعل أنفاسه تخف وتسرع في آنٍ واحد. مد يده ببطء إلى سطح المكتب، وأخذ يتلاعب بنظارة كانت ملقاة أمامه، يدوّرها بين أصابعه وكأنها المفتاح الذي قد يفتح بابًا مغلقًا أمامه. كانت حركات يده تعبيرًا عن صراعه الداخلي مع مشاعر متداخلة: انتظار، قلق، وأمل دفين.

ثم، بهدوء أشد من السابق، وكأنه يخاطب نفسه قبل أن يخاطب العالم، قال:
"وأخيرًا... بعد ثمانية عشر عامًا من الغياب والفراق."

سكت للحظة طويلة، ملأ الصمت بها، قبل أن يلتقط أنفاسه ببطء ويكمل بنبرة أكثر تأنياً، وكأن كل كلمة تُوزن وتُعطي ثقلها الخاص:
"سأذهب إليه... لكن يجب أن أكون مستعدًا تمامًا. نواه لا يبوح إلا حين يتأكد أن ما لديه لا يحتمل التأجيل."

أنهى المكالمة بهدوء، وأعاد الهاتف إلى السماعة كأنه يودع جزءًا من عبء ثقيل، ثم أغلق عينيه للحظة قصيرة، يغمضهما وكأنها محاولة لاستجماع قواه، تحضير نفسه لما ينتظره من لقاء قد يغير مجرى حياته إلى الأبد.

في المساء، عاد كايل إلى المنزل بعد يوم طويل من العمل، خطواته ثقيلة وصوته الداخلي لا يهدأ، يحاول أن يطرد أفكارًا تتراكم كالغبار فوق صدره. كان الجو ساكنًا، والشارع لا ينبض إلا بهدوء خافت يليق بمدينة بدأت تنام على قلق.

وقبل أن يمد يده لمقبض الباب، سمع صوتًا مألوفًا خلفه، منخفضًا، لكنه مميز لا يُخطئه قلبه مهما تقادمت الأيام.
قال ليام، واقفًا خلفه والظل يكسو ملامحه:
"هل لديك معلومات عن رجل لديه ندبة على وجهه، ضخم البنية، ويبدو أنه رجل ذو شأن رفيع؟"

توقف كايل عند الباب، يده لا تزال على المقبض، لكنه لم يفتحه. التفت إليه بنصف جسده، وصوته خرج هادئًا، محايدًا كمن لا يريد أن يكشف أكثر مما ينبغي:
"لماذا تسأل؟"

هز ليام كتفيه بخفة، وكأن الأمر عابر، وقال بنبرة خالية من الاهتمام الظاهري:
"هكذا فقط... ولأنك شرطي، ربما مرّ عليك مواصفات كهذه."

صمت كايل لوهلة، يراقب تعابير أخيه، يحاول أن يقرأ ما خلف العيون الرمادية التي لم تعد تنتمي لصبي عرفه يومًا. ثم قال بتأنٍ، وعيناه تنزلقان بعيدًا عن نظرة ليام:
"هناك كثير من الرجال بهذا الشكل. الندوب والأكتاف العريضة لا تميز أحدًا. لا يخطر ببالي أحد محدد، برأيك، كيف يمكن أن أضيق الدائرة؟"

لم يجب ليام مباشرة، فقط اكتفى بابتسامة باهتة ظهرت على طرف شفتيه، كأنّه استلم الجواب الذي أراد سماعه، أو ربما كان يتوقعه سلفًا.

بقي الاثنان لحظة واقفين أمام الباب، صمت بينهما أثقل من الكلمات، يحمل كل ما لم يُقال، وما لن يُقال قريبًا.

ثم قال ليام، وقد بدا صوته خاليًا من أي شعور بالحرج أو التردد:
"يمكنك إعطائي معلومات كل هؤلاء الرجال من خلال ملفات المعلومات الخاصة بك."

توقف كايل للحظة، نظر إليه طويلًا بعينين لا تخلو من التوتر المكبوت، ثم قال بنبرة خافتة لكنها مشدودة:
"تدرك ما تطلبه، أليس كذلك؟ هذه ملفات رسمية، تخصّ الشرطة، وليست فهرسًا خاصًا بك لتفتح وتغلق كما تشاء."

اقترب ليام خطوة، عيناه معلّقتان بأخيه، وقال بصوت أشبه بالهمس:
"أعرف. لكنني لا أطلبها عبثًا... هناك شيء في الأمر، شيء يجعلني واثقًا أن إحدى تلك الملفات ستقودني إليه."

أشاح كايل بنظره، تنهد ببطء وهو يُمرّر يده في شعره، ثم قال دون أن يلتفت:
"لن يكون الأمر سهلًا. هناك مئات من ذوي البنية الضخمة والندبات، وأكثرهم ذوو سلطة أو سجل غير نظيف. هل لديك شيء أدق من ذلك؟ اسم؟ مكان؟ حتى وشم صغير؟"

رد ليام بهدوء متعمّد:
"أملك شيئًا واحدًا فقط... عيناه. لا تُنسى."

ثم قال كايل، وقد ارتسمت على وجهه نظرة حذرة متوازنة بين الأخوّة والواجب:
"لا أستطيع إعطائك الملفات، ليس لأنني لا أريد... بل لأنني ببساطة لا أستطيع."

صمت للحظة، قبل أن يضيف بنبرة أكثر ليونة:
"لكن يمكنني أن أمدك ببعض المعلومات الإلكترونية... مقتطفات، ملاحظات، ما يُكتب على الهامش ولا يُوثّق في السجلات. شيء لا يثير الشبهات، ولا يترك أثراً عليّ."

نظر إليه ليام مطولًا، وشيء من الاحترام غير المعلن عبر عن نفسه في عينيه. لم يقل شكراً، ولم يبتسم. فقط اكتفى بهزة صغيرة من رأسه، كأنها تعني: "هذا يكفي."

قال كايل أخيرًا وهو يدير مقبض الباب:
"سأرسلها لك الليلة. كن حذرًا، ليام... فالأسماء التي ستقرأها ليست عادية. وإذا كنت تبحث في الظل، فهناك من يراك بوضوح أكثر مما تظن."

ثم رفع ليام حاجبيه قليلًا، وأجاب بصوته الهادئ المعتاد، لكن نبرته كانت تحمل شيئًا غامضًا في طيّاتها:
"الليلة... لا أظن أنني متفرغ."

توقّف لحظة، كأنه يزن كلماته قبل أن يكمل بنبرة أكثر حسمًا:
"لدي بعض الترتيبات... أشياء يجب أن تتم في الظلام قبل أن يستيقظ الصباح."

نظر إليه كايل مطولًا، ولم ينبس بكلمة. لم يسأل، ولم يعلّق. فقط اكتفى بنظرة ثابتة، ثم فتح باب المنزل ودخل دون أن يلتفت وراءه.

أما ليام، فظل واقفًا أمام العتبة للحظة، يحدق في الفراغ الذي خلّفه الباب المغلق، ثم ابتسم ابتسامة بالكاد تُرى.

في الساعة الخامسة مساءً، كانت أشعة الشمس المتبقية تنسلّ من خلف الستائر نصف المسدلة، تصبغ الغرفة بلون ذهبي خافت، وتكاد تجعل الهواء ساكنًا كأنه يراقب بصمت.

جلس ليام بجانب كايل على الأريكة، واضعًا ساقًا فوق الأخرى، ويداه متشابكتان على ركبته، ملامحه هادئة لكن عينيه كانتا تلتهمان الشاشة المقابلة لهما بشغف خفي. أما كايل، فكان يمسك بالحاسوب المحمول، يتنقّل بين الصور والملفات، يفتح تقريرًا تلو الآخر.

قال كايل بنبرة عملية:
"هذا اسمه آرثر دين، رجل أعمال معروف، خدم في الجيش سابقًا... لكن لا سجلات جنائية."

مرّر الصورة، فظهرت ملامح رجل آخر على الشاشة، ندبة واضحة تعبر خده الأيسر.
"وهذا... يدعى ريك هارتمان، كان عضوًا في أحد الأحزاب القوية، الآن متقاعد ويعيش في الضواحي."

ليام أمال رأسه قليلًا، وعيناه تتابع كل صورة، كل كلمة، وكأنه يحاول تفكيك كل وجه ليرى ما خلفه.

قال كايل دون أن ينظر إليه:
"أغلبهم رجال نظيفو السجل، على الأقل على الورق... هل أحدهم يبدو مألوفًا؟"

ليام لم يجب فورًا. اكتفى بالصمت، ثم قال أخيرًا بصوت بطيء:
"ليس بعد... لكن أحد هذه الوجوه سيتكلم. ولو بصمته."

استمر العرض، والوقت يتآكل ببطء، والظلال في الغرفة تكبر شيئًا فشيئًا.

ثم فجأة، توقّف كايل عند صورة رجل ما، ظهر على الشاشة رجل خمسيني، ضخم البنية، ذو ملامح قاسية وندبة بارزة تقطع خده الأيسر. لم يكن كايل يقصد شيئًا بعرضه، فقط كان يتنقّل بين الملفات باهتمام شرطي بحت، يبحث عن أي شخص يطابق المواصفات التي ذكرها ليام.

لكن ليام، ما إن وقعت عيناه على تلك الصورة... حتى تجمّد في مكانه.

اقترب من الشاشة، وحدّق فيها بتركيز صامت. لم يتكلم في البداية، فقط زمّ شفتيه وتقلصت عضلات وجهه. ثم، بصوت خافت لكنه حاد كالسكين، قال:

"توقّف. هذا هو."

نظر كايل إليه ببطء، بعينين مليئتين بالاستفهام، ثم أعاد النظر إلى الصورة:
"هذا؟ فيكتور سانتوس؟ تعرفه؟"

أجاب ليام دون أن يحوّل بصره عن الشاشة:
"لا أنساه... رأيته هناك. في تلك الليلة. لم أكن أعلم اسمه، لكن هذا وجهه. الندبة... الطريقة التي ينظر بها، كأنها محفورة في ذاكرتي."

سكت كايل للحظة، ثم أدار وجهه نحو ليام وقال بنبرة أخف مما اعتاد:
"فيكتور سانتوس... هذا اسم ثقيل في ريفنشيد. لو كنت تنوي التقرّب منه... فأنت تقترب من النار يا ليام."

رد ليام دون أن يرمش:
"أنا لا أتقرّب. أنا أضيّق الخناق."

ثم انزلق صوت ليام، منخفضًا لكنه مشحون بضيقٍ خفي، وكأن الكلمات تُسحب من بين أسنانه:

"أين يسكن؟ ما هي نقاط ضعفه؟ متى يخرج؟ متى يعود؟ متى ينام... ومتى يستيقظ؟"

أدار كايل وجهه نحوه ببطء، وعيناه تحدقان بثبات، دون أن يعلق على النبرة المتوترة التي حملها السؤال. لحظة صمت ثقيلة مرّت بينهما، ثم قال بهدوء أشبه بالتحذير:

"أنت لا تسأل أسئلة عابرة، ليام... هذه أسئلة رجل ينوي أن يفعل شيئًا لا رجعة فيه."

لم يرد ليام، بل ظل محدقًا في الشاشة، وكأنها نافذة تطلّ على ماضيه. وعندما طال الصمت، تابع كايل، بصوت أخفض، أقرب للهمس:

"هو زعيم مافيا وهو يسكن في حي 'هيلكراست'، في قصر محاط بكاميرات وحرّاس، أما نقاط ضعفه... فهي ليست جسدية، بل بشرية."

نظر إليه ليام أخيرًا، بعينين جامدتين.

أكمل كايل بنبرة أبطأ:
"ابنه. جوليان. هو ثغرة في سور منيع، لكن الاقتراب من أي منهما، ليام... لن يمرّ دون دم."

رد ليام بصوت خافت:
"الدم ليس مشكلة... إن كان ثمنًا للحقيقة."

ثم ارتسمت على وجه ليام نظرة جامدة، عاقدًا حاجبيه بقسوة، وألقى بنظره الحاد على كايل وقال بصوت منخفض وحازم:

"أريد معلومات عن ابنه."

تردد كايل للحظة، وكأن الكلمات التي طلبها ليام تثقل على صدره، لكنه أجاب بهدوء متزن:

"جوليان سانتوس... شاب في منتصف العشرينات، قوي البنية، متدرب في عالم والده، لكنه بعيد عن أجواء العنف أكثر مما تتصور. يعيش في الجانب الغربي من المدينة، بعيدًا عن أضواء الشوارع، لكنه ظل دائمًا هدفًا متحركًا في لعبة والده القذرة."

تابع كايل وهو يراقب تعابير وجه ليام:

"جوليان يحمل في عينيه ثقل الماضي، وغالبًا ما يشعر بالضياع بين رغبة والده في السيطرة وكره خاص بداخله تجاه ذلك العالم. نقاط ضعفه؟ ربما تلك المشاعر، أو العلاقات التي لا يعرف كيف يحميها."

توقف كايل للحظة، ثم أضاف:

"لكن مهما كان، الاقتراب منه لن يكون سهلاً، ليام."

ابتسم ليام ابتسامة خفيفة مليئة بالتحسر، ونظر إلى كايل بعينين تحملان ثقل سنوات من الألم والانتقام، وقال بصوت هادئ لكنه مشحون بالتحدي:

"لديك معلومات جيدة... تجعلني أشعر وكأنك تعيش معهم، تشاهد تفاصيل حياتهم خلف الستار... هذا ما أحتاجه بالضبط."

أدرك كايل في تلك اللحظة عمق رغبة ليام، لم تكن مجرد معلومات باردة، بل كانت خطة تنسج خيوطها في الظلام، ووشاية لا رجعة عنها في لعبة لا ترحم.

ثم استدار ليام ليحدق في النافذة، حيث بدأت أضواء المدينة تتلألأ، وكأن كل شعاع منها يحمل وعدًا بالانتقام الذي يزحف ببطء نحو هدفه.

عاد ليام ليقلب المعادلة في ذهن كايل، صوته امتزج فيه الجدية والضغط المتصاعد، كأنه يرمي حجرًا ثقيلًا في بركة راكدة، يحاول أن يوقظ ذاك الذي ربما يتعامى عن الحقيقة:

"ما علاقة ذلك المافيا بغابرييل؟"

أغمض عينيه للحظة، ثم فتحهما مجددًا بنظرة تحترق بنار الغضب والشك، وكأنما يريد أن يضغط على نقطة الألم في صدر كايل، يفرض عليه مواجهة الحقيقة المرة التي لا يريدها أن تظهر للنور.

استطرد ليام بصوت أكثر قتامة، يُرخي بظلاله على كل كلمة يقولها: "لقد شاهدت أشياء، سمعت أسرارًا، وشعرت بالخيانة تسري كسم بطيء داخل شرايين المدينة. غابرييل ليس مجرد زميل شرطة. هو العنكبوت الذي نسج شبكة الخيانة، والدماء التي ذُبحت على يديه لا يمكن تجاهلها."

نظر إلى كايل كأنه يبحث عن إجابة، عن حلف أو تحالف، أو حتى عن دافع يجعل هذه الخيانة منطقية. ثم أكمل بهدوء، وكأن الكلمات نفسها تزن ثقلًا على قلبه: "هل تعلم حقًا من هو غابرييل؟ ما الذي يختبئ خلف قناعه؟"

كانت كلماته تدق كطبول الحرب، تملأ الغرفة بصدى ثقيل من الغضب والانتقام، وكأن كل حرف يترجم عهدًا جديدًا، وعدًا بقتال لا نهاية له ضد الظلام الذي يلتهم مدينتهم من الداخل.

ثم اجابه كايل بغضبٍ متفجر، وكأن الكلمات خرجت من أعماق روحه المكبوتة:
"أعرفه جيدًا... ذلك الأحمق السافل الذي خان كل شيء وآثر مصلحته الشخصية على دماء الأبرياء. غابرييل ليس سوى دمية في يد المافيا، أداة رخيصة تُحرّكها الأجندات الخفية، وأنت تعرف جيدًا كيف تلتف شبكة الفساد حول هذه المدينة."

نظر كايل إلى ليام بعينين تحترقان بغضبٍ دفين، وصوته مفعمٌ بالاحتقان:
"هو الرجل الذي يغطي على فيكتور سانتوس، يُمسك الخيوط من خلف الستار، يجعل العصابات تمشي بحرية تحت ظل الشرطة. يتلقى الأوامر، ويوزع الحصص، ويقتل من دون أن يرفع عينه عن صورته النقية أمام زملائه وأهالي المدينة."

توقف للحظة، وكأن ثقل الكلام أثقل كاهله، ثم أكمل بصوتٍ منخفض ولكن حاد:
"غابرييل هو السبب في كل الدماء التي سالت، وفي كل جريمة تم التستر عليها. هو رجل الظل الذي يقتل العدل ببطء، ويغتال كل بارقة أمل في هذه المدينة."

تقدم ليام خطوة للأمام، ونظر بحدة في وجه كايل وقال:
"وهل تعتقد أن هذا الخائن سيتوقف هنا؟ هل تعتقد أن بإمكاننا السماح له بالاستمرار؟ لا، هذه معركة لا بد أن تُخاض حتى النهاية. غابرييل سيموت، أو تُقتل المدينة معه."

ثم أجاب كايل بصوت منخفض يحمل في طياته صراعًا داخليًا واضحًا:
"لكنني لا أريده أن يموت، يستحق أن يُسجن... فقط أن يُحاسب، لا أن يُقتل."

اتكأ ليام ببطء على الحائط خلفه، ورفع حاجبيه بنبرة هادئة تخفي استهزاءً مبطّنًا، قال ساخرًا:
"جبان."

تبادل كايل النظرات مع ليام، ثم رد ببرود لكنه صادق:
"تذكر جيدًا، أنت تشبه غابرييل أكثر مما تعترف به. كلاكما مجرمان... تختلفون فقط في نوع الجريمة التي ترتكبونها."

ثم همس ليام بغضب هادئ كأنه يزمجر بصمت، صوته منخفض لكنه محمّل بثقل الكراهية والاحتقان:
"الزم حدودك، لا تشبهني بذلك الأحمق."

حدق كايل فيه بعينيه الثاقبتين، وكأنما يريد أن يخترق قناع الغضب هذا الذي يرتديه ليام، ورسم على شفتيه ابتسامة ساخرة باردة، كأنها سهم مسموم، وقال بصوت منخفض، لكنه حاد ومليء بالتحدي:
"ومن تكون أنت حتى تأمرني؟ أنت الذي تخشى أن تعترف بأنك تشبهه أكثر مما تريد. أنك في الواقع لست ببعيد عنه، بل تقترب من أفعاله وأخطائه أكثر مما تعترف به لنفسك."

توقف ليام للحظة، لكن لم يرد، كان صامتًا كالصخرة التي لا تنكسر، كأن كلماته استقرت داخله وصمت غليان داخلي عميق. أما كايل فواصل حديثه بنبرة مملوءة بالتهكم والحدة:
"لا تعظ نفسك فوق طاقتها، لا تكن أعمى عن حقيقة أنك تشبهه في جوانب كثيرة، كلاكما مجرمان هنا، والفرق الوحيد بينكما هو توقيت ووزن جرمكم... هو يختار متى وكيف وأين. أما أنت بلا رحمة، ولا تعرف إلى أي مدى يمكن أن تصل لتبرير أفعالك."

نظر ليام إليه بحدة، محاولًا أن يرد، لكنه شعر بثقل الكلمات يثقل صدره، فانسحب بهدوء بعيدًا عن المواجهة المباشرة، لكنه لم يتراجع داخليًا، إذ ظل الجرح ينزف في صمت، وبدا أن المعركة الحقيقية في أعماق نفسه.

كايل استدار ببطء، وقال بنبرة خافتة لكنه محمّلة بمعانٍ لا تُمحى:
"الجرم ليس فقط في الأفعال، بل في ما تختار أن تبرره لنفسك... وهذا ما يجعلك تخاف أكثر من مواجهة نفسك.

بعد مرور أيام ثقيلة مُثقلة بالتحضير والصمت، جلس ليام في غرفة معتمة، يستجمع قواه ويخطط لهدفه بعقلٍ بارد ونظرةٍ حادة. لم يكن يحمل بين يديه مسدسًا أو سلاحًا ناريًا، بل سلاحه كان صبره وثقته في تفاصيل صغيرة يعرفها عن فيكتور سانتوس، الرجل الضخم والندبة التي تزين وجهه.

كان يخطط لكل خطوة بحذر، يراقب مواعيد فيكتور، عاداته، ونقاط ضعفه التي يمكن استغلالها دون لجوء للعنف المباشر أو الرماية. في ذهنه رسم مشاهد المواجهة، كيف سيفتك بالغطرسة والفساد بهدوء، بتكتيكات ذكية، وبخطوات مدروسة تضمن له التفوق دون أن يترك أثرًا يدينه.

في تلك اللحظات، كان ليام يصدق أن الانتقام الحقيقي ليس فقط في القتل، بل في تحطيم الهيبة وكسر العروش من تحتها، معتمدًا على ذكائه وخداعه، فكانت يداه ترتجفان قليلاً لكن عينيه توقدان نار انتصار مُسبق في معركة لم تبدأ بعد.

قال في نفسه بصوتٍ خافت: "لا حاجة للأسلحة، فالحكمة أقوى سلاح.. والعدالة ستأتي بطريقتها."
ثم وقف ليام، جمع قواه بحذر، وخرج من الغرفة بخطوات ثابتة لكن هادئة، كأنه يمشي على شفا جرفٍ مظلم. التوجه كان واضحًا في ذهنه؛ الحي الذي يختبئ فيه فيكتور سانتوس، ذاك الرجل الضخم ذو الندبة البارزة الذي يُحكم قبضته على المدينة من وراء جدران مظلمة.

في الطريق، كانت المدينة تتنفس بصمتٍ مريب، أضواء الشوارع تلوّن الظلال بألوان قاتمة، والهواء محمّل برائحة الغبار والدخان المتصاعد من أبخرة السيارات القديمة. كل خطوة كان يخطوها تقترب به أكثر من بوابة تلك المنطقة التي تشبه حصنًا سريًا لا يسمح بدخول الغرباء بسهولة.

وعندما وصل، نظر إلى البيوت الباهتة والمباني المحصنة، يلتقط تفاصيل صغيرة يعرف أن فيكتور لا يغفل عنها: الكاميرات التي تراقب كل حركة، الحراس الذين يطوفون مثل الأشباح بين الأزقة، وأبواب الحي الموصدة بإحكام.

تقدم ليام بخفة الظل، عينيه تبحثان عن نقطة ضعف يمكن استغلالها، وعقله يرسم الخطوات التي ستقوده إلى قلب ذلك الوحش دون أن يُكشف أمره. كانت تلك الليلة بداية لعبة خطيرة، بين صمت الحي الغامض وغضب ليام المحتدم في داخله.

دخل ليام المقر بخطواتٍ ثابتة، عاقدًا حاجبيه بتجهم خفيف، وهو يدرك جيدًا أن هؤلاء الرجال ليسوا بأشخاص يخشون بسهولة، بل رجال يمارسون القسوة يوميًا، ومتشبعون بثقافة القوة والسلطة.

وقف في وسط الغرفة، وألقى بنظرة حادة على من حوله، ثم خاطب أحد الرجال بصوت صارم، لكن محمّل بصبرٍ مقنع:
"أين فيكتور؟"

الرجل الذي سُئل، رد بغضبٍ واضح، مع قبضة مشدودة على طاولة خشبية:
"من أنت؟ وما شأنك لتأتي هكذا، دون إذن أو سابق إنذار؟"

لم يتراجع ليام أو ينحني أمام هذا الغضب، بل أجاب بهدوء ولكنه بثقة لا تخلو من التهديد الخفي:
"لا يهمك من أكون. المهم أن تصلني الإجابة بشكل مباشر، أو ستدفع الثمن."

تصاعد الغضب بين الرجال، تعالت أصواتهم بالتحدي والازدراء، متوعدين ليام بكلمات تعج بالعنف، لكنّه بقي ساكنًا، غير متأثر، كصخرة في وسط عاصفة، لم تهزه الرياح ولا الرعد.

قال ليام بصوتٍ منخفض لكنه يحمل ثقلًا:
"الكلام الفارغ لا ينفعني. فيكتور يجب أن يظهر، وإلا سأجعل الأمور أسوأ عليكم جميعًا."

لم ينبس أحدٌ بكلمة، وصمتٌ ثقيل ملأ الأجواء كما لو أن الحائط نفسه يراقب بترقب، يتنفس ببطء وكأن اللحظة عالقة بين تهديد وصمت قاتل.

لم يكتفِ ليام بالبقاء في مكانه، فبدأ يتقدم بخطوات ثابتة، يلف نظره في أرجاء المكان بحثًا عن فيكتور، كأنه يريد أن يستخرج اسمه من بين الظلال الكثيفة التي تحيط به.

فجأة، وفي لحظة خاطفة، قفز رجل ضخم من الخلف محاولًا الهجوم عليه، لكن ليام كان أسرع. بركلة قوية ومدروسة استقبلها على بطن المعتدي، جعلته ينهار إلى الوراء، يلهث متألمًا.

وفي لحظة خاطفة، أخرج ليام سكينته ببراعة، ورفعها بثقة لا تخلو من تهديد. تحدّق في الرجل الذي حاول الهجوم، وصوته كان باردًا وخاليًا من أي تردد:
"أين فيكتور؟"

كانت الكلمة كالصاعقة، تحطمت معها كل محاولة للرد أو التراجع، فبدت الغرفة كأنها تجمدت للحظة، والكل ينتظر الجواب، أو المواجهة القادمة.

فجأة، تردد صوتٌ عميقٌ من خلف ليام، ثقيلٌ محمّل بالقوة والسلطة، قال بهدوءٍ بارد:
"من أنت؟"

التفت ليام ببطء، دون أن يخفّض سكينته، ليجد فيكتور واقفًا أمامه، عينيه تحملان غلًا دفينًا، وجسده الضخم يملأ المكان وكأنه ظل لا يُمكن الفرار منه.

كانت النظرة بينهما كأنها اشتباكٌ صامت، مليءٌ بالتوتر والغضب، حيث يختلط الخطر بالتهديد في لحظةٍ واحدة.

فيكتور تقدّم خطوةً بطيئة، كمن يقيس نوايا خصمه، وصوته لا يزال يحمل برودة الجليد:
"لماذا جئت إلى هنا بدون إذن؟ هل تعتقد أنك تملك الحق لتدخل عقر داري هكذا؟"

لكن ليام، بثباتٍ لا يهتز، ردّ بنبرةٍ حازمة:
"أنا هنا لأرى الحقيقة، ولكي أنهي ما بدأه أناس مثلك."

ابتسم فيكتور ابتسامةً باردةً، تملؤها ثقةٌ لا تهتز، ثم أومأ برأسه لأحد الرجال الحاضرين قائلاً بصوتٍ صارمٍ ومهيب:
"انصرفوا الآن جميعًا. لا مكان هنا سوى لي ولضيفي، فلنترك الأمور بيننا بعيدًا عن أعين المتطفلين."

تردد الرجال للحظة، فقد كانوا يدركون تمامًا أن هذا الطلب لا يُرفض، فكانت نظراتهم المتبادلة تحمل مزيجًا من الفضول والحذر، ثم بدأوا يتحركون ببطء نحو المخرج، بعضهم يتلفت نحو ليام بحذر، بينما يغلق الباب خلفهم بهدوء مطبق، ليترك الغرفة في جوٍّ من الصمت المشحون بالكهرباء، حيث لا يُسمع سوى أنفاس فيكتور البطيئة وثقل نبضات قلب ليام المتسارعة.

وقف فيكتور في مواجهة ليام، يراقبه بعينين ثاقبتين تزرعان الرعب في كل من يجرؤ على مواجهته، وقال بلهجة حازمة ولكنها تحمل استدعاءً ضمنيًا للتهديد:
"الآن، بعد أن أصبحنا وجهًا لوجه، أخبرني: ما الذي أتى بك إلى هنا؟ وما الذي تريد أن تفعله؟"

في زاوية معزولة من إحدى المقاهي القديمة في ريفنشيد، جلس كايل على الطاولة ينتظر، بينما يداه متشابكتان أمامه، ونظره غارق في فنجان القهوة الذي لم يلمسه. دقائق قليلة مرت، ثم دخل نواه، خطواته هادئة لكن عيونه تمسح المكان بتوتر صامت.

اقترب من الطاولة، وتوقف لبرهة، كأن الزمن توقف بينهما.

ثم قال بصوت هادئ ممزوج بنبرة لا تخلو من الحنين:
"كيف حالك، كايل؟ وكيف حال ليام؟"

رفع كايل رأسه نحوه، عينيه مترددة بين دفء اللقاء ومرارة الذكريات، ثم نهض ليصافحه بصمت، قبل أن يجيبه:
"بخير... قدر الإمكان."

جلس نواه أمامه، وأطلق زفرة طويلة كأنها محمّلة بسنوات الغياب. نظر في عيني كايل طويلاً، ثم أكمل بصوت منخفض:
"لم أكن أعلم أننا سنلتقي مجددًا... بعد كل هذا."

أجابه كايل بعد لحظة صمت:
"ولا أنا. لكننا دائمًا نلتقي حين تتعفن المدينة من الداخل... وحين يبدأ ليام بالاقتراب من النار."

ابتسم نواه بسخرية خفيفة:
"ليام لم يبتعد عنها يومًا..."

ثم غرق كلاهما في صمت ثقيل، كأن بينهما كلمات لم تُقال، وأحزان لم تُدفن.

تبادل كايل ونواه النظرات لثوانٍ، قبل أن يتكئ نواه بمرفقه على الطاولة، وأخذ يعبث بحافة فنجان القهوة أمامه دون أن يشرب. بدا عليه التردد، ثم رفع نظره نحو كايل وسأله بنبرة خافتة، مشوبة بالحذر والقلق:

"أين ليام الآن؟"

سؤال بسيط، لكنه سقط كحجر في بحيرة راكدة، فشد كايل ظهره للوراء وتنفس ببطء، كأن الإجابة أصعب مما ينبغي. أدار عينيه نحو النافذة، ثم تمتم:

"في مكانٍ لا ينبغي له أن يكون فيه... وحده."

قطّب نواه حاجبيه، وأعاد السؤال بصوت أكثر جدية:
"ماذا تعني؟ ماذا يفعل؟"

أجابه كايل بعد صمتٍ قصير، صوته منخفض وكأنما يخشى أن يسمعه أحد:
"ذهب لمواجهة رجلٍ لا يعود منه أحد حيًا... ذهب لمقابلة فيكتور سانتوس."

شحب وجه نواه، واتسعت عيناه بدهشة مشوبة بالرهبة، ثم هزّ رأسه غير مصدق:
"هل جنّ؟ يواجه فيكتور وحده؟"

رد كايل بنبرة حزينة:
"ليام لا يؤمن بالخوف... ولا يعرف كيف يعود حين يخطو نحو الظلال."

ساد صمت ثقيل بعد كلماته، قبل أن ينهض نواه فجأة من كرسيه ويقول:

"علينا أن نذهب إليه. لا أريد أن أفقده... ليس الآن."

أمسك كايل معصم نواه بقوة هادئة، نظرة جادّة تلوح في عينيه، وكأنّه يجرّه للواقع الذي لا يرحم، ثم قال بصوت منخفض لكنه حازم، يحمل في نبرته ثقل التجربة والقلق معًا:

"سيغضب إن تدخلنا... دعه، نواه... ليام يعرف ما يفعل."

حدّق نواه فيه لثوانٍ، كأنه لا يصدق ما يسمعه. عينيه تحترقان بشعور مضطرب بين الخوف على أخيه والرغبة في الركض خلفه.
قال بعصبية مكبوتة:

"يعرف ما يفعل؟ إنه يتجه نحو رجلٍ لا يعرف الشفقة، نحو موتٍ محتّم، وأنت تقول لي (دعْه)؟"

تنهد كايل، وخفف قبضته قليلًا، لكنه لم يترك يد نواه تمامًا. نظر إليه بعينين مُثقَلَتين بالحزن وقال:

"أعلم... أعلم ذلك، لكن ليام ليس مجرد شخصٍ يسير إلى الهاوية دون وعي. هو لا يقاتل فقط بسكين، بل بسنوات من الجحيم المكبوت داخله. إن منعناه الآن، سنكسر ما تبقى فيه من معنى، من هدف."

صمت نواه لحظة، كأن كلماته تنفذت إلى عمق قلبه، ثم قال ببطء:

"وإن خسرناه؟"

رد كايل هامسًا:
"إذًا على الأقل... سيموت واقفًا، لا مختبئًا."

ساد صمت ثقيل بعد كلماته، وكأن الهواء ذاته توقف عن الدوران، ولم يبقَ سوى نبضات متسارعة لا يعرفان إن كانت من الخوف... أم من الندم القادم.

في الجانب الآخر، وتحديدًا في قلب المقر المغلق، كان الجو مشحونًا كأنّه عاصفة حبست أنفاسها قبل الانفجار. ليام وقف في مواجهة فيكتور، وسكينه في يده يلمع تحت إضاءة الغرفة الخافتة، وكأنّه يعلن الحرب بصمته وحده.

فيكتور، رغم وقوفه أمام شاب يشتعل غضبًا، لم يبدُ عليه الخوف. على العكس، وقف بثبات الرجل الذي رأى الموت كثيرًا ولم يَعُد يأبه، يحدق في عيني ليام، وكأنّه يقرأ فيهما فصولًا من ماضٍ يعرفه جيدًا.

صرخ ليام، صوته يحمل اختناق سنوات:

"كم من روح أحرقتها لتجلس فوق هذا العرش الملطّخ؟!"

ابتسم فيكتور بسخرية، وكأنه يستهزئ بألمه، ثم قال:

"كأنك أول من جاءني بسكين وحكاية مأساوية... ما اسم والدك؟ أخبرني، علّني أتذكّر من أرسله إلى الجحيم."

لكن ليام لم يتحمّل، اندفع نحوه دون إنذار، وهاجم بسرعة من تدرب كثيرًا على هذا المشهد في خياله. وجه ضربته نحو الكتف، لم تكن قاتلة لكنها كانت عميقة بما يكفي ليرتج جسد فيكتور.

تراجع فيكتور خطوة، وجهه لم يتلوّى من الألم بل من الغضب، ثم رفع صوته:

"أنت ابن إيثان ڤوس، أليس كذلك؟!"

تجمّد ليام لحظة، كأن الاسم أعاد له الماضي بكل ثقله، لكن عينيه ظلّتا مشتعلتين. أجابه بصوت خافت:

"أخيرًا تذكّرت."

رد فيكتور وهو يضغط على جرحه:

"أبوك كان أحمقًا مثلك... دخل إلى العشّ وهو يعتقد أنّ الحقيقة وحدها ستحميه. والآن ابنه يأتي بسكين! ما أشبهكم ببعضكم."

صرخ ليام بغضب وهو يلوّح بالسكين:

"أنا لست أبي! أنا لست هنا من أجل العدالة... أنا هنا من أجل الدم!"

اتسعت ابتسامة فيكتور وقال:

"أحسنت... الآن بدأنا نفهم بعضنا."

ثم اندفع الاثنان من جديد في اشتباك عنيف، بين ظلال الغرفة ورائحة الدم، صراع ليس فقط بين قاتلٍ وابن ضحيته... بل بين ماضٍ لم يُدفن بعد، وغضب لا يعرف الغفران.

رغم الطعنة التي تلقاها في كتفه، لم يهتزّ فيكتور كما توقع ليام. بل بدا وكأن الجرح أيقظ وحشًا نائمًا في داخله. انطلقت ضحكته القصيرة، خالية من أي أثر للألم، ثم مسح الدم بيده العارية، وعيناه تقرآن تحرّكات ليام كما لو أنه كتاب مفتوح.

اندفع ليام مجددًا، لكن فيكتور استدار بخفة لم يتوقعها، قبض على معصم ليام قبل أن تغوص السكين مجددًا في جسده، ثم دفعه بقوة جعلته يرتطم بالحائط كدمية قماشية.

قال فيكتور، ونبرته هادئة بشكل مخيف:

"ظننت أنكم الجيل الجديد، المتطور، الأقوى... لكنك مجرد طفل غاضب يحمل سكينًا أكبر من حجمه."

حاول ليام النهوض، أنفاسه متسارعة، ويده لا تزال تشد السكين بثبات، لكن فيكتور لم يُمهله. اقترب منه بخطوتين ثقيلتين، ثم لكمه في صدره بقوة جعلت الهواء يهرب من رئتيه.

"تعلمت القتال في الأزقة، في السجون، في حلبات الموت... لم أحتج يومًا إلى سلاح لأقتل. أنت؟ مجرد هاوٍ مدفوع بالعواطف."

تلقى ليام ضربة أخرى في بطنه، فانحنى قليلًا لكنه لم يسقط. رفع رأسه مجددًا، وعيناه تشتعلان بتصميم لا ينكسر.

"ربما كنت هاويًا... لكنك ستنزف الليلة، ولن تنام في سلام أبدًا."

ضحك فيكتور، لكنها لم تكن ضحكة ازدراء هذه المرة، بل خليط غريب من التسلية والاحترام:

"إن لم تقتلني الليلة، فسأراك مجددًا... حين تصبح قاتلًا بحق. لا طفلًا بدمعة في عينيه."

وفي لحظة، انقلب كل شيء. ليام، رغم الألم، استغل لحظة غفلة، ودار حول فيكتور، موجّهًا السكين نحو جانبه. لكن فيكتور صدّها بذراعه الجريحة، ودفع ليام بقوة نحو الأرض.

ثم تراجع خطوة، ينظر إليه من الأعلى، والدم ينزف من ذراعه ببطء، وقال بنبرة مفعمة بالتهديد:

"اذهب الآن، قبل أن أغيّر رأيي. فأنا لا أقتل إلا عندما أُجبر."

توقف الزمن للحظة. سكون كثيف خنق الغرفة، كما لو أن الهواء نفسه تخلّى عن واجبه في إمداد الرئتين بالحياة. الدم نزف من ذراع فيكتور ببطء، فيما كان صدر ليام يعلو ويهبط بأنفاسٍ متكسرة، متألمة، لكن عينيه — عينيه كانتا أوسع من الجرح، وأخطر من السكين.

ثبت قدميه على الأرض، رفع رأسه، مسح الدم عن فمه بظهر كفه، وقال بصوت متقطع، تكسوه رعشة الإرهاق لكن يملأه تصميم لا ينكسر:

"على الأقل... سأموت شجاعًا، لا هاربًا جبانًا."

توقفت ابتسامة فيكتور. نظر إلى ليام طويلاً، كما لو أنه لم يره من قبل. تلك الكلمات، تلك النبرة، سحبت من داخله صمتًا ليس فيه شفقة، بل شيء أقرب إلى التقدير. رجل مثل فيكتور لا يحترم إلا من يحدّق في الموت بعينين مفتوحتين.

اقترب ليام خطوة. قبضته لا تزال تشد السكين، يده ترتجف، لكنها لا تتراجع. أما فيكتور، فبدأ بالدوران حوله ببطء، كذئب عجوز يتفحّص فريسة رفضت أن تنحني.

قال، وصوته منخفض كالنذر:

"كثيرون قالوا ذلك... قليلون فقط عاشوا ليعيدوه."

ابتسم ليام ابتسامة دامية، وقال:
"وأنا لا أنوي تكراره. أنوي إنهاءه."

ثم اندفع بكل ما تبقى له من جسد وروح. كانت الطعنة أشبه بانفجار — ليست ضربة، بل انسكاب حقدٍ كامل في جسد رجل. السكين اخترقت جنب فيكتور، غرست نصفها فيه، قبل أن يرد بلكمة صلبة أطاحت بليام إلى الجدار.

سقط على الأرض. جسده بالكاد يتحمل، لكنه ظلّ ناظرًا إلى الأمام، عينيه لا تزالان مشتعلتين. لم يعد الأمر قتالًا بين رجلين... بل مقاومة بين فكرتين.

وقف فيكتور، وقد انكمشت عضلاته من الألم، يلهث. الدم يسيل من جانبه وذراعه، لكنه ظل واقفًا. حدّق في ليام بصمت، ثم قال بصوت خفيض، كأن الرعد خرج من صدره لا من حنجرته:

"أنت لا تملك القوة لقتلي... لكنك تملك شيئًا نادرًا... لم أره منذ زمن. ربما... ربما كان عليك أن تكون ابني."

ثم أدار ظهره، يترنّح، وترك خلفه أثر دم ثقيل. قال دون أن ينظر:

"عِش... إن استطعت. لأن اللقاء القادم... لن يعرف الرحمة."

ليام وقف متكئًا على الحائط، جسده ينزف من الطعنات العميقة التي وجهها فيكتور، والدم يتسرب ببطء من كتفه وذراعه، يلون الأرض بلون قاتم. الألم كان ينخر في كل عرق وكل نبضة، لكنه لم يستسلم. استدار ببطء نحو النافذة الكبيرة التي تطل على الحي، النافذة التي كانت تلمع في ضوء القمر البارد كنافذة إلى الحرية أو ربما إلى الموت.

كان يعلم جيدًا أن الخروج من هنا مهزومًا أمام رجال فيكتور يعني انكسار كبريائه، وبالنسبة له، الكبرياء كان أكثر أهمية من جسده، أكثر من الحياة نفسها أحيانًا. لم يكن يريد أن يُرى ضعيفًا، لا أمام خصمه، ولا أمام رجاله الذين كانوا لا يرحمون الضعفاء.

رفع قدمه بحذر ووضعها على حافة النافذة، ارتفاع الطابق جعل قلبه يدق بسرعة غير معهودة، لكن الخوف لم يكن خياره. نظر إلى الأسفل، إلى الشوارع المظلمة التي تمتد بين البيوت والمباني، شعر وكأن المدينة تنظر إليه بتحدّ، كأنها تختبر عزيمته.

أغمض عينيه لبرهة، استجمع كل قوته المتبقية، تلك القوة التي لم تُقتل مع الجروح والدماء، تلك النار التي لا تنطفئ مهما كانت الرياح عاتية. ثم، وفي حركة متهورة لكنها حاسمة، دفع بنفسه خارج النافذة.

الهواء البارد صفع وجهه وهو يسقط، الرياح تصفع جسده كما لو كانت تريد أن تبتلعه بالكامل، لكنه كان حرًا لأول مرة منذ زمن طويل. السقوط كان سريعًا، مخيفًا، لكنه لم يكن سقوطًا نحو الموت، بل انطلاقة نحو حياة جديدة، نحو فرصة لإعادة كتابة مصيره.

عندما وصل إلى الأرض، استخدم خبرته في القفز والهبوط لينحني بجسده بطريقة تقلل من أثر الصدمة. الألم انفجر في كل مفصل من مفاصله، لكنه نهض بصعوبة، وعينيه تتوهجان بعزيمة لم تعرف الاستسلام.

وقف وسط الظلام، تنفس بعمق، ينظر إلى المبنى الذي هرب منه وكأنه يغادر سجنه. كان يعلم أن هذه ليست النهاية، بل بداية لملاحقة لا تنتهي، انتقام يحرق في صدره كجمرة لا تنطفئ.

خطواته كانت بطيئة وثابتة، يبتعد عن المكان، بعيدًا عن أضواء المدينة وأعين أعدائه. كان قد فقد الكثير، لكنه لم يفقد شيئا أهم: نفسه. وشعور بأنه مهما طال الظلام، فإن الفجر قادم لا محالة.

كانت قدمه تؤلمه بشدّة إثر السقوط، لكنه لم يتوقّف. الألم كان كالنار تشتعل في عظامه، ومع ذلك ظلّ يسير، كأن الكِبرياء يشدّه من عنقه ويدفعه نحو البيت. لم يكن الهروب خيارًا، لكن البقاء هناك، مهزومًا، مُلقى كجثة وسط أعين رجال فيكتور، كان سيمزّق ما تبقى من كرامته.

وصل إلى الشارع الخلفي، حيث لا تمرّ السيارات، ولا تترصّد العيون. تسلّل عبر الأزقة المعتمة كظلٍ جريح، يجرّ نفسه جَرًّا، حتى بان له المنزل. ذلك الركن الوحيد في هذا العالم الموبوء الذي ما يزال يحمل اسمه دون أن يسأله: "أين كنت؟ ولماذا تأخرت؟"

اقترب من الباب ببطء، يلهث كمن هرب من موتٍ محقّق. يداه ترتجفان، ودمه قد جفّ على ملابسه، عاقدًا على جسده طبقة من الرماد القاسي. فتح الباب دون أن يُصدر صوتًا، ودخل.

كان كايل جالسًا على الأريكة، رأسه بين يديه، ساكنًا كمن ينتظر خبرًا لا يريد سماعه. وحين سمع صوت الباب، انتفض من مكانه، نظر، فتجمّد للحظة.

— "ليام؟"

لم يُجِب.

كان واقفًا هناك، كمن خرج لتوّه من الجحيم. ملامحه مشروخة، ووجهه يفيض بتعبٍ لا يُقال. اقترب كايل على مهل، صوت خطواته وحده هو الذي يملأ الغرفة، ثم وقف أمامه، يحدّق فيه، وكأنه يحاول التأكّد من أن ما يراه ليس شبحًا.

قال بهدوء مبهوت:

— "ماذا جرى؟"

أجاب ليام بصوت خافت، خشن، يخرج من عمق الجرح:

— "لم أمت... هذا كل ما في الأمر."

جلس على طرف الأريكة ببطء، كأن ثقل العالم فوق كتفيه. أنزل رأسه، وحدّق في الأرض، ثم همس:

— "لم أستطع الخروج من الباب الأمامي... لو رآني أحدهم، وأنا على تلك الحال... لكان ذلك موتًا آخر."

اقترب كايل وجلس بجواره، لم يتكلّم. فقط كان حاضرًا، بلا أسئلة ولا ملاحظات. فهم من صمت ليام أكثر مما فهمه من أي كلمات.

— "قفزت من النافذة. لم أفكّر... فقط أردت أن أهرب من أعينهم. لا أحد يجب أن يراني مكسورًا."

سكت لحظة، ثم تابع:

— "سقطت، كُدت أفقد الوعي. ساقي ما عادت تتحمّلني، لكنني سرت. لا أعلم كيف... فقط سرت."

ثم نظر إلى السكين التي ما تزال في يده، مطأطئ الرأس، وهمس بنبرة جامدة:

— "كانت طعنتي ضعيفة... لكنني لن أكون كذلك في المرة القادمة."

وضع كايل يده على كتف أخيه، ربّت عليه بحنوّ لم يحتج إلى كلمات. لم يكن بحاجة إلى فهم التفاصيل... فقط كان بحاجة إلى البقاء.

في الجهة الشرقية من ريفنشيد، حيث تنكمش الأزقة كأمعاء ملتفّة فوق بعضها، كان المحقق ريتشارد كرين يتقدّم ببطء، يتفقّد المكان خطوة بخطوة. لم يكن الأمر مجرّد إحساس داخلي، بل مهمة رسمية. تقرير ورد من أحد السكان عن صراخ غريب وصوت عراك، يُحتمل أن يكون جريمة قتل.

ارتدى سترته الثقيلة، وأخفى شارة الشرطة تحتها، يفضل دائمًا أن يكون مجرد ظلّ في العتمة لا ضوءًا يُنذر المجرمين. حمل معه ملفًا صغيرًا يحوي خريطة الحي، بعض الصور القديمة للمشتبهين، وقائمة بأسماء تعود لأشخاص خضعوا للتحقيق في قضايا مماثلة.

عينيه كانت تمسح الجدران، النوافذ، وحتى الأرض. يبحث عن دم، عن كسر في الهدوء، عن بصمة قد خانها صاحبها.

لكنه لم يجد شيئًا.

كل شيء كان نظيفًا على نحوٍ مريب.

توقّف عند مدخل زقاق ضيّق، وضع يده على مسدسه دون أن يخرجه، ثم تقدّم داخل الممر كمن يدخل معدة وحش نائم. كل شيء ساكن. لا ضوء، لا صوت، لا أثر لأي اشتباك حديث.

قال لنفسه بصوت خافت:

"إن كان ثمة قتال هنا... فقد انتهى قبل دقائق."

تفحّص الجدران، بحث عن خدش، عن طعنة في أحد الأبواب، لكنه لم يجد سوى العفن والرطوبة.

فتح جهاز الاتصال على كتفه، وأبلغ بهدوء:

"الوضع في الحي الجنوبي هادئ... لا أثر لأي مشتبَه بهم. سأتابع التمشية وحدي."

أغلق الجهاز، ووقف في وسط الزقاق للحظة، يحدّق في السقف الحديدي الذي يغطي بعض الأجزاء. الهواء ثقيل، والليل متجمّد. كل شيء يوحي بأن شيئًا حدث... لكن ليس بعد الآن.

كان ليام قد مرّ من هنا.

قاتل، نزف، سقط، ثم غادر.

لكن حين وصل ريتشارد، لم يكن هناك سوى الصمت.

في صباح اليوم التالي، كانت أشعة الشمس تتسلّل بخجل عبر ستائر الغرفة، تبعثر الضوء على أرضية متهالكة، وتلامس وجه ليام الذي بالكاد غفا لساعة أو اثنتين، جسده لم يكن قد استراح بعد، لكنه لم يشكُ. الألم بات مألوفًا.

دخل كايل بهدوء، يحمل وعاء ماء فاتر، وقطنًا، وشريطًا طبيًّا. كان وجهه ساكنًا، لكن في عينيه قلق دفين لا يتقن إخفاءه.

اقترب ببطء، جلس على حافة الأريكة، ثم قال بصوت خافت:

"دعني أُعيد تعقيم الجرح... لا أريدك أن تموت من التهاب بعد كل ما مررتَ به."

لم يجب ليام، فقط أومأ بصمت، ثم انحنى قليلًا ليكشف عن كتفه المضمد. كانت الضمادة ملتصقة بالجرح، قد تجمّد الدم حولها. عندما بدأ كايل بإزالتها، كتم ليام أنينه، تشنجت عضلاته، لكنّه لم يصدر صوتًا.

نظر كايل إلى الجرح بعينين خبيرتين، وقال بنبرة منخفضة:

"كان يمكن أن تقتل نفسك. نصف سنتيمتر أقرب للقلب، وما كنتَ هنا الآن."

ابتسم ليام، ابتسامة باهتة لا حياة فيها، ثم قال:

"وإن متّ، من سيُكمل الفوضى التي بدأناها؟"

هزّ كايل رأسه، وبدأ بتنظيف الجرح بحذر، يمرر القطن بلطف، كأنه لا يريد إيذاءه أكثر. كان المشهد صامتًا إلا من صوت تنفّس ليام وخرير الماء في الوعاء.

قال كايل أخيرًا، بنبرة جادّة:

"فيكتور لن يتركك... هذا الجرح مجرد بداية."

أجاب ليام، دون أن ينظر إليه:

"ليأتِ... سأكون مستعدًا هذه المرة."

أنهى كايل تضميد الجرح، ثم وضع الأدوات جانبًا، وبقي جالسًا، ينظر إلى أخيه كأنما يحاول قراءة شيء بين شقوق ملامحه.

قال أخيرًا:

"فقط لا تتركني، يا ليام. لا تفعلها ثانية. أنت لست وحدك."

لم يردّ ليام هذه المرة، لكنه أغمض عينيه ببطء... وفي داخله، كان شيء ما يتغيّر. ليس الألم، بل طريقته في تحمّله.

نظر كايل إلى وجه أخيه الذي بدا شاحبًا تحت ضوء الصباح، تردد للحظة، كأن الاسم الذي سينطقه يحمل ثقل الماضي كله، ثم قال بهدوء:

"نواه... يعرف فيكتور جيدًا. يمكنه مساعدتك."

لم يأتِ الردّ من ليام فورًا. عبَرت نظرة حائرة على عينيه، ثم ارتفع حاجبه قليلًا، وقال بنبرة دهشة خفيفة، كأن الاسم خرج من عالم منسي:

"مَن؟"

تجمّدت ملامح كايل، وراح يتأمل أخاه طويلًا، ثم تنهد ببطء، كمن يستعيد ذكرى لا يحبها لكنها لازمة:

"أخونا الأكبر… نواه ڤوس."

مرت لحظة صمت بينهما، حتى بدا كأن الجدران نفسها تتنفسها. ظل ليام يحدق بكايل، وكأنه لا يصدق ما سمعه، أو لعل الاسم لم يلمس ذاكرته منذ سنوات. ثم قال بصوت خافت، شبيه بالهمس:

"ظننتُ أنه… اختفى. أنه لم يعد موجودًا حتى في هذا العالم."

أجاب كايل، وعيناه تنزلان إلى الأرض:

"لم نكن نعرف مكانه لسنوات. لكنه ظهر… ظهر حين كنتَ عند فيكتور."

ثم رفع رأسه، ونظر مباشرة إلى ليام:

"هو يعرف كيف يعمل عقل فيكتور، بل عاش وسط هذه القذارة لوقت طويل. يستطيع أن يريك الطريق… إن أردت."

بقي ليام صامتًا، نظراته غارقة في شيء لا يُقال. ربما كان يحاول استعادة ملامح أخٍ اختفى من الصور ومن الأحلام. وربما، فقط ربما، كان صوتًا جديدًا للنجاة يُولد في داخله… لكنّه لم ينضج بعد ليُقال.

سحب كايل نفسًا ثقيلًا، كأن ما سيقوله الآن أثقل من كل جمل الصباح، ثم قال ببطء، كأنه يمتحن وقع كلماته:

"إنه… يعمل مع غابرييل."

ارتعش وجه ليام فجأة، واختفت تلك اللمحة الباهتة من الأمل في عينيه. حدّق بأخيه وكأن ما سمعه كان لطمة على الجرح، ثم تمتم بصوت خفيض سرعان ما علا بنبرة غاضبة:

"خائن."

نهض واقفًا، رغم ألم كتفه، وكأن الغضب أطلق فيه شرارة رفض لا تُقاوم. راح يخطو في الغرفة ذهابًا وإيابًا، يتنفس بعنف، ثم أشار بيده في الهواء:

"كل من اقترب من غابرييل انتهى نجسًا. وها أنتَ تخبرني أن نواه، أخي، معه؟! بعد كل ما فعله؟ بعد أن قتل أبي؟ بعد أن تركنا في الجحيم؟!"

لم يجب كايل فورًا، فقط راقب أخاه، وملامحه تنقبض بأسى. ثم قال بهدوء، بصوت يشبه رجفة الشك:

"لا أعرف لماذا انضم له… لكني رأيته بعيني. وكان مختلفًا، ليام… مختلفًا جدًا. ربما كان مُجبرًا… أو ربما يبحث عن شيء آخر."

ليام لم يكن مستعدًا لتبرير الخيانة. أدار ظهره، وحدّق إلى النافذة بصمت، وصوته خرج كالزمهرير:

"لا أحد يُجبرك أن تبيع دم أبيك."

في الطرف الآخر من المدينة، وبين جدران غرفتها التي اعتادت العزلة، جلست إليورا قرب النافذة، تحدّق إلى السماء الرمادية كأنها تبحث عن ظلّه فيها. كانت تحمل بين يديها دفترًا مفتوحًا، صفحاته مليئة بكلمات مبعثرة، لا تكمل بعضها، كلها تدور حوله... حول ليام.

لم تره منذ أيام، وربما أسابيع، لا تعرف بالضبط كم مرّ من الوقت، لكنها تشعر أن الفراغ الذي خلّفه حضوره لا يُقاس بالساعات. كان يغيب كثيرًا، لكنها هذه المرة كانت مختلفة... موحشة.

وضعت القلم جانبًا، وأسندت جبينها إلى الزجاج البارد، تمتمت بصوت بالكاد يُسمع:

"أين أنت يا ليام؟"

كلما مرّ يوم آخر دون رؤيته، ازداد قلبها اضطرابًا. لم تكن قلقة فحسب، بل تائهة... كأن وجوده هو خريطتها، هو الدفء الوحيد الذي تحدّت به فوضى ريفنشيد.

أخذت نفسًا عميقًا، وأغلقت عينيها للحظة، تتذكر نظرته حين حدّق بها آخر مرة... كانت في عينيه نيران تحترق بصمت، كأن روحه تمشي على شفا هاوية لا تنتهي.

فتحت عينيها، وهمست من جديد:

"أريد أن أراك... فقط، لأتأكد أنك ما زلت حيًّا."

في صباح اليوم التالي، وقف المحقق ريتشارد كرين أمام موقع البلاغ، يرافقه ضابطان من فريقه. الأزقة كانت هادئة، رطبة ببقايا مطر الليل، ولا شيء يوحي بأن جريمة قد وقعت هنا. لا دماء، لا جثة، ولا أي أثر لعنف.

اقترب أحد الضباط بعد أن أنهى تفتيش الجهة الخلفية للمستودع المهجور وقال:
"لا شيء يُذكر يا سيدي. مجرد مستودع فارغ... وبعض النفايات القديمة."

أومأ ريتشارد برأسه، ثم دوّن شيئًا في دفتره.
"بلاغ كاذب إذًا؟"

هز الضابط كتفيه وقال:
"ربما، أو أحدهم كان يظن أنه رأى شيئًا... الليل يخدع العيون أحيانًا."

تقدم ريتشارد بخطوات بطيئة نحو الزاوية التي قيل إن الحركة شوهدت فيها، انحنى قليلًا ينظر إلى الأرض، ثم تنهد.
"لا توجد جريمة، ولا دليل على محاولة واحدة. لكن... لا يُبلغ أحد عن شيء هنا عبثًا."

نظر إلى الضباط من حوله، ثم قال بنبرة حيادية:
"سجّلوا البلاغ كحادث غير مؤكد... وابقوا العيون مفتوحة. هذا المكان لا ينام بلا سبب."

ثم غادر المكان بهدوء، يراقب المدينة بعين من يعرف أن ما يُخفى... أخطر مما يُرى.

في منتصف الليل، كانت ريفنشيد قد غرقت في صمتها المعتاد، صمتٌ لا يُطمئن بل يُربك، كأن المدينة بأكملها تتآمر خلف الظلام. وقف ريتشارد كرين عند طرف الزقاق ذاته، يده تمسك بفنجان قهوة أصبح بارداً منذ نصف ساعة، وعيناه تراقبان المكان بلا رمش.

كان الليل ساكنًا أكثر من اللازم. لا صوت سوى حفيف الريح وهي تزحف بين الجدران المتشققة، ولا حركة تُذكر سوى ارتجاف أعمدة الإنارة كلما مرّت نسمة قوية. ضغط ريتشارد على اللاسلكي وتحدث بصوت منخفض:

"لا جديد حتى الآن... المكان ميت."

جاءه الرد من الضابط الآخر عبر الجهاز:
"نفس الشيء عندي، الشارع الخلفي فارغ. لا أثر لأي أحد."

أنهى الاتصال وأعاد اللاسلكي إلى حزامه، ثم نظر إلى السماء الملبدة بالغيوم. في داخله، كان يعرف أن هدوء هذه الليلة لا يعني الأمان، بل العكس تمامًا. ريفنشيد لا تمنح الراحة بالمجان، والسكينة فيها لا تأتي إلا تمهيدًا لما هو أعظم.

اقترب من الجدار الخلفي للمستودع، نفس المكان الذي تم تفتيشه صباحًا، وانحنى ليتفحص الأرض من جديد. لا شيء. لكنه لم يكن يبحث عن شيء محدد... بل عن خلل بسيط في الهدوء، أي خلل يكشف أن المدينة لا تزال تتنفس سرًا.

تنهد ريتشارد، ثم استقام واقفًا، وقال في نفسه:
"لو كنت في مكانهم... لاخترت الليل كذلك."

ثم استند إلى الحائط، عينه لا تغادر المكان، وجسده كتمثال صُمّم خصيصًا ليشهد ما لا يشهده غيره.

وفجأة، قطع ذلك السكون صوتٌ حادّ، مشوب بالذعر، مزّق هدوء الليل كشفرة تنغرس في لحم الزمن. كان صراخ امرأة، صادرًا من أحد الأزقة القريبة، تردّد صداه بين الجدران كأن المدينة نفسها ارتجفت لحضوره.

توقف ريتشارد عن التنفس للحظة، عينه اتسعت، ويده تلقائيًا امتدت نحو سلاحه. ارتد جسده للأمام بخفّة رجلٍ اعتاد المطاردة، وانطلق نحو مصدر الصوت، خطواته سريعة ومنتظمة، يطرق الأرض كما لو كان يحاسبها على تأخرها.

حين انعطف إلى الزقاق الضيق، لم يجد أحدًا في بادئ الأمر. كان الضوء خافتًا، يتراقص على الجدران المتآكلة بفعل السنين. صدى الصرخة لا يزال يتلاشى في الهواء، لكن مصدره غامض. لمح ظلًا يمر بسرعة عند طرف الزقاق، فركض نحوه، قلبه ينبض بقوة، وأفكاره تتزاحم:

هل هذه محاولة إلهاء؟ أم بداية لجريمة حقيقية؟

وصل إلى نهايته، فوجد بابًا صغيرًا مفتوحًا يهتز بفعل الريح، يُفضي إلى مبنى مهجور. رفع سلاحه، ودخل بحذر، صوته منخفض، يهمس بتحذير لا يسمعه سوى الجدران:

"شرطة ريفنشيد... أخرج الآن وإلا..."

لكن الرد لم يكن إلا الصمت، وصوت خافت لخطوات فوقه في الطابق العلوي، وكأن أحدهم ينسحب من المشهد قبل أن يبدأ.

رفع عينه نحو الدرج، واستعد للصعود، وداخل قلبه شعور لا يُفسَّر:
هذا لم يكن صراخ رعب فقط.. بل نداء استغاثة من شيء أعمق بكثير.

وما إن وطأت قدم ريتشارد أولى درجات السلم، حتى ارتجّ السقف فوقه بصوت مكتوم، تبعه سقوطٌ مفاجئ كنيزك اخترق الصمت والسكون. ارتدّ إلى الوراء فورًا، ورفع ذراعه غريزيًا ليتلقّى الصدمة... ثم ارتطم الجسد بالأرض أمامه ارتطامًا كأنّه إعلان صريح للموت.

جثة امرأة.

الوجه شاحب، والعينان مفتوحتان على اتساعهما، كأنها ماتت وهي تحدق في شيء مرعب للغاية. شعرها الأشقر مبلّل بالعرق والدم، وثوبها ممزق من الكتف، كأن أحدهم جرّها بعنف قبل أن يلقي بها.

انحنى ريتشارد فورًا، فحص النبض، تلمّس العنق، حدّق في اتساع الحدقة... لا حياة. الدم المتخثر عند جانب رأسها يدل على ضربة قوية، ربما كانت هي سبب النهاية، أو جزءًا منها فقط.

"اللعنة..." تمتم، ثم نظر إلى السقف الذي سقطت منه، حيث بدت فتحة صغيرة في الأرضية الخشبية للطابق العلوي، كأن القاتل تعمّد أن يُلقي بالجثة أمامه، كعرض مسرحي قذر.

أخرج ريتشارد جهاز الاتصال من سترته وأصدر أمرًا صارمًا، صوته منخفض لكنه حازم:

"هنا المحقق ريتشارد كرين... لدي جثة امرأة في مبنى مهجور، الزقاق الجنوبي. أحتاج دعمًا فورياً وفريقًا جنائيًا."

أغلق الجهاز ببطء، ثم نظر مجددًا إلى الجثة. شيء ما في هذا الموت... كان شخصيًا.
وكأن الجثة لم تُلقَ عبثًا.

بل كانت رسالة.

وما إن أنهى ريتشارد بلاغه، حتى سمع خفقة في الهواء، كأن الظل نفسه قرر أن ينقضّ عليه. قبل أن يلتفت، سُحب جهاز الاتصال من يده بعنف، ثم طار في الهواء وتحطم أرضًا دون أي صوتٍ من المهاجم.

التفت ريتشارد بسرعة، ويده تلقائيًا سحبت المسدس، لكن ما رآه جمّد الدم في عروقه:

رجل طويل القامة، جسده مكسو بالسواد من رأسه حتى قدميه. معطف ثقيل، قناع لا يُظهر ملامحه، قبعة واسعة تغرق وجهه في عتمة كاملة، ولا أثر لصوت، ولا نفس.

تراجع ريتشارد خطوة، صوّب سلاحه، لكن صوته فضحه، كان أقل صلابة من المعتاد:

"من أنت؟!"

لم يجب.

"قلت من أنت؟!" شد قبضته أكثر، يحاول أن يحافظ على رباطة جأشه، رغم أن دقات قلبه كانت كطبول إنذار داخلي.

صمت.

تقدّم الرجل خطوة للأمام، ثقيلة، هادئة، لكنها جعلت ريتشارد يبتلع ريقه. جزء منه أراد أن يطلق النار، والجزء الآخر — الأعمق — أراد أن يهرب.

"اللعنة..." همس.

تراجع خطوتين، عيناه لم تبتعدا عن القناع، لكنه بدأ يدرك الحقيقة التي راودت الصحف، وحديث المحققين، وهمسات الشارع.

"... لا... مستحيل."

همس ريتشارد، ثم قالها بصوت أعلى، بحذر كأنها استدعاء لاسم شيطاني:

"ظل ريفنشيد..."

وما إن نطقها، حتى تحرك الرجل. ليس هجومًا مباشرًا... بل اندفع كالنمر، وركض خلف ريتشارد بلا إنذار.

صاح ريتشارد وهو يستدير:

"تبًا!!"

ركض بأقصى ما يستطيع، وقدماه تصطدمان بأرضية المبنى المهترئة. خطوات ليام خلفه كانت سريعة، وهادئة... وهذا ما أخافه أكثر. الرجل لا يلهث، لا يصيح، لا يهدد، بل يقترب بصمت قاتل.

انزلق ريتشارد عبر ممر جانبي، لكنه سمع الانفجار خلفه: الباب حُطم دون أن يُفتح.

التفت بسرعة وأطلق رصاصة، ارتدت على الجدار. لم يصب شيئًا.

لم يكن هناك أحد.

تراجع، تنفّسه يتسارع.

لكنه لم ينجُ.

من الخلف، ظهر ليام — كأن الظلال أعادته — وقف ساكنًا، ثم اندفع نحوه.

ريتشارد صرخ: "لاااا—!"

ارتطم الجسدان، وسقطا أرضًا. المسدس طار جانبًا.

لكنه عندما فتح عينيه... لم يجد أحدًا فوقه.

نظر حوله — فارغ.

قام وهو يلهث، ثم سمع الصوت... من الخلف، همسة واحدة فقط:

"راقب خطواتك، كرين."

ثم اختفى.

تركه في صمت، بين جثة امرأة، وأعقاب رصاص، وظلال بدأت تبتلع الزقاق من جديد.

المطارد الآن... أصبح مطاردًا.

ثم فجأة، كأن صمته كان إنذارًا، نهض ريتشارد دفعة واحدة.

ركض.

لم ينتظر إشارات، لم يفكر، فقط تبع نداء غريزي في دماغه: "اهرب."

كان ظل ريفنشيد لا يزال واقفًا هناك، صامتًا، لكنه لم يحتج إلى أن يطارد بعد — فريتشارد فهم كل شيء. الرعب وحده كان كافيًا ليدفعه للهرب من شبح بلا ملامح، شبح يحمل الموت بين كفيه.

الهواء كان ثقيلاً، كأن المدينة بأكملها تحبس أنفاسها.

ركض ريتشارد عبر الأزقة، نعله ينزلق فوق الأسطح المبلّلة، قلبه يضرب صدره بعنف حتى لم يعد يسمع سوى دقاته. عينه تلتفت خلفه كل بضع ثوانٍ، لكنه لا يرى شيئًا.

وذلك ما كان مخيفًا أكثر.

ثم دخل زقاقًا ضيقًا لا يكاد يتّسع لشخصين. لم يدرك كم هو ضيق حتى فاجأته الرطوبة تحت قدميه... زلّت قدمه، وسقط.

جسده ارتطم بالأرض الموحلة، ذراعه اصطدمت بالحائط الحجري، ووجهه التصق بطينٍ باردٍ تفوح منه رائحة عفن وماء آسن.

حاول أن ينهض، يلهث كأن رئتيه تغرقان. لكن ظلًا أسود تقدّم ببطء خلفه.

وقف ليام في نهاية الزقاق.

لم يركض. لم يتكلم. فقط تقدم بخطوات ثابتة، كل خطوة كأنها دق مسمار في تابوت.

ريتشارد زحف للخلف، رفع يده وكأنه يتوسل أو يستعد... لكنه رأى في عيني القناع، شيئًا أبعد من الغضب.

رأى حكمًا.

تجمّد في مكانه، صوته خرج مبحوحًا:
"ما الذي تريده مني؟!"

لا إجابة.

مجرد ظل قاتم، واقف، ونواياه مكتوبة بدمٍ على الجدار:

الموت.

مدّ ليام يده إلى سلاحٍ صغيرٍ من تحت معطفه، لم يكن مسدسًا، بل نصلًا خافت اللمعان، طويل، ونظيف.

وتلك النظافة... كانت أكثر ما أخاف ريتشارد.

لأنه فهم أن هذا الرجل لا يترك فوضى.

بل يترك رسالة.

خطا خطوة أخيرة، حتى صار فوق جسد ريتشارد الموحل، والنصل ارتفع.

الصمت صار قبرًا.

لكن...

ريتشارد لم يكن مستعدًا للموت.
يده المرتجفة لامست شيئًا قاسيًا وسط الطين...
حجر.

بحجم قبضة، مشبع بالرطوبة، لكنه صلب كجدار زنزانة.

بصرخة يائسة مشبعة بالغريزة، رفعه فجأة وضرب به رأس "الظل".

ارتد القناع إلى الخلف للحظة، لم يصدر صوت، لم يترنّح، فقط تجمّد.
ريتشارد ظن أنه نجح. ظن أن هذه الضربة كانت كافية.

لكن الظل رفع رأسه ببطء.

ثم، كأن شيئًا داخله انكسر للأبد... أو اشتعل.

اندفع بجنون.

لكمة أولى كسرت شفة ريتشارد،
لكمة ثانية حطّمت أنفه،
وثالثة دفعت رأسه للحائط كدمية.

كان العنف صامتًا. لا صراخ. لا كلام. فقط أصوات اللكمات، والوحل يتطاير، والدم يبدأ بالتقطر.

ثم... انحنى ليام، أمسك بالحجر الذي استخدمه ريتشارد.

تأمله للحظة.

ثم رفعه عاليًا، وكأنه أداة تنفيذ حكمٍ باسم مدينة فقدت العدالة.

ضربة أولى...
ارتطم الحجر بجبهة ريتشارد، فانبثق الدم كنافورة قاتمة.

ضربة ثانية...
أنينه اختنق في حلقه، وعيناه ارتجفتا.

ضربة ثالثة...
تهشّم الجلد والعظم، وتلطّخ الوحل باللون القرمزي.

ومع كل ضربة، لم يكن ليام يقتل جسدًا.
بل يقتصّ من كل كذبة في ملفات القضية،
من كل شاهد كاذب،
من كل عدالة مزيفة خذلت طفولته.

ضرب... وضرب... وضرب.
حتى صار الرأس مجرد لحمٍ نابض بلا ملامح.

ثم توقف.

نهض ببطء، يداه تقطران.
تنفّسه بطيء، عينيه خلف القناع تراقبان الصمت الجديد...

الرسالة قد وصلت.

والليل، مرة أخرى، ابتلع كل شيء.

لكن رغم كل ما فعله...
رغم الدم الذي غطى كفيه...
رغم الوجه الذي بالكاد صار يُعرف...
لم يُجهز عليه.

ظلّ ليام واقفًا فوق ريتشارد، يحدّق في وجهه المشوّه، أنفاسه تتصاعد من خلف القناع.
كان بإمكانه قتله. بكل بساطة. بضغطة واحدة فقط.

لكن شيئًا ما في داخله...
صوتٌ قديم، كأنّه صدى من زمنٍ آخر، همس في قلبه:

"هذا ليس دورك الآن."

نظر إلى الحجارة، ثم إلى الطين الذي لوّث ذكرياته، ثم خطا خطوة للوراء.

تراجع.

واختفى.

تركه يتنفس... بالكاد.

بقي ريتشارد ممددًا، جسده يرتجف من الألم، عين واحدة نصف مفتوحة، يشهق كأنّه يتشبّث بالحياة بأظافر دامية.

ثم...
دويٌّ محرّكات.
صفارات إنذار.

ضوء أزرق يتخلّل الأزقة.

سيارات الشرطة.

توقّفت فجأة عند المدخل، وهرع منها رجال مسلحون، يصرخون، يركضون، أحدهم صرخ:

"لقد شوهد يركض نحو الزقاق!! ابحثوا فورًا!!"

كأنهم كانوا يطاردون شبحًا... يطاردون "ظل ريفنشيد".

لكنهم كالعادة...
تأخروا.

لم يبقَ إلا جسد على وشك الانهيار... وجدار ملوث برسالة لم يفهمها أحد بعد.

ركضت سيلينا كاروس، الشرطية ذات العيون الصارمة والقلب المليء بالعزيمة، تلاحق خطواتها الأرض بحماس متقد. كل نبضة في صدرها كانت ترجف خوفًا وحرقة في آن معًا. سمعت صوت تنفس ريتشارد المتقطع قبل أن تراه ممددًا على الأرض، الجسد يرتجف من الألم والدم ينساب ببطء من جروحه.

توقفت بجانبه بسرعة، وألقت نظرة فاحصة على وجهه المتألم، شعرت بقلبها يخفق بقوة وكأنها تريد أن تعيد له الحياة نفسها. لم يكن هذا المشهد مألوفًا لها، لكنها لم تسمح للذعر بأن يسيطر عليها، بل قررت أن تكون صخرة وسط عاصفة الألم والدمار.

بيدها المرتجفة قليلاً، حاولت أن توقف النزيف بأطراف أصابعها، بينما ترفع رأسه قليلًا بصعوبة، وقالت بصوت ملؤه الإصرار:
"تمسك بي يا ريتشارد، لا تتركني الآن. أنت أقوى من هذا الألم. نحن لن ندعهم يفوزون، لا بعد كل شيء."

كانت تعرف أن الظل الذي هاجمه لم يكن مجرد مجرم عادي، بل كابوس حي، كائن من الظلام، يجعل كل لحظة صراع معه تحمل ثقل موت ونجاة معًا. لكن سيلينا، رغم كل الخوف الذي يعتريها، كانت مستعدة لتحدي هذا الظلام، كانت مستعدة للوقوف بجانب ريتشارد حتى آخر قطرة دم في جسده.

بمجرد أن ارتفع صوت أنفاس ريتشارد صارخًا في هدوء الليل، انسحب الألم من جسده فجأة كأنه عاصفة عاتية تلقي بكل شيء في طريقها. أغمى عليه، وغابت عيناه عن العالم الذي حوله، تاركًا جسدًا منهكًا ومحطمًا على الأرض الموحلة.

سيلينا لم تتردد، استدارت بسرعة لتصرخ بطلب المساعدة، والشرطة تجمعته على عجل، حملوه برفق وحذر، كل خطوة كانت تترافق مع نبضات قلب يختنق بالقلق. في سيارة الإسعاف، كان صمت الرعب يملأ الأجواء، أصوات الأجهزة الطبية تتابع كل إشارة من جسده المتعب، بينما سيلينا تمسك بيده بحزم، تحاول أن تنقل له بصمتها، بأنها لن تتركه يموت وحده في هذا الزقاق الملعون.

حين وصلوا إلى المستشفى، دخل ريتشارد غرفة الطوارئ، وأشعة الضوء البيضاء القوية تنير وجهه الشاحب، تتابع الأجهزة الطبية كل نبضة وكل نفس، في معركة خفية بين الموت والحياة.

كانت الغرفة تعج بصمت مشوب بالتوتر، أغلب المحققين جالسون في ردهة الانتظار، ينقلون أنظارهم بين بعضها وبين باب غرفة الطوارئ التي يُحتجز فيها ريتشارد كرين. القلق كان يملأ أجوائهم، ليس فقط لأن ريتشارد هو الوحيد الناجي من مواجهة ظل ريفنشيد، بل لأنه الحلقة الأهم التي يمكنها أن تكشف النقاب عن ذلك الغموض القاتل.

كل واحد منهم يتساءل في سره: كيف وصف ظل ريفنشيد؟ كيف استطاع ريتشارد النجاة من قبضة هذا الكائن المظلم، الصامت، والمميت؟

الساعات تمر ببطء، ورغم الجرح العميق، بدأت ملامح ريتشارد تستعيد حيويتها شيئًا فشيئًا. بدأ يفتح عينيه متألمًا، لكن عينيه كانت تحملان بريقًا من العزم. تقدّم أحد المحققين، وبصوت منخفض يحاول أن يبدو حازمًا:

"ريتشارد... نحتاجك أن تخبرنا بكل ما رأيته، كل تفصيل يمكن أن يساعدنا في القبض على ظل ريفنشيد. أنت الناجي الوحيد، والأمل الوحيد."

رفع ريتشارد رأسه ببطء، وابتلع الألم، ثم همس بصوت مبحوح، لكنه ملوء التحدي:
"لم أرَ وجهه... لكنه كان كالظل... طويل القامة، بلا صوت، بلا رحمة... فقط... يلاحقك حتى يقتلك. هذا ليس مجرد قاتل، إنه كابوس حي."

في الصباح التالي، كانت الشمس تكافح لاختراق نوافذ الحمام المغبرة في ذلك المبنى المهجور، حيث وقف ليام تحت دفق الماء البارد المنساب من رأس الدش المتصدع. الماء ينساب فوق جسده، يذيب الدم المتجلط الذي يكسو جروحه، ينهمر فوق كتفيه المتشنج، يحمل معه عبء الألم والخيانة التي تغلغل في عروقه.

كل قطرة من الماء كانت كأنها تحاول محو ذلك السواد الذي تسلل إلى قلبه، لكن دون جدوى. فقد كان الدم الذي على جلده ليس فقط دمًا، بل رمزية لتلك الحرب الخفية التي يخوضها ضد العالم، ضد فيكتور، ضد غابرييل، وضد كل من خانوا روحه وعبثوا بأحلامه.

وقف ليام متجمدًا، عينيه المبللتان بالماء تحملان بريقًا من الحقد المكبوت، والدمعة الوحيدة التي لم تُذرف بعد تتخبط في داخله بين نار الغضب ومرارة الفقد. في كل مرة ينظر إلى جسده المتضرر، يشعر أن هذا الألم جسده ما هو إلا انعكاس لما في قلبه من جراح لم تلتئم.

تذكر ليام كل مشهد، كل لحظة من الليلة الماضية: سقوط ريتشارد، الخنجر الصامت الذي كان يمسكه بحزم، الصمت المخيف الذي كان يلف المكان، وصدى صراخ المرأة التي لا تزال ترن في أذنه. تذكر كرهه المتزايد لكل من حوله، لذلك الظل الذي كان يطارده، ليرى في كل خطوة له، علامة على أنه يجب أن يواصل السير في هذا الطريق القاتم.

انسكب الماء عن وجهه، وخطوط التوتر على جبينه لا تزال واضحة، لكنه رفع رأسه ببطء، ناظراً إلى مرآة صغيرة متصدعة معلقة على الحائط، رأى فيها شخصًا تحوّل من صبي بريء إلى رمز للظلام والانتقام. ابتسامة هادئة، لكنها مليئة بالقوة، ارتسمت على شفتيه الجافتين.

"هذه هي البداية الحقيقية"، تمتم ليام لنفسه بصوت خافت لكنه حازم، "لن أترك أحدًا يسرق مني حياتي أو يقتل أمل العدل الذي ما زال ينبض في داخلي."

أطفأ الماء، ورفع المنشفة ببطء ليمسح بها وجهه وجسده المتعب. كان يعلم أن الطريق أمامه ليس سهلاً، وأن الظل الذي بات يحمله على كتفيه لن يتركه يرتاح. لكنه أيضًا، كان يعلم أن كل جرح وكل نقطة دم في جسده، هي وقود يستمد منه قوته للبقاء على قيد الحياة، وللقتال حتى النهاية.

خرج ليام من الحمام، جسده ما زال يرتجف قليلاً، لكنه كان أكثر وضوحًا من أي وقت مضى: الانتقام ليس خيارًا، بل قدر مكتوب عليه أن يحمله، ظل ريفنشيد الذي لا يُمس.

كانت الأخبار تنتشر كالنار في الهشيم، كأنها عاصفة جرفت كل شيء في طريقها. اعتداء ظل ريفنشيد على المحقق ريتشارد أصبح حديث المدينة، وزقاق ريفنشيد الضيق صار عنوانًا للرعب والقلق. الصحف والمواقع الإلكترونية ملأت صفحاتها بالعناوين العنيفة، مكررة قصة الهجوم الوحشي الذي كاد أن يودي بحياة ريتشارد.

"ظل ريفنشيد يهاجم مجددًا... والضحية ينجو بأعجوبة!"
"مجزرة في الزقاق الجنوبي: المحقق ريتشارد كرين نجا من قبضة الظل القاتل!"
"هل سيقف ظل ريفنشيد عند حد؟ الشرطة في حالة تأهب قصوى."

في المقاهي، في الطرقات، وحتى في البيوت، كان الجميع يتحدث عن ذلك الهجوم، عن ذلك المجهول الذي يبدو كظلال الليل نفسه. كان الناس يغلقون نوافذهم بحذر، ويتجنبون الزوايا المظلمة التي يُقال إن ظل ريفنشيد يتربص فيها. كل من يعرف ريتشارد يتساءل كيف نجا، وما السر وراء ذلك الظل الغامض الذي لم يُرَ أحد وجهه، لكن وجوده كان كافيًا لزرع الخوف في القلوب.

وسائل الإعلام استغلت الحدث لخلق حالة من الرعب الممزوجة بالتشويق؛ تذاع تحليلات حول شخصية ظل ريفنشيد، تحكي قصصًا متضاربة عنه، بعضها يراه كوحش لا يرحم، وبعضها الآخر يلمح إلى أنه يحمل غرضًا شخصيًا أكثر تعقيدًا.

أما في أروقة الشرطة، فقد ارتفعت درجة التأهب. الاجتماعات طالت، والخطط وُضعت لتعقب هذا الظل الذي هز المدينة. الجميع يعلم أن الهجوم على ريتشارد ليس مجرد حادث عابر.

الأخبار المتفجرة عن اعتداء ظل ريفنشيد على المحقق ريتشارد لم تكن فقط مادة للإعلام، بل تحولت سريعًا لساحة خصبة للأقاويل والأكاذيب. بعضهم، وبلا ذرة ضمير، استغل الفوضى والهلع ليزرع بذور الشك والخوف، يحاولون توجيه الرأي العام نحو مسارات مظلمة تثير القلق والريبة.

بدأت الشائعات تتسرب من تحت الطاولات، عبر الهمسات في المقاهي والأحياء الشعبية، مرورًا بمنصات التواصل الاجتماعي حيث تُنشر معلومات مجهولة المصدر بلا تحقق. البعض قالوا إن ظل ريفنشيد ليس إنسانًا بل كائن خارق لا يموت، يسير بين الظلال كأنه روح مظلمة تحمل لعنة لا تنتهي. آخرون تحدثوا عن مؤامرات ضخمة، أن الشرطة نفسها تخفي حقيقة الأمر، وأن المحقق ريتشارد ربما كان ضحية لفخ أعده خصومه.

تصدرت عناوين مثيرة مثل:

"ظل ريفنشيد: هل هو قاتل أم روح انتقام؟"

"مؤامرة تحاك في الظلال: هل تسللت الفساد إلى قلب الشرطة؟"

"هل ريتشارد كرين في ورطة؟ حقائق وخفايا لم تُكشف!"

البعض زاد الطين بلة، وأعلن أن هناك جماعات سرية تستغل الرعب لفرض نفوذها، وأن الزقاق الجنوبي أصبح منطقة ممنوعة على الجميع إلا لعشاق الموت والظلال.

هذا كله خلق جوًا من القلق الشديد، وأدى إلى انقسام المجتمع بين من يصدقون هذه الخرافات وبين من يحاولون التمسك بالحقائق. كل هذا الزخم جعل الحقيقة تذوب في بحر من الأكاذيب، والمدينة باتت تعيش بين خوف حقيقي وأوهام مُدمرة، ما جعل كل خطوة في الشوارع تصبح مليئة بالريبة والتوجس.

وفي وسط هذا كله، ظل ريتشارد يحاول استجماع قواه، محاولًا أن يبني لنفسه درعًا من الحذر واليقظة، فليس فقط ظل ريفنشيد من يطارده، بل جحافل الشائعات التي قد تقتله أحيانًا قبل أن تلمسه الأيادي.

خرج ريتشارد من المستشفى وهو يرتجف من التعب والضربات التي تلقاها، لكن لم يكن لديه وقت للراحة. ما إن خطا خطوة خارج الباب حتى وجد نفسه محاطًا بكوم هائل من الصحفيين وكاميراتهم الموجهة نحوه، وصيحات الناس الغاضبة التي تعلو في كل اتجاه.

الضوء المبهر للأضواء الكاشفة مزق عينيه، وميكروفونات الصحافة توجهت إليه كأنها أسلحة، كل منهم يحاول أن يحصل على كلمة واحدة تُغير مسار القصة أو تهدم سمعة الرجل. صراخ الصحفيين لم يتوقف:

"هل أنت تتعاون مع ظل ريفنشيد؟ هل أنت جزء من المؤامرة؟"
"كيف نجأت؟ هل كان هذا ضربًا متعمدًا؟"
"هل ستكشف الحقيقة أم ستظل تغطي على قاتل الظلال؟"
"هل الخطر الحقيقي هو الظل أم من في داخل الشرطة؟"

الأسئلة تنهال عليه بلا توقف، وصراخ الجمهور المختلط بين الغضب والخوف يحاصر المكان، أصوات متشابكة تشبه صدى عاصفة تعصف بالعقول. بعض الناس رفعوا لافتات تدعو إلى كشف الحقيقة، وآخرون كانوا يوجهون إليه الشتائم والاتهامات بالخذلان.

ريتشارد وقف وسط هذا الزخم، متماسكًا رغم الارتجاف الظاهر في عينيه. رفع يده ليهدئ من حدة الفوضى، صوته كان جافًا لكنه حازمًا:

"أنا هنا لأقول الحقيقة. لا تعاون بيني وبين ظل ريفنشيد، وكل ما حدث كان من أجل إنقاذ المدينة من خطر حقيقي."

لكنه لم يستطع إخفاء الخوف الذي تسلل إلى نبراته، ذلك الخوف من أن يبقى وسط هذه العاصفة وحده، وأن يكون بين مطرقة الظل وسندان الناس المشتعلة غضبًا.

وفجأة، وسط دوامة الأسئلة والضجيج المتصاعد، اقتحم كايل المكان بقوة، يرافقه مجموعة من رجال الشرطة المهيبين. وقف أمام الحشود التي تتهافت على المحقق ريتشارد، وصاح بصوت جهوري ملؤه الحزم والثقة:

"كفى! اذهبوا بعيدًا الآن، دعوه يستريح. من لا يلتزم، سأجعل منه عبرة في السجن!"

كانت كلماته كالصاعقة التي أوقفت الجميع، وانتشرت نظرات التهديد من عيون رجال الشرطة الذين حضروا معه، مما أجبر الصحفيين والفضوليين على التراجع بتردد. ساد صمت ثقيل المكان، وكأن الحشد كله تذكر فجأة قوة القانون التي يحملها هذا الفريق.

ريتشارد، رغم الألم والتعب الذي ينهك جسده، لم يستطع إلا أن يشعر بالامتنان لوجود كايل وزملائه في الوقت المناسب، فهم الدرع الذي يحميه من ضغط الناس وغدر الشائعات.

في شقته المعتمة، جلس ليام على الأرض، ظهره مسنود إلى الجدار، وستارة النافذة تتحرك بهدوء مع نسمة صباح رمادية. هاتفه القديم موضوع على الطاولة، والشاشة تضيء كل دقيقة بخبر عاجل أو إشعار جديد.

فتح الأخبار.

عناوين حمراء، صور لوجه ريتشارد المغطى بالكدمات، مقاطع مصورة لحشود أمام المستشفى، وأسئلة الصحفيين تتكرر بلا توقف:
"هل المحقق ريتشارد كان يتعاون مع ظل ريفنشيد؟"
"لماذا لم يُقتل؟"
"هل هناك أسرار داخل جهاز الشرطة؟"

ضحك ليام بسخرية خافتة، ثم مسح بقعة دم جافة على رقبته بإصبعه، وتنهد. لم يكن يهتم بالأكاذيب. لكنه راقبها... بدقة. بل كان يتغذى على الفوضى التي تنشرها.

قرأ إحدى التغريدات:
"يبدو أن المحقق ريتشارد يعرف الظل شخصيًا، وإلا لماذا لم يُقتل؟"

وابتسم ليام ابتسامة باردة، كأنها تنتمي لشخص لم يعد موجودًا.

هو يعرف تمامًا لماذا لم يقتله.
تركه حيًّا عن قصد. لأنه يحتاجه... شاهداً حياً، خائفًا، يتنفس الكوابيس التي خلقها ليام بيديه.

أغلق الهاتف، ثم وقف ببطء، مشى عاري الصدر نحو المغسلة، وبدأ بغسل الدم المتبقي بين أظافره. قطرات الماء كانت تنحدر من جسده كأنها تطهره من عنف البارحة، لكن عيناه... كانتا أبرد من البلور.

"يبدو أنني بدأت أخيفهم حقًا..." قالها همسًا، كأنها وعد لنفسه.

ظل ريفنشيد لم يَعُد مجرد شبح في الزقاق.

لقد صار فكرة.
رعبًا متجسدًا.
واسمًا تردده أفواه المدينة... ولا أحد يعرف من هو.

كانت الشمس قد بدأت تتسلل عبر ستارة الغرفة، مرسلة خيوطها الذهبية على سرير إليورا، حيث جلست كل من إليورا وسيلست، متكئتين على الوسائد، والهدوء يخيم على المكان كستار من الصمت القَلِق.

هاتف سيليست كان في يدها، وإصبعها ينزلق على الشاشة سريعًا وهي تتنقّل بين المقالات والتعليقات التي اجتاحت الإنترنت في الساعات الأخيرة. فتحت صفحة إخبارية شهيرة، حدّقت قليلًا، ثم شهقت بصوتٍ مسرحيّ وقالت:
"انظري! عنوانٌ جديد: ظل ريفنشيد ينجو مرة أخرى... فهل هناك من يحميه من الداخل؟"

رفعت إليورا رأسها ببطء من بين صفحات دفترها، وقالت بنبرة مُتعبة:
"يكرّرون العناوين ذاتها، لا جديد. لا شيء موثوق."

لكن سيلست تابعت القراءة بصوتٍ مرتفع، كأنها تستمتع بوقع الكلمات، لا بمضمونها:

"يقول الكاتب إن المحقق ريتشارد قد يكون متورّطًا بعلاقة سريّة مع ظل ريفنشيد، وإن إصابته الأخيرة لم تكن إلا جزءًا من تمثيلية مرتّبة بين الطرفين!"

رمقتها إليورا بنظرة ضيقة، أغلقت دفترها وقالت بجفاف:
"سخافة."

ضحكت سيلست، أسندت رأسها على كتف إليورا وقالت بمزاح:
"لكن... لو كانت صحيحة، ألن يكون الأمر دراميًا إلى حدٍ لا يُحتمل؟ تخيّلي: ريتشارد، رجل القانون، يتعاون مع المجرم الأكثر رعبًا في ريفنشيد!"

هزّت إليورا رأسها ببطء وهمست:
"بل تخيّلي كم من الأبرياء ماتوا... بينما كان الناس ينشغلون بسيناريوهات كهذه."

توقّفت سيليست عن الضحك، حدّقت في الهاتف للحظات قبل أن تقول بصوتٍ أكثر هدوءًا:
"لكن... لماذا لم يقتله؟ ظل ريفنشيد لم يسبق له أن ترك أحدًا على قيد الحياة."

أجابت إليورا، وهي تنظر نحو النافذة المفتوحة:
"ربما أراد له أن يعيش... ليشهد. أو ليتحوّل إلى قطعة شطرنج في اللعبة القادمة."

ساد صمتٌ ثقيل لثوانٍ، ثم التفتت سيليست نحو إليورا وهمست:
"أحيانًا أشعر أنّ هذا الظل أقرب مما نعتقد... كأنه يراقب من مكانٍ ما."

نظرت إليورا إلى عينيها، وأجابت ببطء:
"أحيانًا... لستُ متأكدة إن كنتِ تمزحين أم تخافين حقًا."

أجفلت سيليست، ثم ضحكت بخفة، لكن عينيها ظلّتا معلقتين على الخبر، على وجه ريتشارد المصاب، وعلى التعليقات الساخنة التي لا تنتهي. والهاجس ظلّ يربض في زاوية الغرفة... صامتًا، منتظرًا.

ساد الغرفة صمت ثقيل، كأن كل الضوضاء في الخارج توقفت احترامًا لتوتر اللحظة. كانت إليورا تحدق في اللاشيء، في نقطة غامضة على الحائط المقابل، بينما سيلست لا تزال ممسكة بهاتفها، لكن أصابعها توقفت عن التمرير.

قطعت إليورا الصمت فجأة، بصوت خافت لكن واضح:
"هل يمكنكِ الذهاب معي بعد الثامنة... إلى حي هولبروك؟"

رمشت سيليست ببطء، واستدارت نحوها بتردد:
"لماذا؟"

أجابت إليورا دون أن تنظر إليها، وكأنها تخشى أن يُقرأ شيء ما في عينيها:
"لألتقي بشخص."

ارتفع حاجبا سيليست فورًا، وألقت بالهاتف جانبًا قبل أن تقول، وقد علا صوتها قليلًا:
"في حي هولبروك؟ في الليل؟ إليورا..."

قاطعتها إليورا بصوتٍ أكثر هدوءًا:
"لن أتأخر. فقط... أحتاج أن أراه."

تنهّدت سيليست بوضوح، ثم أجابت بنبرة آسفة:
"أنا مشغولة الليلة، حقًا. كان لدي موعد مع والدتي. ثم... ألا تظنين أن التجول في الليل، وفي هذا الحي بالذات، خطر؟ خصوصًا بعد ما حدث لريتشارد؟ الجو كله مريب."

ابتلعت إليورا كلماتها، أومأت برأسها بخفة، كأنها توقعت هذا الرد مسبقًا.
قالت سيليست بلطف:
"إن كان الأمر مهمًا إلى هذا الحد، فلنؤجل الموعد. أو أخبريني... من هذا الشخص؟"

لكن إليورا لم تجب. نظرت إلى هاتفها، ثم إلى النافذة... وكأن صدى الليل القادم بدأ يُسمع في صدرها قبل أن يحلّ فعلًا.

طأطأت إليورا رأسها قليلًا، وكأنها تزن القرار في عقلها مرة أخرى، ثم رفعت عينيها نحو سيلست وقالت بصوت هادئ، لا يحمل رجاءً ولا عتابًا، بل قرارًا قاطعًا يشبه الهمس البارد:

"لا بأس... سأذهب بمفردي."

تجمدت سيليست في مكانها، ولم ترد مباشرة. بدت الكلمات وكأنها صفعة ناعمة، لم تكن قاسية لكنها تركت أثرًا. نظرت إليها مطولًا، تقرأ تفاصيل وجهها، وتحاول أن تفهم ما الذي يدفعها لهذا الإصرار... ومن هو "الشخص" الذي يجعل إليورا تخرج وحدها في هذا الوقت، وفي هذا المكان بالذات.

أرادت أن تعترض، أن تقول لها: أنتِ لا تعرفين ما الذي تنتظرينه هناك...
لكن شيئًا في نظرة إليورا، في الهدوء الصلب الذي سكن عينيها، جعلها تدرك أن أي كلمة لن تُجدي.

قالت سيليست أخيرًا، بصوت منخفض:
"فقط... كوني حذرة. ولا تغلقي هاتفك."

أومأت إليورا، ولم تضف كلمة واحدة. نهضت عن السرير، توجهت نحو خزانتها، وبدأت بهدوء تختار ما سترتديه.
الساعة تشير إلى السابعة والربع... والليل، كما يبدو، لا ينتظر أحدًا.

في تلك الليلة، بينما كانت المدينة تُخفي أنفاسها تحت عباءة الضباب، جلس ليام وحيدًا في غرفته التي لا تحمل من الحياة سوى الظلال. الماء لا يزال يقطر من شعره بعد حمامه الطويل، وكان جسده مائلًا للأمام، مرفقاه على ركبتيه، وعيناه تحدقان في لا شيء.

كانت الساعة تقترب من الثامنة والنصف.

في داخله، كان الصمت أكثر ضجيجًا من أي صراخ. الأفكار تتزاحم كقطيع وحشي، لكن واحدة منها كانت تتصدر جميعها... نيةٌ سوداء، باردة، حاسمة.

الساعة التاسعة.

جرّ مقعدًا خشبيًا قرب النافذة، وفتحها قليلًا ليستنشق هواء الليل، كأنه يطلب إذنًا من الظلام نفسه. لم يكن بحاجة إلى الكثير من التحضير... كان يعرف المكان، يعرف الضحية، يعرف الطريق، ويعرف تمامًا ما سيفعله.

كانت يداه في حضنه، لكنه شعر بهما تتوقان إلى العنف.

"هذه المدينة تحتاج إلى أن تتذكّر أنني لم أغب."
همسها لنفسه، بصوت خافت، كأنها تعهّد لا وعد.

ثم نهض، ومشى إلى الخزانة الصغيرة قرب الباب، أخرج منها صندوقًا أسود قديم الطلاء، فتحه ببطء، وبدأ يُخرج منه أدواته المعتادة... قفازان جلديّان، سكين صغيرة من نوع خاص، شريط لاصق، وقناع أسود كالليل.

نظر إلى القناع للحظة، ثم تمتم:
"إن لم يفهموا الرسالة بعد... سيفهمونها الليلة."

ثم أخذ نفسًا طويلًا، أغلق الصندوق، وغادر الغرفة.
كان الليل يميل إلى التاسعة، وليام على موعد مع الجريمة.

خرج ليام من باب البناية المهجورة في هولبروك، خطواته هادئة كمن يرقص مع الموت، ووجهه ساكن لا يُظهر أي انفعال... سوى تلك الابتسامة الطفيفة التي ارتسمت فجأة حين وقعت عيناه على رجلٍ عجوز يمشي ببطء على الجانب الآخر من الطريق.

الرجل كان يحمل كيسًا بلاستيكيًا يتدلّى من يده المرتعشة، يخطو بخطى ثقيلة، كأن الهواء نفسه يعيق حركته.

ليام وقف للحظة في الظل، رأسه مائل قليلًا، كمن يرى فريسة ضعيفة في غابةٍ لا تعرف الرحمة. الشارع خالٍ، والصمت كثيف... لكنه لم يتقدم بعد، فقط ابتسم.

في الجهة الأخرى من الحي، كانت إليورا قد وصلت تواً. خطواتها كانت بطيئة، متوترة، ويداها في جيبي معطفها الطويل. الليل يهمس حولها، والأنوار الخافتة تتراقص فوق الأرصفة كأرواحٍ شاحبة.

نظرت حولها، تتفحّص الوجوه العابرة – إن وُجدت. كان الحي صامتًا أكثر مما تخيلته، صامتًا بشكل غير مريح.

تمتمت لنفسها:
"هولبروك... إن كنت هنا يا ليام... فقط، أرني وجهك."

واصلت السير ببطء، تقرأ في الشوارع، في النوافذ، في الصمت، في العتمة... علّها تجد فيه لمحة من وجهه الذي لم تره بعد، لكنها تحمل صورته في خيالها، محفورًا بين نبضاتها منذ أن بدأت خيوط الشك تنسج بينهما.

وفي مكان آخر، كانت قدم ليام قد تحركت خطوة. العجوز يقترب من زاوية الشارع، بطيء، لا يلاحظ شيئًا.

إليورا بدورها كانت تقترب، لا تدري أن القدر يوشك أن يجمعها بـ"ظل ريفنشيد"... ولكن لا على هيئة ظل، بل على هيئة رجلٍ تخلّص للتو من رحم الجريمة.

ثم فجأة، وقفت إليورا عند زاوية حادة من الجدار القديم، حيث الطوب المتداعي يشكّل حاجزًا بين الحيّ المظلم وبين شيء مجهول ينتظر خلفه.

سمعت أصواتًا مكتومة، نابعة من الجانب الآخر؛ همسات مشوشة، تلاشت ثم تحولت لصراخ خافت يحمل في طيّاته رعبًا خفيًا، كما لو أن الألم يكتم نفسه كي لا يفضح مأساة لا يُراد لها أن تُكشف.

تجمّد قلب إليورا للحظة، صمتُ الليل قد تقطع بصرخة يأس بدت وكأنها تطالب بالمساعدة أو تنتحر تحت وطأة ألمٍ لا يُحتمل.

نظرت حولها بسرعة، لكن الشوارع كانت فارغة، والظلال تلعب بأشكالها في ضوء القمر الباهت.

حدّقت في الجدار وكأنها تحاول استراق النظر خلفه، لكنها لم تستطع رؤية شيء سوى ظلمة تخفي أسرارًا وأهوالًا تنتظر الفتح.

صوت الصراخ تكرر، أقوى هذه المرة، ينبعث من داخل الجدار وكأنه نداء استغاثة من روح محبوسة أو سرّ غامض مُخبأ.

ارتجفت إليورا، وقلوبها تخفق بعنف، كانت تعرف أن هذا الصوت لن يكون مجرد صدفة... شيء مظلم ينتظرها هناك، شيء مرتبط بظل ريفنشيد، وبالليل الذي لا يرحم.

قررت إليورا، رغم خفقان قلبها السريع وارتعاش يدها، أن تلقي نظرة فقط.

اقتربت ببطء من الجدار المتهالك، يديها ترتعشان قليلاً لكنها مصممة على كشف سرّ تلك الأصوات المظلمة التي خطفت انتباهها، التي جعلت عقلها ينبض بالفضول والخوف في آنٍ واحد.

رفعت أذنها بالقرب من الطوب البارد، محاولة أن تميّز مصدر الصراخ، لكن كل ما وصلها كان همسات متقطعة وأصوات خافتة، تتداخل مع نسيم الليل البارد الذي كان يلف الحيّ بهدوء.

ترددت قليلاً، لكنها أدركت أن تجاهل هذا النداء لن يجلب لها إلا المزيد من الأسئلة التي لن تجد لها إجابات في مكان آخر.

كانت تعلم جيدًا أن هذا الحي، هولبروك، يحمل في زواياه المظلمة قصصًا وقنابل موقوتة، وأن كل خطوة تخطوها قد تقربها أكثر من حقيقة ظل ريفنشيد المرعب.

تنفست بعمق، ثم أمسكت بزاوية الجدار بيدها، مستعدة لمواجهة ما سيأتي، حتى وإن كان ذلك يعني الاقتراب من المجهول.

نظرت إليورا وهي مسندة نصف جسدها بترقب على الجدار، عيناها تلتقطان المشهد بتوتر لا يهدأ، حيث وقف ظل ريفنشيد أمامها، مغطى بثياب سوداء داكنة، لكن هذه المرة بدت ملامحه واضحة، بلا قناع يختبئ خلفه. وجه شاحب، عيونه متقدة بنار الانتقام، وكأن كل غضب الدنيا يسكن داخله.

في حركة خاطفة وسريعة كأنها رياح عاتية، سحب خنجره اللامع وطعن الرجل العجوز الذي كان أمامه، والدماء تفجرت من الجرح، تتطاير ببطء نحو الأرض، وصوت الصراخ المكتوم يختنق بين شفتي الرجل المسن قبل أن يسقط بلا حياة.

ارتجف قلب إليورا بشدة، وبدأت تردد في نفسها هل تقترب أم تختفي، لكن قبل أن تتمكن من اتخاذ قرار، التفت ظل ريفنشيد ببطء نحو الصوت، وعيناها التقت بعيونه، اللحظة التي رأته فيها بوضوح كانت كالصاعقة؛ لم يكن مجرد ظل، بل كان ليام، ذلك الشاب الذي تحكي المدينة قصته، القاتل المظلم الذي لا يرحم.

انهار عقل ليام بين الدهشة والغضب حين لمح إليورا تقف هناك، عيناها تفيضان بالخوف والصدمة، كما لو أن العالم كله قد انقلب رأسًا على عقب في لحظة واحدة. هي الشابة التي جاءت لتتأكد إذا كان هو حيًا أو مقتولًا على يد ظل ريفنشيد، وها هي تقف الآن تواجه الحقيقة المرعبة التي لم تتوقعها.

لم يكن لديه خيار، فلا بد من الركض خلفها، أن يلاحقها ويمنعها من كشف سره. تسارعت ضربات قلبه، وارتفعت أنفاسه في ليل هولبروك البارد، وهو يركض بخوف عميق يختلط بالغضب، غريب بين سعيه للحفاظ على حياته وبين الرغبة الجامحة في أن لا

يرى أحد وجهه الحقيقي.

إليورا بدت كطيف يهرب بين الظلال، والليل يحتضن خطواتها المبللة بالرعب، لكنها لم تكن تعلم أن ظل ريفنشيد، أو بالأحرى ليام، يلاحقها بإصرار قاتل، وقلوبهم تتصارع في سباق حياة أو موت لا هوادة فيه.

جفَّ حلق إليورا، وساقاها بالكاد تحملانها بعد كل ذلك الركض وسط الظلمة والضياع. توقّفت، تلهث كأن قلبها يريد أن يهرب من صدرها، وحدّقت خلفها بعينين مذعورتين، لترى ليام يقترب بخطى ثابتة، وجهه مزيج بين الغموض والذنب والقلق... والتهديد.

كان صامتًا، عينيه تحدّقان فيها كما لو أنه يقرؤها للمرة الأخيرة.

رمشت إليورا بعنف، ثم هبطت عيناها إلى الأرض، فوقعت على قطعة زجاج مكسورة، كانت جزءًا من مرآة قديمة أو نافذة مكسورة. ترددت لحظة... ثم انحنت سريعًا وأمسكت بالزجاج، ورفعته نحو صدرها كمن يحاول التهديد بما تملكه، رغم ارتعاش يديها.

– "لا... تقترب!" صرخت بصوت مبحوح، لم يكن قويًا لكنه خرج من أعماقها، ممتزجًا بالخوف والغضب والخذلان.

توقف ليام.

الهواء بينهما كان مشحونًا، الزمن مجمّد، وكأن العالم بأسره توقف ليستمع إلى ما سيحدث الآن. نظر إلى الزجاج المرتجف بيدها، ثم إلى عينيها المرتبكتين، ولأول مرة... لم يكن "ظل ريفنشيد" هو من ينظر إليها، بل ليام ڤوس، الشاب الذي عرفته ذات مرة.

لكنه لم يتكلم.

ولا هي.

كأن الكلمات باتت أصعب من الصمت، وأقسى من الحقيقة.

اقترب ليام خطوةً واحدة فقط، خطوة كانت كافية ليتغلغل صوته بين الفوضى، ليخرج منه نبرته المتكسّرة بشيء من التوسّل:

– "دعيني أشرح لكِ..."

لكن صوته، رغم هدوئه، كان كفيلاً بإشعال العاصفة داخل إليورا. وكأن تلك الكلمة وحدها، "أشرح"، كانت مهزلة في نظرها أمام ما رأته قبل دقائق.

صرخت فجأة، بصوت أقرب للصراخ منه للكلام:
– "لا تخطُ!"

كانت يدها ما تزال مرفوعة، والزجاج يرتجف في قبضتها.

حدّق ليام في عينيها، لا خوفًا من الزجاج، بل من ما كُسر بينهما... من ذلك الحاجز الذي بات فجأة جدارًا هائلًا.

الهواء كان ثقيلًا بينهما، والليل حولهما لا يزيد إلا خنقًا، وكل ما تبقّى كان بين ظلال ماضٍ عرفها... ومستقبل ربما لن يعترف بها أبدًا.

اقترب ليام منها فجأة، بخطوة خاطفة، ويده امتدت نحو يدها المرتجفة كأنما يتحدى ارتعاشها.

أمسك الزجاج المكسور بعزم، رغم أنه خدش راحته، ثم انتزعه من قبضتها ورماه بعيدًا، فارتطم بالحائط وتهشّم أكثر، مطلقًا صدىً حادًا في الزقاق الضيق.

صرخ في وجهها، صوته خرج مشحونًا بغضبٍ مشوب بالخوف:

— **"هل جُنِنتِ؟! ماذا كنتِ ستفعلين؟ تطعنين نفسكِ؟! أهذا ما وصلنا إليه؟!"**

كان صدره يعلو ويهبط بسرعة، ووجهه منكمشًا كمن لم يعد يعرف نفسه، أو يعرفها.

لكن إليورا لم تهتز. كانت تحدّق في عينيه، لا بزجاجها بل بدهشةٍ خرساء. وجهه... صوته... لم يكن من المفترض أن يكونا له. ليس هو، ليس ليام الذي عرفته.

قالت بصوت متقطّع:
— **"أنت... أنت قتلتَ رجلًا للتو، أمامي... ثم تتجرأ وتطلب منّي أن أفهم؟!"**

أراد أن يصرخ مجددًا، أن يُدافع عن شيء لم يعد له اسم... لكن الكلمات علقت في صدره.

السكين لم تعد في يده، لكن الطعن كان قد حدث.

ساد الصمت بينهما لحظة، سوى أنفاسهما المتقطعة، كأن الليل نفسه انكمش حول الزقاق خائفًا مما سيقال.

حدّق ليام في عينيها، في نظرتها التي كانت يومًا ممتلئة بالفضول والأمان، والآن لا يرى فيها سوى الرعب والخذلان. ارتجف فكه، وراح يتقدم خطوة أخرى، لكن هذه المرة لم يكن التوسل في عينيه... بل الحسم.

خفض صوته، لكن نبرته كانت أقسى من الصراخ.

— "إليورا... لا تجبريني."

اتسعت عيناها، تراجعت خطوة إلى الوراء، لكنها لم تسقط... لم تصرخ... بل همست، كمن تحاول أن تُخرج الهواء من صدر مكسور:

— "أتهددني؟"

قال ليام بصوت خفيض، لا رجاء فيه هذه المرة:

— "إن كشفتِ أمري... لن أستطيع تركككِ وشأنكِ. لن أملك خيارًا... هذا طريقٌ لا عودة فيه، وأنا لم أعد أملك ترف الخسارة."

اقترب أكثر، حتى صارت المسافة بينهما تنذر بانفجار آخر، لكنه أكمل بصوت اختنق في نهايته:

— "لا تدمري ما تبقّى منّا."

عيناه كانت صادقتين أكثر مما يحتمل الموقف.

اندفعت إليورا بكل ما تبقّى في قلبها من رفض، دفعته بكلتي يديها بعنف مفاجئ وهو لم يتوقع منها أن تلمسه أصلًا، فترنّح خطوة للخلف.

ركضت... كأن الأرض تحترق تحت قدميها.

لم تلتفت. لم ترد أن ترى وجهه ثانية. لم تفكّر حتى إن كانت تهرب منه أم من نفسها، من الصورة التي انكسرت في عقلها، من حقيقةٍ لم تكن تنتظرها حتى في أسوأ كوابيسها.

أما هو، ظل واقفًا.

لم يلاحقها.

عيناه ظلّتا معلقّتين على الزقاق الذي ابتلع ظلها، وصدى خطواتها كان كلكمة بطيئة على صدره.

همس لنفسه كمن يتذوّق وجعًا يعرف أنه اختاره:

"هربتِ الآن... لكن الحقيقة ستبقى."

ثم أدار ظهره واختفى في عتمة ريفنشيد، بينما في السماء بدأت الغيوم تتجمّع وكأن المدينة تستعد للبكاء.

وصلت إليورا إلى المنزل في ساعةٍ متأخرة، منتصف الليل كان يتنفس في كل ركنٍ من أركان الشوارع، والمدينة بدت كأنها تحمل سرّها معها، ثقيلة، صامتة، تراقب كل شيء ولا تقول شيئًا.

فتحت الباب بيدٍ مرتجفة، دخلت دون أن تصدر صوتًا، لم تنادِ أحدًا، لم تخلع حذاءها حتى. صعدت الدرج ببطء، كأن كل خطوة تحمل فوقها جبلًا من الصدمة، من الأسئلة، من الخوف.

دخلت غرفتها، أغلقت الباب خلفها ببطء، ثم أدارته بالمفتاح وأبقت يدها عليه لثوانٍ طويلة. كأنها كانت بحاجة لتأكيد أنها الآن في مكان لا أحد يستطيع الوصول إليه... لا هو.

استندت بظهرها على الباب، وانزلقت إلى الأرض. شعرها فوضوي، أنفاسها متقطعة، وعيناها متسعتان لا تزالان ترى فيهما وجهه.

همست بشفاهٍ تكاد لا تتحرك:
"ليام..."

ثم أمسكت رأسها بكلتا يديها.
ما رأته لم يكن كابوسًا... بل الحقيقة.

ظل ريفنشيد... هو ليام ڤوس.

بقيت إليورا جالسة على أرض غرفتها، الصمت يملأ المكان، لكنها كانت تسمع داخليًا صراخًا لا يهدأ... صوت الطعنة، نظرة ليام، وجهه تحت ضوء القمر وهو يقتل. كانت ترتجف، كأنّ روحها خرجت من جسدها وعادت محمّلة بجثة الحقيقة.

وقفت بتثاقل، توجهت نحو النافذة، سحبت الستائر ببطء وفتحت الزجاج. الهواء البارد صفَع وجهها، وكأنّه يُعيدها للواقع. نظرت إلى السماء... لا نجوم، فقط الغيوم الكثيفة، تمامًا كما داخلها.

همست مرة أخرى بصوتٍ مبحوح: "لماذا...؟ لماذا أنت؟"

ثم خطت إلى مكتبها، سحبت دفترًا صغيرًا من الدرج، وفتحت صفحة بيضاء، أمسكت قلمًا وبدأت تكتب – ليس لأنّها تعرف ما الذي تكتبه، بل لأنها لا تعرف ما الذي يجب أن تفعل.

كتبت:
رأيته... كان هو. ليام ڤوس. كان يقتل، وكان لا يرتدي قناعًا. عرفت عينيه. عرفت ملامحه. لكن كيف؟ لماذا؟ كيف يمكن أن يكون هو...؟

ثم توقفت، أسندت جبينها على الورقة، وارتعش كتفها وهي تحاول أن تحبس الدموع. لم تكن تبكي من الحزن فقط، بل من التمزق... التمزق بين ما كانت تؤمن به، وبين ما رأته الليلة.

في زاوية الغرفة، ظل الهاتف يضيء كل عدة ثوانٍ إشعارات، رسائل، أخبار... الجميع يتحدث عن ظل ريفنشيد، عن الجريمة الجديدة، عن العجوز القتيل، عن الشبح الذي لا يُرى.
لكن إليورا... كانت قد رأته. رأته بكل وضوح.

وسؤال واحد بقي يحاصرها من الداخل: هل أخبر أحدًا... أم أواجهه؟

كان ليام جالسًا على الأرض قرب الحائط البارد في منزله، أحد ذراعيه متكئ على ركبته، والذراع الأخرى تتدلّى خاملة بجانبه.
عيناه متسعتان بلا رمش، تحدقان في اللاشيء، كأنما يرى شريطًا لا ينتهي من الذكريات، أو ربما كوابيس متكررة. الجدار أمامه ملوث ببقع حمراء داكنة، لم ينتبه لها، كما لم ينتبه أن قميصه الأسود قد التصق بجلده من الدم الجاف.

البيت كان ساكنًا، إلا من صوت أنفاسه الثقيلة وقطرات الماء المتسربة من الحنفية القديمة، وكأنها تعدّ الوقت، ثانية بعد ثانية. رائحة الدماء كانت تملأ المكان، نافذة، خانقة، تمتزج برائحة الحديد البارد... رائحة الجريمة.

ارتفع صدره بهدوء، كأنما يحاول أن يتنفس بعد غرق طويل، ثم خفض رأسه بين ركبتيه. كان خائفًا، ليس من الشرطة، ولا من الفضيحة... بل من نظرات إليورا. كانت نظرتها أقسى من أي سكين، أكثر جرحًا من أي طعنة وجهها لأي ضحية.

همس بصوت بالكاد يُسمع:

"ما الذي فعلته...؟"

لكنه لم ينتظر جوابًا. هو يعلم ما فعل.
هو فقط لم يتوقع أن تراه هي.
أن تعرفه هي.
أن تهرب منه وكأنّه غريب... وهو الذي تمنّى لو اقترب منها أكثر من أي وقت.

مرر يده المرتجفة على وجهه، ومسح بقعًا لم يجف دمها بعد. ثم نظر إلى يديه، مليئتين بالأثر، بالعنف، بالندم الذي لا يُقال.

نهض بتثاقل، وسار نحو الحمام دون أن يشعل الضوء، فقط فتح الصنبور وبدأ يغسل يديه بعنف، كأنّه يحاول أن يزيل شيئًا لا يُغسل.
كانت المياه تتحول إلى اللون الأحمر القاني، وتنساب في البالوعة بصمت ثقيل، كما لو أنها تأخذ جزءًا منه معها كل مرة.

لكنه كان يعلم...
الدماء لا تزول بالماء.
ولا الذنب يُغتسل بالصمت.

كان صوت المياه لا يزال يتساقط، وكل شيء حول ليام ضبابيّ وثقيل، حتى سمع صوتًا مألوفًا من خلفه، حادًا لكن مليئًا بالقلق:

"ما بك؟ كأنك رأيت شبحًا؟"

تجمّد للحظة، كأنّ نبضه توقف. التفت ببطء، ووجد كايل يقف عند مدخل الحمام، ذراعيه متقاطعتان، ونظرته تحمل مزيجًا من الحذر والقلق.

لم يجب ليام في البداية. فقط نظر إليه، ثم عاد بنظره إلى المغسلة، حيث ما تزال قطرات الدم تُلطخ الماء.

تنهد كايل واقترب، نزع نظره عن الدم وقال بهدوء:
"هل كان الأمر بهذه الفوضى؟"

ليام تمتم بصوت منخفض، وكأن الكلام يخرج من فمه ثقيلًا:
"لقد رأتني."

كايل قطب حاجبيه:
"من؟"

همس ليام، دون أن يجرؤ على قول الاسم بصوتٍ أعلى:
"...إليورا."

ساد صمت عميق. لم يتكلم كايل مباشرة. شعر وكأنه سُمَّ من الداخل، لكنه حاول أن يبقى متماسكًا، وقال بعد لحظة:

"وهل تعرف من أنت؟"

ليام أومأ ببطء.

كايل رفع يده ومسح وجهه بتعب، ثم قال:
"يا إلهي، هذا أسوأ سيناريو ممكن... هل قلت لها شيئًا؟"

هزّ ليام رأسه نفيًا، ثم قال:
"حاولت... حاولت أن أشرح، لكنها خافت. ركضت... ولم أوقفها."

ثم أضاف بصوت مكسور:
"نظرت إليّ وكأنني وحش، كايل... وكأنني لم أكن أنا."

كايل اقترب ووضع يده على كتف أخيه، ضغط عليه قليلًا وقال بنبرة هادئة:

"ليام، علينا أن نُفكر بعقل. إن كانت إليورا تعرف، فهي الآن في خطر... ليس منك، بل من كل من سيحاول إسكاتها إن تكلمت. نحن لسنا الوحيدين الذين يتابعونك."

رفع ليام عينيه إليه، والذنب يحترق فيهما، وقال:
"لم أقصد أن أرعبها."

أجابه كايل بنبرة جادة:

"لكنّك فعلت، والآن علينا أن نُصلح الأمر... قبل أن يتدهور كل شيء."

كانت السماء ملبدة بالغيوم، والهواء يحمل برودة خفيفة تشي بقرب المطر. في ساحة الجامعة، كانت إليورا جالسة على أحد الكراسي الخشبية القديمة، التي لطالما اعتادت الجلوس عليها أثناء استراحاتها. لكن اليوم، لم تكن تتصفح كتابًا، ولا تحل واجبًا، ولا حتى تراقب الطلاب المارين كما تفعل أحيانًا. كانت ساكنة، متيبسة، وصوت الأفكار في رأسها أعلى من أي ضجيج حولها.

عيناها شاردتان إلى الأمام، لكن ما تراه ليس الممرات ولا الأشجار ولا الطلّاب، بل وجه ليام... أو بالأحرى، وجه "ظل ريفنشيد". تذكّرت اللحظة التي التقت فيها عيناها بعينيه، الدماء التي لطخت يديه، نظراته التي لم تكن كاذبة ولا باردة، بل ممتلئة بتوسل غير منطوق.
ذلك الشاب الذي كان يومًا ما غامضًا مثيرًا لفضولها، أصبح الآن حقيقة لا يمكن إنكارها... قاتل.

"كيف...؟" تمتمت لنفسها، صوتها بالكاد يُسمع.

كانت تشعر بانقسام داخلي. جزء منها أراد الصراخ، إبلاغ الشرطة، كشف الحقيقة. وجزء آخر... لم يستطع نسيان ارتجافة صوته حين قال لها "دعيني أشرح".
هل كان يمكن تفسير القتل؟ هل كان هناك وجه آخر للحقيقة؟

فجأة جلست بجانبها سيليست، وقد لاحظت شحوب وجهها فقالت بسخرية خفيفة:
"من مات؟"

لم تجب إليورا. فقط نظرت إليها بعينين مثقلتين بالقلق والذنب، ثم قالت بنبرة هامسة:
"سيليست... ماذا لو اكتشفتِ أن شخصًا تعرفينه... ليس كما كنتِ تظنين؟"

ضحكت سيليست، "تعرفين أنني أحب المفاجآت، لكن هذا السؤال ليس من النوع الذي يُسأل قبل الغداء."

لم تضحك إليورا، بل تابعت بنفس الهمس الجدي:
"أعني... ماذا لو كان أحدهم مجرمًا؟ قاتلًا؟ لكنكِ رأيتِ في عينيه ألمًا... لا شرًا."

توقفت سيليست، وانمحت ابتسامتها تدريجيًا. نظرت إلى صديقتها مليًا، ثم سألتها ببطء:

"من هو، إليورا؟"

ثم قالت إليورا، وهي تحدق في الفراغ بعينين شاردتين، كأنها تحاول إخفاء عاصفة من الأفكار:

"لا أحد... لكنني رأيت هذا في فيلمٍ ذات مرة... كان البطل، أو لنقل المجرم، يحاول أن يشرح للبطلة لماذا فعل ما فعل... لكنها لم تمنحه الفرصة. هربت قبل أن تسمعَ شيئًا."

نظرت إليها سيليست بدهشة خفيفة، ثم تنهدت وقالت بنبرة حاولت أن تكون مرحة، لكن فيها شيء من الحذر:
"يا له من فيلمٍ مكتئب... أتعلمين؟ أحيانًا السكوت يكون أخطر من الكلام."

لم ترد إليورا، واكتفت بابتسامة واهنة، ثم أعادت نظرها إلى الأرض، وعيناها تغوصان في عالمٍ لا تشاركه مع أحد.

مرّت الأيام ثقيلة كأنها تسير على جراحٍ مفتوحة، وليام لم يعد كما كان...
كلما أغمض عينيه، رأى وجهها.
وجه إليورا.
نظراتها المذعورة، المرتجفة، المليئة بالخوف والخذلان... وكأنها تحولت إلى شبحٍ يتسلل إليه في كل لحظة هدوء، يهمس له بالذنب، يلطخه بالندم، ويقيده بتساؤلات لا تنتهي.

لم يكن يفهم تمامًا لماذا تعلّقت صورها بذاكرته هكذا... هل لأنها أول من رأى وجه "ظل ريفنشيد" دون قناع؟
أم لأنها لم تكن مجرد شاهدة؟
بل شيء أبعد، أعمق، شيء حاول طمسه بين الدماء والصمت والليل، وفشل.

أحيانًا كان ينهض فجأة من مكانه وهو يردد اسمها دون أن يشعر،
وأحيانًا كان يسير لساعات في شوارع هولبروك دون هدف، كأنه يبحث عن ظلها، عن طيفها، أو ربما عن فرصة... ليقول شيئًا لم تسنح له اللحظة أن يقوله.

كل جريمة جديدة كانت تثقل صدره لا من دمائها، بل لأنها لا تمحو صورتها.
كلما غسلت يداه من الدم، بقيت عيناها على جلده، على أنفاسه، على ضميره الذي لم يمت تمامًا رغم كل شيء.

كان يدرك أن الزمن لن يتوقف، وأنه لن يستطيع أن يُصلح ما كُسر...
لكن قلبه، للمرة الأولى منذ زمن بعيد، كان يتمنى... فقط يتمنى... لو أنها تسمعه.

حتى في منامه، لم يكن يجد راحة من طيفها.
كانت إليورا تتسلل إلى أحلامه كما تسللت إلى يقظته...
ابتسامتها حين تتهكم، عيناها حين تتحدى، وصوتها حين تتكلم وكأنها تنبش أعماقه دون أن تدري.

وفي إحدى الليالي، بعد أن قضى ساعات طويلة جالسًا في العتمة، محاطًا برائحة الحديد والدم، وجدرانٍ صامتة لا تهمس سوى بذنوبه، أغمض عينيه، ورآها من جديد.

لكن هذه المرة، لم تكن تصرخ... لم تهرب...
كانت تقف أمامه، تنظر إليه نظرة طويلة، حزينة، وكأنها ترى فيه كل ما لم يستطع أحد أن يراه.

استيقظ فجأة، أنفاسه متقطعة، عينيه مشبعتان بالقلق، وقلبه يضرب صدره بعنف.
جلس، وأسند رأسه إلى الجدار، ومن بين تنهيدة طويلة... جاءت لحظة الإدراك.

ليست مجرد فتاة مرّت في طريقه،

ولا مجرد شاهدة على وجهه الساقط خلف القناع،
بل كانت شيئًا آخر... شيء يربكه، يزلزل هدوءه، يشقّ شرايين العزلة التي بناها حول نفسه طيلة هذه السنوات.

همس بصوت خافت كأن اعترافه جريمة بحد ذاته:

"أنا... وقعت في حبها."

ولأول مرة، لم يكن متأكدًا هل هذا الحب سيشفيه... أم سيدمّره أكثر.

بجانب إليورا، كانت تقف عند نافذة غرفتها، تُحدّق في الشارع المعتم، والأفكار تلتف حولها كضباب كثيف لا ينقشع.

وجه ليام... عينيه... الدماء على ملابسه... لهاثه وهو يركض خلفها...
كل شيء يعيد نفسه أمامها في ومضات مفاجئة، تُشبه الصدمات.

لكن بين كل تلك المشاهد، هناك لحظة واحدة لا تفارقها:
حين قال "دعيني أشرح"،
وصوته لم يكن غاضبًا... بل منكسرًا.

وضعت يدها على صدرها، كأنها تحاول تهدئة قلبها الذي لم يكفّ عن الارتجاف منذ تلك الليلة.
كانت تسأل نفسها كل لحظة:
لماذا لم أسمعه؟
لماذا لم أترك له فرصة واحدة ليشرح؟
ولماذا قلبي لا يصدق أنه قاتل...؟

ثم انتبهت فجأة إلى هاتفها يضيء، رسالة من سيليست:
"أين أنتِ؟ لقد تغيّبتِ عن المحاضرات لثلاثة أيام."

نظرت إليورا للهاتف، ثم أعادت نظرها للشارع...
وأجابت همسًا لا يسمعه أحد:

"لست بخير يا سيليست... أنا في المنتصف... بين الحقيقة، والوجه الذي لا أستطيع نسيانه."

وأدركت هي الأخرى شيئًا...
أنها أيضًا، بطريقة ما... وقعت في حب الوحش.

في إحدى الأمسيات، كانت إليورا تجلس على المقعد الخشبي في ركنٍ هادئ من الحديقة، لا ضوء سوى تلك الأنوار الباهتة المنتشرة بين الأشجار، والنسيم البارد يحرّك خصلات شعرها ببطء. كانت تحدّق في الفراغ، تتظاهر بالهدوء بينما الأعاصير تضرب صدرها من الداخل.

وفجأة، شعرت بخطوات تقترب.

رفعت رأسها بتوجس، فتجمّدت عيناها... ليام.

اقترب منها بخطى مترددة، عيناه تائهتان، والندم يطفو على ملامحه كغيم ثقيل. وقف أمامها مباشرة، صوته كان مبحوحًا كمن لم ينم منذ أيام:

"لم أستطع التوقف عن التفكير... إليورا، أرجوكِ... اسمعيني فقط."

لكنها نهضت من مكانها دفعةً واحدة، كأنها نُكزت من الداخل، وقالت بصوتٍ صارم حاد كالسيف:

"ابتعد عني... وإلا أبلغت الشرطة."

تراجع ليام خطوة إلى الخلف، وكأن كلماتها صفعته. لم يتكلم، فقط حدّق بها... نظرته كانت كمن يشاهد قلبه ينكسر أمامه، دون أن يملك شيئًا لحمايته.

قالت دون أن تنظر في عينيه:
"كل شيء فيك مرعب... حتى سكونك الآن... لا تقترب مجددًا، لن أسامحك على ما رأيت، ولن أثق بك بعد الآن."

ثم أدارت ظهرها وغادرت بخطى متوترة...
وتركته واقفًا هناك، وسط الظلال، لا يعرف أي جزء فيه تمزّق أكثر... قلبه؟ أم ملامحها التي لن تعود كما كانت؟

جلس ليام على الكرسي الذي كانت إليورا تجلس عليه قبل لحظات، وكأن حرارتها لا تزال عالقة عليه. أسند ظهره ببطء، وأرخى يديه إلى جانبيه، وعيناه تتعلقان بالفراغ كأنهما لا ترغبان سوى بالتوهان فيه.

الحديقة كانت ساكنة، وأصوات الليل من حوله تمضي كما لو لم يحدث شيء، أما داخله فكان صاخبًا بالفوضى. أعاد كلماتها في ذهنه مرارًا، نبرة الصدّ في صوتها، الجملة الأخيرة التي نطقتها وكأنها طعنة في الروح.

"كل شيء فيك مرعب... حتى سكونك الآن..."

ترددت تلك الكلمات في داخله حتى أصبحت كأنها وشم محفور في قلبه، لا يُمحى. قبض على يده ببطء، كأن جسده يحاول الإمساك بشيء تبعثر بالفعل. لقد خسرها... أو ربما لم يكن يملكها من البداية.

لم يكن ليام يتألم لأنه مرفوض فقط، بل لأنه شعر للمرة الأولى أن أحدًا رأى الإنسان المختبئ خلف القناع، ثم... اختار أن يهرب.

بقِيَ هكذا، ساكنًا، شاردًا، متجمدًا في مكانها، وكأنّه يريد أن يبقى هناك للأبد، علّه يسترجع شيئًا من دفء تلك اللحظة... قبل أن تبرده الحقيقة.

بدأت الجرائم تقل بشكل ملحوظ، أسبوع يمرّ بعد آخر دون دماء جديدة أو جثث تترك خلفها رائحة الموت في أزقة ريفنشيد. الأمر لم يمرّ مرور الكرام، خاصة بالنسبة لريتشارد، الذي كان يتابع التقارير والبلاغات يوميًا كما لو كان يطارد ظلاً.

جلس في مكتبه متكئًا على المقعد الجلدي، يحدّق في قائمة التقارير الخالية من الحوادث، عبس قليلًا وهمس:
"أمر غريب... وكأن أحدهم ضغط على زر الإيقاف."

لكن بينما استغرب هو ومن معه من التباطؤ المفاجئ في نشاط "ظل ريفنشيد"، استغل صانعو الإشاعات هذا الفراغ لنسج قصص جديدة. مواقع التواصل امتلأت بعناوين صفراء:

"هل أوقف ظل ريفنشيد جرائمه من أجل إنقاذ المحقق ريتشارد؟"
"توقفه الغامض... هل هو وفاء خفي؟"
"من القاتل... ومن المنقَذ؟ لعبة أكثر تعقيدًا مما نظن."

وبينما كان ريتشارد يقرأ تلك المقالات بشكٍ متزايد، بدأ الشارع يميل لتصديق السيناريو الأغرب:
أن المجرم الأكثر رعبًا في المدينة قد توقّف فقط... لكي يعطي الفرصة لريتشارد لاستعادة سمعته، وكأن بينهما اتفاقًا خفيًا أو ميثاقًا من الظلال.

وهكذا، رغم هدوء الشوارع، اشتعلت العقول بالتساؤلات، وغرق ريتشارد أكثر في دوامة لم يعد يعرف فيها إن كان ضحيةً أم لاعبًا في مسرحية لا يفهم نصّها.

كانت إليورا تجلس على سريرها، ساقاها ممدودتان وظهرها مستند إلى الوسادة، والهاتف بين يديها يضيء وجهها بضوء أزرق باهت وسط العتمة. كانت تتصفح الأخبار، تقرأ كل العناوين التي تتكرر بشكل مشبوه:
"ظل ريفنشيد يتوقف عن القتل... لماذا؟"
"المحقق ريتشارد والقاتل: تحالف غير متوقع؟"
"هل كان ظل ريفنشيد يحمي ريتشارد؟"
ومئات التعليقات، تغريدات، مقالات، كلها تصبّ في منحى واحد، وكأن الشارع قد نسي الجرائم وتعلّق بالدراما.

كانت عيناها تتنقلان بين المقالات بسرعة، لكنها لا تستوعب كل شيء، لأن اسم ليام، وجهه، صوته، نظراته... كل شيء عنه يطفو على السطح كلما قرأت كلمة "ظل".

وضعت الهاتف على الطاولة بجانبها وتنهدت، حدّقت بالسقف قليلًا، كأنها تبحث عن إجابة بين الشقوق والظلال.
همست لنفسها:
"منذ متى أصبح الظل إنسانًا؟"

لقد رأته بعينيها. لم يعد شخصًا غامضًا أو قصة تُروى. صار مزيجًا بين الدم والحقيقة... بين ليام وشيء لا تعرف كيف تسميه. ومع كل إشاعة جديدة، كانت إليورا تزداد حيرة... وشرخ داخلها يكبر بين قلبٍ يريد أن يفهم، وعقلٍ يصرخ: لا تصدّقي قاتلًا.

كان الليل قد أرخى سدوله، والنجوم بالكاد تلمع في السماء المحجوبة بغيوم ريفنشيد الثقيلة. الحديقة كانت مبلّلة بندى المساء، تنبعث منها رائحة الأشجار والزهور القديمة، وكأنها تحاول أن تحتفظ بذكرياتها رغم تغيّر الناس والأزمان.

إليورا خرجت من المنزل بصمت، لا تدري لماذا اختارت الحديقة الليلة، لكنها شعرت بحاجة للهروب من ثقل رأسها، ومن أصوات العالم في هاتفها. هذه الحديقة كانت ملاذها منذ الطفولة، مقاعدها الخشبية تحفظ شكل جسدها، والممرات تعرف خطواتها جيدًا.

لكنها لم تكن وحدها.

بينما كانت تتنقل ببصرها بين المقاعد الشاغرة، لمحته.

كان جالسًا عند الطرف الآخر، ظهره متكئ إلى شجرة قديمة، ساقاه ممدودتان، يده تمسك بزجاجة خمر كبيرة رفعها إلى فمه ببطء، يشرب كأن لا شيء آخر يستحق البقاء. وعلى الأرض بجانبه، زجاجة أخرى فارغة، تتدحرج قليلاً مع نسمة ريح خفيفة.

عيناه نصف مغمضتين، وجهه شاحب، كأنما لم ينم منذ أيام. لم يكن يعلم أنها تراقبه... أو ربما كان يعلم، لكنه لم يكترث.

أحسّت إليورا بقبضةٍ داخل صدرها. ليس خوفًا... بل تلك المرارة الغامضة التي تأتي حين ترى من كنت تظنه لا يهتز، وهو ينهار بصمت.

ظل ريفنشيد... كان مجرد فتى يشرب ليهرب.

نظرت إليه، نظرةً لم تكن فيها كراهية، ولا حتى شفقة... بل مزيج غريب من الحزن والفهم. كانت تشاهد تمثالًا تحطّم، ببطء، أمام عينيها.

نسيم المساء بدأ يعبث بخصلات شعرها، يداعب وجنتيها برقة، وكأن الليل ذاته يحاول أن يهدّئ قلبها المضطرب. وعيناها... تلك العينان اللامعتان من الفضول والتمرّد، بدأتا تتلألآن بالدموع. لم تكن تدري لم تبكي... ربما لأن شيئًا ما في داخلها تهشم أيضًا، لرؤيته بهذه الحال.

خطت خطوات بطيئة، لكنها حاسمة نحوه.

ورفع ليام رأسه، ببطء، وكأنما انتُشل من حلم غائم... وعندما رآها، تجمّدت ملامحه. لم يقل شيئًا، لا الكلمات صعدت من حلقه، ولا الخمر من رأسه نزل.

ثم فجأة، دون كلمة... احتضنته.

ارتمت بين ذراعيه، كأنها تسند جبلًا أو تحتضن طفلًا تائهًا، ويدها تربت على ظهره المرتجف. ولم يقاوم... فقط أغلق عينيه، ودفن وجهه في عنقها، كأن العالم قد انتهى، ولم يتبقَ سواها.

ولأول مرة... لم يكن ظل ريفنشيد.
كان ليام ڤوس.
بكل ضعفه، بدمه، بذنوبه، وألمه.
وكانت هي... الوحيدة التي رآها في العتمة.

همس بصوتٍ متهدّج، يكاد لا يُسمع فوق خفقة قلبه، وهو لا يزال محتضنًا إياها:
"دعيني... أشرح لكِ."

صمتت إليورا، لم تشد نفسها منه، ولم ترد. فقط ظلت ساكنة، وكأنها تُنصت لنبضه لا لكلماته.

أعادها برفق للخلف قليلًا، ليرى عينيها... عينين، رغم الدموع، ما زالتا تحملان نفس البريق الصادق الذي كان يطارده في منامه.

"كل ما رأيته... له سبب. أنا لم أختر هذا، أقسم لكِ... أنا فقط..." ترددت أنفاسه، وبدأ صوته يخفت، كأن شيئًا في صدره يُزاح فجأة:
"أنا فقط كنت طفلًا... رأى والده يُقتل، ووالدته تتخلى عنه، والعدالة تخذله. تحوّلتُ لظل... لأن لا أحد آمن بالنور."

خفض رأسه، كأنه يعترف لأول مرة، وكأن الكلمات نفسها تشق جلده وتخرج من جرح قديم.
"لكني لم أتوقف عن التفكير بكِ... ليس لأنكِ رأيتني، بل لأنكِ الوحيدة التي... جعلتني أشعر أنني ما زلت إنسانًا."

كانت إليورا تحدق فيه بصمت، ملامحها لا توحي بشيء. ثم رفعت يدها بلطف، ومسحت أثر الخمر عن زاوية فمه، وقالت بهدوء:

"أكمل."

تنهد ليام بعمق، وارتسم على وجهه مزيج من الندم والمرارة، قال بصوتٍ مكسور لكنه مليء بالصدق:

"لقد ظننتُ أن القتل كان صوابًا حين كنت في العشرين من عمري... بدأت بقتل أولئك الفتيان الذين تنمروا عليّ طوال حياتي. كنت غارقًا في الألم، معتقدًا أن هذه هي الطريقة الوحيدة للانتقام، للنجاة... وبعدها، أدمنت القتل. لم أكن أنا من اخترت هذا المصير، بل صُنعتُ قاتلًا بدم بارد. لم أعد أفرق بين الحق والباطل، بين الظلام والنور."

رفع عينيه نحوها، كانت تتلألأ فيهما دموع مختلطة بالدم، وكأن كل ذكرى قاتلة تذبحه من جديد.
"كل يوم، كنت أبحث عن ذريعة لأستمر، لكن في داخلي، كنت أريد فقط خلاصًا... خلاصًا من نفسي، من هذا الجحيم الذي أصبحته حياتي."

توقف قليلاً، ثم أضاف بصوتٍ متهدج:
"لكن... لقاؤكِ... جعلني أشعر لأول مرة أنني ربما لا أزال قادرًا على الخروج من هذا الظلام."

ثم سقطت دمعة من عينه، ثقيلة كأنها تحتوي وزن سنوات من الألم، من الذنب، من الخوف. كانت تسيل ببطء على وجنته الشاحبة، ويداه لا تزالان ترتجفان من أثر ما اعتاد فعله، وما لم يعد قادرًا على فعله بسهولة.

مدّت إليورا يدها بخفّة، بشيء من التردّد، لكنها مسحت دمعته بإبهامها، ونظرت إليه بعينين تغرقان في صمت مشحون. لم تكن نظرتها حنونة ولا قاسية، بل خليطًا مربكًا من الشفقة والتساؤل والارتباك، وكأنها تحاول أن ترى داخله من خلال بؤبؤيه.

تنفّس ليام بصوت مسموع، كأنه يبتلع اعترافًا مريرًا، ثم قال بنبرة مكسورة:
"إذا لم تصدقيني... اذهبي واسألي كايل. أخي يعرف كل شيء. يعرف متى بدأ كل هذا، ومتى خرج عن السيطرة... اسأليه، سيخبرك. سيخبرك كم كنت أحاول أن أوقف نفسي... كم كنت أبكي وحدي في الظلام بعد كل جريمة..."

ثم تراجع قليلًا، وأخفض رأسه، وأكمل بصوت خافت كمن يدفن اعترافًا:
"وإن لم تصدقيه هو الآخر... أقسم لكِ، أقسم أنني صادق. إليورا... أنا لست الوحش الذي يكتبون عنه في الصحف. أنا صُنع من الخوف، من الحزن، من سنوات لم ترَ فيها روحي نورًا. القاتل الذي ترينه الآن... لم يولد هكذا. لقد صُنعت... صُنعت من كل كذبة صدقتها، من كل خيانة ابتلعتها، من كل موت شاهدته ولم أستطع إنقاذه."

رفع عينيه إليها مجددًا، نظرة كسيرة لكنها تترجى، تترجى فقط أن يُرى... لا كمجرم، بل كإنسان ما زال في داخله شيء لم ينكسر تمامًا.

ثم قالت إليورا، بصوتٍ خافت لكنه مشحون، وكأن الكلمات خرجت من أعماق صدرها لا من فمها:
"والأبرياء يا ليام؟"
سؤالها كان كالسيف، لم يكن اتهامًا صارخًا، بل ألمًا خالصًا. نظرت إليه بعينين تلمعان بين دمعة وأخرى، لا تعلم إن كانت دموع حزن أم خيبة أم مجرد إنهاك.

ارتجف ليام، وكأن الكلمة وحدها صفعت روحه.
خفض بصره، كأن لا حق له بأن ينظر في عينيها، ثم قال بصوت أجش:
"الأبرياء... لم يكن المفترض أن يحدث شيء لهم... أحيانًا... أحيانًا كنت أتوهم أنني أضرب فقط من يستحق، من قتل، من أفسد... لكن الخطّ تلاشى، اختلط الظلام بالظلال..."

ثم رفع رأسه ببطء، كأن شيئًا ثقيلًا يسحب ملامحه إلى الأرض، وهمس:
"أنا لا أسامح نفسي، إليورا. كل ليلة أنام فيها، أراهم. ليسوا أرقامًا، بل وجوهًا... وجوهًا لا تنسى."

صمت لثوانٍ، ثم أكمل بنبرة مرتعشة:

"أنا لا أطلب غفرانكِ، ولا عطفكِ. فقط أردتِ أن تعلمي... أني لم أكن يومًا فخورًا. كنت تائهًا. وما زلت كذلك."

نظر إليها نظرة منكسرة، نظرة رجل فقد بوصلته، لكنه وجدها في لحظة تأمل بعينيها.
"أقسم لكِ، منذ أن رأيتكِ تلك الليلة... شيء داخلي بدأ ينهار. شيء جعلني أتوقف. ربما كنتِ الشيء الوحيد الحقيقي في مدينة مليئة بالأقنعة."

كانت إليورا صامتة، لكنها لم تبتعد. لم تمد يدها، ولم تبتسم. فقط... وقفت، تنظر إليه، والنسيم يحرّك أطراف شعرها، وكأن الكون كله ينتظر قرارها.

ثم قال ليام، وصوته يتهشم بين الحقيقة والرجاء:

"منذ تلك الليلة... تلك الليلة التي رأيتِني فيها... لم أستطع إيقاف نفسي عن التفكير بكِ."

رفع نظره إليها، كانت واقفة بصمت، تحمل في عينيها ارتجافًا لم تُظهره شفتيها. تابع بصوت خافت، أقرب للبوح منه للاعتراف:

"كنت أغمض عينيّ، فأراكِ، كنت أسمع صوتكِ في رأسي، في الشوارع، في صمتي، في لحظات ضعفي. حاولت أن أطردكِ... أقنعت نفسي بأنكِ مجرد صدفة، مجرد لحظة، لكنكِ لم تكوني كذلك..."

زفر، وكأنه تخلّص من ثقل على صدره، ثم قال:

"لقد فكرت بكِ كثيرًا، حتى لم أعد أعلم هل أحببتكِ لأنكِ رأيتِني في أسوأ حالاتي... أم لأنكِ الوحيدة التي لم تهرب فورًا..."

توقّف، ثم همس بصوت يكاد لا يُسمع، كأن اعترافه كان موجهًا للعالم كله من خلال عينيها:

"وقعت في حبكِ يا إليورا... من كثر ما فكرت بكِ، من كثر ما خفت عليكِ... حتى وأنا أهرب من نفسي، كنت أهرب إليكِ."

ظل صوته معلقًا في الهواء، وعيونه تتوسل نظرتها، لا بحثًا عن غفران، بل عن لحظة صدق تجمع بينهما في مدينة ملأى بالكذب والدم.

ثم قالت إليورا بصوت هادئ، لكنها بدت وكأنها تكافح شيئًا داخلها:

"إذا رغبت في الصراخ، في البكاء... لا بأس، ليام."

توقفت لبرهة، ناظرة في عينيه التي كانت تحمل اضطرابًا يشبه الغرق، وتابعت بصوت مكسور لكنه حنون:

"أعرف ما معنى أن يتراكم الألم بداخلك حتى يصبح ثقيلًا، أعرف ما معنى أن تشعر بأنك وحيد وسط الزحام... لا بأس إن أردت أن تترك هذا الحمل، حتى ولو للحظة."

كانت كلماتها كمأوى، كممر دافئ في بردٍ داخلي لا يُحتمل. لم تكن تبرر له، لم تكن تغفر، لكنها، لأول مرة، لم ترَ أمامها ظلّ ريفنشيد... بل شابًا محطّمًا، ضائعًا، يائسًا من خلاص.

وهو، حين سمع كلماتها، لم يملك سوى أن يغلق عينيه، وأن يضغط قبضته على ركبته، كأنه يقاوم رغبة عنيفة بالصراخ... ثم ارتجف كتفه قليلًا، وخرج من بين شفتيه صوت اختنق في صدره منذ سنين.

ربما لم يكن صراخًا... ربما لم يكن بكاءً كاملاً.

لكنها كانت المرة الأولى التي يسمح لنفسه بأن يكون إنسانًا، أمامها فقط.

ثم تقدّمت منه إليورا أكثر، ببطء يشبه من يخشى جرحًا مفتوحًا، ثم احتضنته بصمت... لم يكن عناق حبيبَين، بل كان احتواءً صادقًا، حنونًا، كأنها تحاول أن تمسك بجزءٍ منه يتهاوى أمام عينيها.

وضعت يديها حوله وهمست قرب أذنه بصوت دافئ، لكنه مشبع بكل ما تراكم في قلبها من شفقةٍ وارتباك وألم:

"ابكِ هنا، اصرخ... لا مشكلة لدي، لن أهرب."

شدّت ذراعيها عليه أكثر، كأنها تقول له: "لست وحدك."

ثم بدأت تشعر بأنفاسه تتسارع، صدره يعلو ويهبط بشكلٍ غير منتظم، إلى أن انفجر داخله شيء ما... شهقة ثقيلة خرجت من أعماقه، ثم تلتها دموع خافتة، مكتومة، لكنها حقيقية، مؤلمة، كأنها أول اعترافٍ بالعجز والندم.

لم تتركه، ولم تسأله، ولم تُبادر بكلمة أخرى.

فقط ظلّت هناك، تمسك به كأنها آخر حبل نجاته من كل ما غرق فيه.

ثم بدأ الثلج بالنزول، ناعمًا، متلألئًا تحت أضواء الحديقة الخافتة، وكأن السماء قررت أن تغسل كل شيء... الدم، الندم، والألم العالق في الأرواح.

ارتجف ليام قليلًا، ليس من البرد، بل من كل ما كان يخبئه في صدره لسنوات. وكانت إليورا لا تزال تضمه بقوة، كأنها تحاول أن تمنع العالم من الانهيار حوله. قال بصوتٍ متهدّج، كأن الكلام يخرج من جرح قديم:

"كل مرة كنت أقتل، كنت أحاول أهرب من وجعي... لكن الوجع كان يلحقني دائمًا."

نظرت إليه، وثلج صغير قد بدأ يتراكم على كتفيه وشعره. همست برفق:

"وأنا هنا... لستُ خائفة منك، بل مما أخذك إلى هذا الطريق."

ارتجف أنفاسه، وأغمض عينيه للحظة. لأول مرة منذ زمن، لم يشعر أنه ظل. شعر أنه إنسان... مكسور، لكنه حي. ومن بعيد، كان صوت المدينة يخفت، وكأنها هي الأخرى قررت أن تمنحهم هدنة.

ثم قال ليام لها بعدما هدأ، وصوته عاد خافتًا كأنّه يهمس بسرٍّ موجِع:

"لكنكِ يا إليورا... تعاطفكِ هذا، نظرتكِ لي وكأنني ما زلتُ بشرًا... سيجعلكِ بخطر."

ابتعد قليلًا عنها، أنزل عينيه نحو الأرض التي بدأ الثلج يغطيها، وصوت أنفاسه يتصاعد كدخانٍ في الهواء البارد.

"أنا لا أعيش في عالمكِ. أنا مصنوع من الظلام، وكل من يقترب مني يبتلعه هذا الظلام. لا أريد أن تكوني مثلي، ولا أن تدفعي ثمن محاولتكِ لفهمي."

اقتربت منه إليورا ببطء، نظرت في عينيه التي فقدت منذ زمن بريق البراءة وقالت، وصوتها يحمل صلابة الضعف الجميل:

"ربما... لا أستطيع إنقاذك. لكن لا أريدك أن تغرق وحدك."

حينها، نظر ليام إليها نظرة طويلة... نظرة رجل ظن لسنوات أنه لا يستحق نظرة كهذه. وبينما الثلج يتساقط حولهما بهدوء، لم يقُل شيئًا. فقط وقف هناك، يتأملها... وكأنها الشيء الوحيد المتبقي من العالم القديم، قبل أن يتحول إلى ظل.

في ذلك المساء الرمادي، وفي زاوية شبه معزولة من مبنى إدارة الشرطة، وقف ريتشارد كرين أمام مكتب غابرييل هانتر، كأنّه يختنق بكلماته. الجو مشحون، الجدران تضيق، والهواء يقطعه الصمت الحاد بين رجلين يعرفان جيدًا معنى السلطة والعار.

نزع ريتشارد قبعته ببطء، كأنها تحمل ثقل كل تلك الشائعات التي التصقت باسمه، ثم خفض رأسه وقال بصوتٍ خافت يكاد لا يُسمع:

"أريد حلًا... لإيقاف هذه الإشاعات عني."

رفع غابرييل عينيه من خلف مكتبه، نظر إليه نظرة طويلة، ليست شفقة... بل تلك النظرة التي تُمنَح لرجلٍ على وشك الغرق وهو لا يدري.

"الإشاعات؟" قالها غابرييل، بابتسامة خفيفة بالكاد تُرى. "إن لم تكن هناك نار، ما كان الدخان ليمتد بهذه السرعة."

شد ريتشارد على قبعته بين يديه، وعض على أسنانه. "أنا لست فاسدًا كما يقولون. ظل ريفنشيد يقتل والناس يظنون أننا نعمل معًا. اسمي... يُسحب في الوحل."

نهض غابرييل من مقعده ببطء، دار حول الطاولة واقترب من ريتشارد، ثم وقف أمامه وقال بنبرة تحمل سلطة لا تقبل الجدل:

"إما أن تصنع بطلك بنفسك، أو يلتهمك بطلُ الناس. إن أردت أن تمحو ظل ريفنشيد... فعليك أن تصبح النور الذي يُصدّق. أوقفه، وأعده للظلال التي جاء منها... فقط حينها، سيصمتون."

صمت ريتشارد للحظة، وكأنه يستوعب أن من طلب منه النجدة هو من سلّمه عبء الخيار الأخطر... ثم رفع رأسه أخيرًا، عيناه تشتعلان بشيءٍ بين الغضب والعزم، وهتف:

"سأمسك به... حتى لو جرّني ذلك للجحيم."

ثم قال غابرييل، وعيناه تضيقان بشيءٍ أشبه بالشفقة المشوّهة:
"أخبرني، بعد هذا... هل تمنيت أن ظل ريفنشيد قتلك؟"

وقف ريتشارد بثبات مُصطنع، لكنه شعر بالكلمات تخدش ما تبقى من صلابته.
مرت لحظة ثقيلة، ثم رفع عينيه وحدّق في غابرييل، وابتسم بسخرية باهتة.
"ظننتُ أنني مستعد لأي شيء، لكني لم أتخيّل يومًا أن أكون مَن يُطارَده ظلّ، لا مَن يطارده."

اقترب غابرييل خطوة، وضع يده على كتف ريتشارد وقال بصوت خافت:
"الظل لا يختارك عبثًا... إمّا أن تكون جزءًا منه، أو طريدته."

ثم أدار ظهره، تاركًا ريتشارد وسط الغرفة الباردة... يتساءل:
هل حقًا نجا؟ أم أنه لا يزال في مرمى السكين؟

ثم فجأة، وقبل أن يُغلق الباب تمامًا خلف مغادرة غابرييل، انفتح من جديد. صوت الخطوات الثقيلة اخترق صمت الغرفة، ومعه دخل جوليان سانتوس.

عينيه كانت كأنها لا تعترف بجدران المكان، ولا بالرجال الذين يشغلونه، ولا حتى برائحة السجائر والملفات القديمة التي تفضح أنفاس الغرف الأمنية. كان يمشي وكأن الأرض ملكه، الزمن يخصه، والخطر... مجرد لعبة مملة.

اقترب بخطى بطيئة لكنه واثقة، ثم دون أن يطلب الإذن، جلس على كرسي غابرييل وكأن المقعد فُصِّل على مقاس سلطته الجديدة. أرجع ظهره براحة، مدّ ذراعيه على جانبي الكرسي، ثم شبك أصابعه فوق بطنه كأنّه مالك المكان.

أدار رأسه ببطء نحو ريتشارد، الذي ظل واقفًا بتوتر خفيف، وسأله بصوتٍ بارد، خالٍ من أي ملامح الاحترام أو الفضول:

"من أنت؟"

كانت نبرته تشبه سكينًا سُحبت من غمدها على مهل.

في منتصف الليل، كان كل شيء ساكنًا في المنزل، سوى صرير خافت للرياح يتسلل من النوافذ القديمة. خطوات ليام كانت مترددة، ثقيلة لكنها عازمة، تقطع الممر المظلم المؤدي إلى غرفة كايل. وقف أمام الباب، وتردد للحظة... ثم رفع يده وطرق.

صوت الخطوات داخل الغرفة، ثم فتح الباب.

كايل، عابس الوجه، يبدو كأنه أُيقظ لتوه من نومٍ ثقيل، نظر إلى أخيه بشيء من الحذر، وربما القلق.

لكن ليام لم يمنحه وقتًا للتساؤل. نظر إليه بعينين مرهقتين، فيهما رماد أيام طويلة من الصراع الداخلي، ثم قال بصوتٍ خافتٍ لكنه حاسم:

"ما قلته... عن أن نعمل معًا... وأنا رفضت."

توقف لحظة، أخذ نفسًا عميقًا كمن يبتلع كبرياءه...

"الآن أنا أوافق."

كايل لم يتحرك. عيناه اتسعتا قليلاً، وكأن الزمن توقف في تلك اللحظة. ثم همس، بدهشة ثقيلة:

"هل أنت متأكد؟"

أومأ ليام برأسه، وملامحه تحمل مزيجًا من التعب، والندم، والقرار.

"لقد سقطت بما يكفي، والآن... إمّا أن أرتفع معك... أو أُدفن وحدي."

ثم قال كايل وهو يفتح الباب على وسعه قليلًا، وكأنه يفسح الطريق لا للحوار فقط، بل للمصير القادم:

"لكننا لن نعمل بمفردنا."

رفع نظره إلى ليام، وصوته أصبح أكثر جدية، أكثر حذرًا:

"رجل سيعمل معنا... اسمه مايكل. لا أعرف إن كنت قد التقيت به سابقًا."

ليام عبس قليلًا.

أكمل كايل، بنبرة أثقل:

"كان صديقًا مقربًا لأبي. محقق سابق، خسر ابنه في نفس الحرب التي خسرنا فيها أبي. يؤمن بما نفعله... لكنه لا يثق بسهولة."

ثم أضاف وهو يحدق بعيني ليام:

"ونواه أيضًا."

ارتجف شيء خفي في ملامح ليام عند سماع اسم أخيه الأكبر، لكنه لم يقل شيئًا.

أكمل كايل بهدوء:

"عاد قبل أسابيع، وعرف كل شيء... لم يعارض، ولم يرحب. لكنه قال شيئًا واحدًا فقط: إذا كنتما ستفعلانها، افعلاها كاملة، وإلا لا تفعلان شيئًا."

صمت لوهلة ثم قال كايل:

"مايكل، نواه، وأنا... والآن أنت. أربعة أشباح من ماضٍ مشترك. السؤال الحقيقي الآن يا ليام... هل أنت مستعد أن تواجه كل شيء؟ حتى نفسك؟"

أومأ ليام برأسه ببطء، وعيناه تمتلئان بعزم لم يره كايل منذ سنوات. صوته خرج خافتًا لكنه حاد، كما لو كان نصلًا صُقل للتو:

"أريد أن أبدأ... بفيكتور."

تجمد كايل لثوانٍ. الاسم وحده كان يكفي ليصنع جدارًا من الجحيم في ذاكرته، لكنه لم يعارض. فقط نظر إلى أخيه وكأنهما يتشاركان الآن نبضًا واحدًا، جرحًا واحدًا.

"فيكتور هو القلب النابض لكل شيء فاسد في هذه المدينة"، قالها كايل، "لكن الوصول إليه... سيجبرنا على عبور الجحيم نفسه. سنحتاج خطة. شبكة. دعم. لأنه إن سقط فيكتور، سيسقط معه نصف هذا الجحيم... أو سينهار علينا نحن أولًا."

اقترب ليام خطوتين، وقال بصوت أقرب للهمس:

"إن لم نبدأ به، لن نبدأ أبدًا."

نظر إليه كايل مطولًا، ثم قال بنبرة خافتة:

"مايكل سيكون مهتمًا لسماع هذا."

ثم بعد لحظة صمت، أضاف:

"استعد، ليام... لأننا سندخل بيت الوحش، لا كزوار... بل كجراحين يحملون السكاكين."

ثم قال ليام بنبرة ثقيلة كمن يفتش عن ثغرة في جدارٍ من الفولاذ:
"هل هناك نقطة ضعف له... غير ابنه؟ مثلًا شيء جسدي... مرض... أي شيء؟"

لم يجب كايل مباشرة، فقط حدّق في عيني أخيه، ثم أومأ بصمت ولوّح له بيده كي يدخل الغرفة. دخل ليام وأغلق الباب خلفه، بينما كان كايل يتجه نحو الأريكة الجلدية العتيقة التي بالكاد ما زالت تحتمل ثقل الأسرار. جلس وأخذ الحاسوب المحمول من الطاولة الصغيرة أمامه، وبدأ في البحث بين الملفات، مجلدات إلكترونية مكدسة بأسماء مستعارة، تواريخ، وملفات صحفية مدفونة.

قال وهو ينقر على المفاتيح:
"فيكتور سانتوس... أكثر من مجرد رجل قوي، هو مرض متجذر. لكن من الداخل؟"

توقّف للحظة، عيناه تلاحقان سطرًا معينًا، ثم أردف:
"نعم. تم تسريب تقرير طبي له قبل سنتين... غير مؤكد، لكنه كان يخضع لعلاج كيميائي... سرطان الدم. لم يكن ظاهرًا وقتها لأنه تكتم عليه، حتى طاقمه الخاص لا يعلم. لكنه حقيقي. وكل ما يشير إليه... أنه يضعف."

اقترب ليام أكثر، يحدق في الشاشة:
"يعني... أيامه معدودة؟"

هز كايل رأسه:
"ربما، وربما لا. فيكتور لا يموت بسهولة. لكنه يعرف... أن النهاية تقترب، ولهذا يزداد جنونًا. هذا هو وقتنا يا ليام، قبل أن ينقل التاج لجوليان أو يدمر كل شيء."

جلس ليام بجانبه، صامتًا للحظة، ثم قال ببطء:
"إذا كان السرطان ينهش فيه... فسننهش نحن الباقي."

كان الظلام خلف نافذة الغرفة كثيفًا، لكن ما يجري في الداخل... أعمق من أي ليل.

ثم قال ليام وهو يحدق في الشاشة كما لو أنها محور كل الأمور:
"هل لديك خطة؟"

أجابه كايل بعد صمت قصير وكأنه ينتظر هذا السؤال:
"ليس لدي خطة واضحة لفيكتور حتى الآن، لكنه ليس هدفنا الأول. لدي خطة لغابرييل."

رفع ليام حاجبه بدهشة:
"تفضل."

أكمل كايل بنبرة هادئة وجدية تزداد عمقاً مع كلماته:

"سأبحث عن هاكر ماهر، يستطيع اختراق أي شبكة أو شاشة، التلفزيونات، الهواتف، الشاشات العملاقة، كل ما يُبث. كل ما

سيُعرض سيكون صورتك، وأنت ترتدي قناع ظل ريفنشيد، لتكشف جرائم غابرييل."

تردد ليام للحظة ثم قال:
"كيف نكشفه؟"

أجاب كايل وهو يغلق الحاسوب ببطء وينظر في عيني ليام:
"كل الأدلة التي بحوزتنا، المستندات، الصور، الشهادات... كلها تُعرض بأسلوبك، بأسلوب ظل ريفنشيد، حتى يرى الجميع الحقيقة بعينهم، حتى يشعروا بالخوف من السكوت. نجعل غابرييل ينهار أمام أعين الناس."

سادت لحظة صمت بينهما، قبل أن ترتسم على شفتي ليام ابتسامة صغيرة ومرة:
"أخيراً... خطة تناسبني."

قال كايل بحزم:
"وهكذا يبدأ سقوطهم من الداخل."

مع طلوع الشمس في اليوم التالي، انتشر صدى الخطة بين أفراد الفريق، وبدأت تتخذ أشكالًا أكبر وأكثر جرأة. استدعى كايل نواه ومايكل إلى غرفة الاجتماعات الضيقة في منزلهم المظلم، حيث كانت الجدران تحيط بهم كأنها شاهدة على أقدارهم.

دخل نواه ومايكل، كل منهما يحمل في عينيه مزيجًا من الفضول والترقب، بينما كان كايل ينتظرهم بقليل من القلق يختلط بالحسم.

قال كايل بصوت صارم لكنه ملؤه التصميم:
"خطتنا بدأت تتوسع، واليوم سنرفع وتيرتنا. نواه، مهمتك ستكون جمع المعلومات عن تحركات فيكتور وأشخاصه المقربين، لا تترك زاوية إلا وفتشتها، ولا كلمة تمر بدون مراقبة."

التفت نواه بثقة وردّ:
"لن أخذلكم."

ثم التفت إلى مايكل وقال:
"أما أنت، فستتولى تنسيق العمليات الميدانية، استغلال خبرتك في التحقيق، وجمع الأدلة التي تحتاجها الخطة لتصبح واقعية لا تقبل الشك."

نظرت عينا مايكل بجدية وقال:
"سنصل إلى القاع، مهما كان الثمن."

كامل الفريق شعر بوزن المهمة، لكن الإصرار كان يملأ أجواء الغرفة، وكأنهم على وشك إشعال فتيل الثورة التي ستقلب كل الموازين في المدينة المظلمة.

ثم انفتح باب الغرفة بصوتٍ خافت، وتسلّلت منه خطوات مترددة، لكنها واثقة. دخل ليام متأخرًا، يحمل على وجهه بقايا الليل الطويل، وفي عينيه ظلال من زمنٍ بعيد. لم يتلفّظ بكلمة، لم يُلقِ التحية حتى، إذ كانت عيونه قد سُحبت تلقائيًا نحو الطرف الآخر من الغرفة... حيث يقف نواه.

لم يكن مجرد لقاء، بل ارتطام عمرٍ كامل بلحظة واحدة.

حدّق ليام في ملامح أخيه كما لو أنه يرى شبحًا خرج من الذاكرة، أو كأن الزمن دار دورة كاملة ليضعه أمام الحقيقة التي طالما طاردها في أحلامه.

نواه كذلك، توقّف عن الحركة، تجمّد في مكانه، وحدقتاه اتسعتا كمن لا يصدّق. همس بصوت لا يُكاد يُسمع:
"ليام؟"

اقترب ليام ببطء، وكأنّه يخشى أن تنكسر اللحظة، أو أن تختفي الصورة إن تحرّك بسرعة. قال بهدوءٍ مشحون:
"ثمانية عشر سنة... ولم أنسَ وجهك."

امتدت بينهما ثوانٍ من الصمت المليء بالكلمات، وكأنّ كل الذكريات الغائبة، والخسارات القديمة، والحياة التي سرقها القدر... كانت تقف بينهما، تنتظرُ عناقًا أو دمعة.

لكن ليام اكتفى بنظرة طويلة، ثم جلس بصمت قرب كايل، ولم يعلّق أحد على شيء. فقد عرفوا جميعًا... أن الماضي قد عاد، وليس هناك وقت للندم، بل فقط للانتقام.

ثم قال ليام، وهو يقطّب حاجبيه بعد لحظة صمت:
"ما خطّتكم لفيكتور؟"

تبادل كايل ونواه نظراتٍ سريعة، ثم تنحنح كايل وقال بنبرة جادة:
"الفكرة تقوم على رصده من نقطة ضعفه، تحركاته محدودة حاليًا بسبب المرض، لكنه لا يزال يعقد اجتماعات سرية في مصنعه القديم في القسم الجنوبي. سنزرع أجهزة تجسس في الداخل، ونراقب محادثاته، نحصل على دليل إدانة مباشر، ثم—"

قاطع ليام فجأة وهو يلوّح بيده بازدراء:
"خطة سخيفة."

ساد الصمت.

نظر إليه مايكل بحدة، لكن ليام أكمل دون أن يرفع صوته، بصوت منخفض كالسيف:
"تريدون إسقاط واحد من أعتى رجال المافيا في المدينة... بتسجيلات؟ هذا الرجل أخرج مئات الجثث من بين الطين دون أن تترك دمه نقطة على الإسفلت. ما تظنون أنكم ستجدونه يقول؟ 'مرحبًا، أنا فيكتور سانتوس وقد قتلت عشرين شخصًا'؟"

انحنى للأمام وأسند مرفقيه على ركبتيه، نظر إلى الأرض ثم تابع:
"فيكتور ليس غابرييل. لا يتحدث. لا يعترف. لا يتفاخر. علينا التفكير كأشباح، لا كشرطيين."

رمقه كايل بعينين ضيقتين ثم قال:
"إذا كانت خطتنا سخيفة، فهات أنت ما هو أذكى منها، يا ظل ريفنشيد."

رفع ليام عينيه إليه، ابتسم بخفة باردة، وقال:
"بث الرعب... قبل إسقاط الرأس. نجعله يشعر أن نهايته قريبة، نجعله يشك فيمن حوله، يشرب دواءه بشك، وينام خلف ثلاث أبواب ويستيقظ مذعورًا. ثم نكسر قلبه... عبر ابنه."

تراجع مايكل في كرسيه ببطء، تنهد وقال بهدوء:

"وهكذا يتحدث من عاش في الجحيم."

ثم قال نواه بصوت خافت لكنه حاسم:
"أرفض..."

تحولت الأنظار كلها إليه، عيون ليام وكايل ومايكل تجمدت عليه. لكنه لم يتراجع، بل تابع بنبرة ثابتة:
"ابنه... صديقي. جوليان ليس كوالده، وإن كنتَ لا تثق به، فأنا أعرفه أكثر منك. رأيت بأم عيني كيف يعاني من كونه ابن فيكتور. لا يمكنك أن تستخدمه كسلاح لكسر والده."

شهق كايل بخفة وكأن المفاجأة خنقته، بينما اكتفى مايكل بالنظر إلى نواه بصمت.

أما ليام، فبقي يحدّق في نواه طويلاً، ثم قال ببطء كمن يفرز الكلمات من بين الغضب:
"صديقك؟ جوليان سانتوس؟"

أومأ نواه ببطء، ثم وقف من مكانه، وأضاف:
"هو الوحيد الذي لم يرَني كمجرد شبح من الماضي. لم يحكم عليّ، لم يسألني عن شيء، فقط... عاملني كإنسان. وهذا أكثر مما فعله أي شخص منذ أن خرجت من دار الأيتام."

وقف ليام هو الآخر، وتقدّم نحوه خطوة، حتى صار على بعد أنفاس منه، ثم قال ببرود قاتل:
"إذا كنت تظن أن الصداقة ستنقذ هذا العالم، فأنت ما زلت طفلًا."

ردّ نواه دون أن يطرف:
"وإذا كنت تظن أن الانتقام وحده سينقذك من ماضيك... فأنت ما زلت ضائعًا."

ساد صمت كثيف، ثم تنحنح مايكل ورفع يده كإشارة للهدوء، وقال بصوت حازم:
"كفى. لا نملك ترف التمزق الداخلي. كلٌّ منكم له ألمه، لكننا في خندق واحد. نناقش الخطة لا لنمزق بعضنا، بل لنجد نقطة ضعف لا تسحق روحًا بريئة أخرى."

نظر الثلاثة لبعضهم بصمت، وكل منهم يحمل حربه الداخلية في صدره...

ثم قال نواه، ونبرته لا تشبه التهديد بل تشبه الجرح:
"إذاً... إن كنتم مصرّين على استخدام جوليان، فسأنسحب. سأغادر هذا المكان، وسأحقق انتقامي وحدي."

تجمّدت اللحظة، وكأن الغرفة ضاقت فجأة. كايل حدق فيه بقلق، بينما ليام لم يُبدِ أي رد فعل، فقط شدّ على فكّه وكأن شيئًا ما داخله يتكسر.

تابع نواه بصوت هادئ لكنه مشبع بالغضب المكبوت:
"لن أكون طُعماً في خطة لا تعرف الفرق بين المذنب وابن المذنب. أنا جئت لأنتقم ممن دمروا والدي، لا لأكرر دمارهم بأسلوب آخر."

تقدم مايكل منه بخطى بطيئة، ثم قال بصوتٍ عميق يملؤه الإعياء:
"كلنا فقدنا... وكلنا نعرف أن الشر لا يترك مجالًا للرحمة. لكن أحيانًا، طريقة انتقامك قد تُبقيك ضحيةً له دون أن تشعر."

لكن نواه هزّ رأسه ونظر إلى ليام مباشرة، بعينين تعبتا من البكاء الخفي، وقال:

"أنا فقط لا أريد أن أصبح ظلًّا آخر في مدينة لا ترى سوى الظلال."
ثم استدار... وغادر.

ثم، وكأن نواه لم يكن موجودًا منذ البداية، التفت ليام نحو كايل متجاهلًا الباب الذي أُغلق خلف نواه بصدى حاد، وقال ببرود خالٍ من العاطفة:

"هل وجدت الهاكر؟"

رفع كايل بصره إليه، بدا التوتر في عينيه لكنه لم يعلق على تصرف ليام. فقط أومأ ببطء وقال:

"وجدت واحدًا. يلقب نفسه بـ CipherBurn. لا نعرف اسمه الحقيقي، لكن سمعته تُسبق خطواته في كل الشبكات السوداء... قادر على اختراق منظومات كاملة خلال دقائق، ولا أحد يستطيع تتبّعه."

اقترب ليام خطوة وقال:
"هل سيوافق؟"

أغلق كايل الحاسوب وردّ بنبرة فيها قليل من الحذر:
"سيوافق... مقابل شيء ليس بالمال."

"ماذا يريد؟"

"يريد أن يرى سقوط غابرييل حيًّا. يريد انتقامًا شخصيًا... قال إن غابرييل دمّر أحد أحبّائه في الماضي."

ابتسم ليام ابتسامة شبه غائبة، ثم قال بنبرة متهكمة:

"جميل... يبدو أن الظلال بدأت تتجمع."

في الجامعة، كانت إليورا جالسة قرب النافذة في قاعة شبه فارغة، ودفاترها مفتوحة أمامها لكن عينيها لا تقرأ شيئًا. كان ذهنها عالقًا في الليلة الماضية، حيث ظل صوته يرن في أذنيها كصدى لا يزول: "لقد فكرت بكِ كثيرًا حتى وقعت بحبكِ...".

راحت تسرح، تتذكّر كيف بدا حين حضنته، كم كان هشًا رغم قسوته، كأن العالم انكسر بداخله ولم يتبقَّ منه سوى رماد رجل يتعثر بشظايا ماضيه. كانت تستطيع أن تشعر بتلك الرجفة الخفيفة في جسده، والبرد الذي لم يكن سببه المطر أو الثلج، بل تلك الوحدة القاتلة التي أكلت سنواته بصمت.

شدّت معطفها حولها، لكنها لم تستطع أن تبعد عنه. شيء ما في ليام، رغم كل الظلام الذي يحيط به، كان يوقظ في قلبها شفقة... لا، لم تكن شفقة، بل إحساسًا أعمق. شيء يشبه الألم المتبادل.

همست لنفسها، وعيناها على السطر ذاته منذ عشر دقائق:
"هل يمكن حقًّا أن يُحبّ شخص كليام؟ أم أن حبه يشبه جراحه... لا يُشفى ولا يُشفى منه؟"

وامتلأت عيناها بلمعة خفيفة، لكنها مسحتها سريعًا، تذكيرًا لنفسها أن التعاطف مع قاتل قد يقودها إلى الحافة... أو إلى قلبه.

في جانب المحقق ريتشارد، وللمرة الأولى في حياته المهنية، وجد نفسه يتمنى أن يرى جثة أخرى.

لم يكن ذلك من قسوة قلبه، بل من شدة الضغط والشكوك التي أحاطته. توقف القتل منذ أسبوع، وصمت الظل جعل المدينة تهمس باسمه بطريقة مشبوهة. الشائعات بدأت تتكاثر كالعفن في الزوايا المظلمة، تتحدث عن اتفاق سري بينه وبين ظل ريفنشيد، أو عن عجزه الذي تلطّف بالصمت.

كان يجلس خلف مكتبه في مركز الشرطة، يحدّق في الأوراق الباردة التي لم تعد تحمل دماءً أو دلائل، فقط ملفات عالقة وأقلام لا تكتب شيئًا جديدًا.

همس في داخله بحنق:
"اللعنة... حتى الجريمة هجرتني."

كل ما حوله يذكّره بالعجز، بكاميرات الإعلام التي لم تعد تلاحقه، ليس لأن القضية أُغلقت، بل لأنهم لم يعودوا يرونه جديرًا بالمتابعة.

كان يتمنى جثة، لا ليشبع فضوله الدموي، بل ليعود اسمه إلى الضوء، ليكفّ الناس عن القول:
"إن ريتشارد لم يكن سوى ظل آخر... لكن دون شرف."

ثم فُتح باب المكتب دون طرق، ودخلت الشرطية سيليسا بخطى ثابتة. وقفت أمام ريتشارد، وضعت يدها اليمنى على خصرها في حركة اعتادت عليها عندما تشعر أن من أمامها يغرق في أفكاره.

نظرت إليه بنصف ابتسامة وقالت بنبرة شبه ساخرة:

"بماذا تفكر؟ في كيفية إقناع الصحافة أنك لم تعقد صفقة مع الشيطان؟"

رفع ريتشارد عينيه نحوها ببطء، كأن صوته كان محاصرًا خلف جدار ثقيل من الإرهاق.

قال بهدوء، لكن عينيه كانتا تفضحان الغليان:

"أفكر... أنني أصبحت بحاجة إلى قاتل، لا إلى دليل."

ضحكت سيليسا بخفة، ثم اقتربت خطوة وسحبت الكرسي المقابل له وجلست، وضعت قبعتها على الطاولة وقالت:

"هذا غير مألوف، عادةً من نطاردهم هم من يقولون ذلك... لا من يطاردهم الصحفيون."

أطلق تنهيدة طويلة، وأخفض رأسه للحظة ثم تمتم:

"هل سبق وشعرتِ أن الصمت نفسه أصبح دليلكِ الوحيد على أنك فاشلة؟"

رفعت سيليسا حاجبًا، ومالت إلى الأمام:

"أنت لم تفشل بعد يا ريتشارد... لكنك إن واصلت الغرق في رأسك، فستكون أول من يطعن نفسه دون سكين."

في الجانب الآخر من المدينة، في شقة معتمة يملؤها دخان السجائر وضوء الحاسوب المتوهج، كان كايل واقفًا أمام الطاولة، يشرح

لخطة دقيقة، بينما ليام ومايكل يستمعان بتركيز.

قال كايل، وقد أشار إلى صورة رجلٍ ضخم على الشاشة:

"اسمه ماركوس فيغا... اليد اليمنى لفيكتور، وقلبه الذي ينبض بالعنف. قبل أن نُسقط الملك، علينا أن نكسر سيفه. الليلة، سيكون هناك احتفال خاص لكبار الشخصيات، وهو بالتأكيد سيحضر. لدينا فرصة واحدة فقط."

ثم أخرج من الحقيبة الصغيرة أمبولة صغيرة زجاجية ذات سائل شفاف:

"ستضع هذا في نبيذه. سمٌّ نادر لا يترك أثرًا واضحًا، يقتل خلال دقائق."

لكن ليام ضحك بخفة، مائلًا بجسده إلى الوراء، عاقدًا ذراعيه:

"سم؟ فكرة قديمة يا كايل... أن تموت بلا وجع؟ أين المتعة في ذلك؟"

ثم أمال رأسه قليلاً، وعيناه تلتمعان بظل من الجحيم:

"ما رأيك بزجاج ناعم؟ مسحوق زجاج غير مرئي يُمزج في الشراب... يُمزق أحشاءه من الداخل، يجعله يصرخ كالكلب قبل أن يموت. سيكون أشد عذابًا... وأكثر عدلاً."

نظر مايكل بينهما بصمت، ثم قال بنبرة متحجرة:

"طالما النتيجة واحدة... فلتكن على طريقتكم. لكن لا تفشلوا، وإلا لن ينجو أحد منّا."

ساد الصمت لوهلة.

ثم قال كايل وهو يضع الحاسوب جانبًا:
"إذن، الليلة... نسحب أول حجر من عرش الجحيم."

ثم قال مايكل بنبرة جادة، عاقدًا حاجبيه: "من سيذهب لكي يضع الزجاج في نبيذ كارلوس؟"

تبادل الجميع النظرات، والجو مشحون بالتوتر.

ابتسم ليام بابتسامة ثقة قاتلة وقال: "أنا سأذهب. لا أحد يعرفني هناك، ووجهي لن يظهر أبدًا."

ثم أضاف ببرودٍ مهيب: "الزجاج الناعم سيكون أكثر إيلامًا من السم. سأجعل كارلوس يشعر بكل شظايا الألم في كل رشفة."

نظر إليه كايل بإعجاب وقال: "هذا هو روحنا. لا مجال للخطأ."

أما مايكل فحذر: "تأكد من أن الحراسة مشددة في المكان، لا يجب أن نترك أي أثر يفضحنا."

رد ليام بثقة: "أنا ظل لا يُرى، وسأعود لأخبركم بما حدث."

في جانب كارلوس، كان يستعد للحفل قبل ساعات طويلة، يرتدي بدلة سوداء أنيقة تحاكي قوة ومكانة لا تُضاهى. تأمل انعكاس وجهه

في المرآة، متلمسًا خط الفك الصارم والعيون التي تحمل بريق الغرور والسيطرة.

طلب من مساعديه زيادة عدد الحراس حوله، فأمر بترتيب رجال أمن مسلحين ومخلصين لا يُعرفون للرحمة. كان يعلم أن الليلة ليست كباقي الليالي، وأن هناك من يحاول العبث في مملكته، لكنه كان واثقًا من قوته وجاهزيته لمواجهة أي تهديد.

نظراته كانت تعكس حدة المراقبة، وكأن كل حركة وكل نفس ستكون تحت المراقبة الدقيقة، فلا مجال للخطأ في هذه الليلة المصيرية.

في الحفل، كان الجو مفعمًا بالفخامة والتوتر معًا. أضواء كريستالية تلمع فوق رؤوس الحضور، وموسيقى كلاسيكية تعزف بأنغام عميقة تعكس قوة المكان وسلطته. الكراسي المزخرفة تملأ القاعة، والمشروبات الفاخرة تتطاير من يد إلى أخرى وسط همسات مكثفة وأعين تتبادل النظرات المشبوهة.

كارلوس ظهر كملك متوج، يمشي بخطوات واثقة وسط جمع من رجال العصابات وكبار الشخصيات الذين جاءوا لتأييده أو لخدمة مصالحهم. حوله حراس مسلحون يحيطون به كالسوار الذهبي، لا يسمحون لأي تهديد بالاقتراب منه.

لكن تحت هذه الأجواء الصاخبة، كان الخطر يختبئ في زجاجة النبيذ التي لم تزل في انتظار لحظة سمها تخترق جسد كارلوس، ليبدأ الفخ الذي رسمته يد ليام ورفاقه بحذر ودهاء. كل حركة وكل نظرة تحمل رسائل مخفية، وكان الثأر ينتظر اللحظة المناسبة ليشعل النيران في قلب هذا الحفل الملكي.

ثم خدر ليام أحد النادلين في الخارج، كان شابًا في العشرينات من عمره، يهمّ بإشعال سيجارة خلف المبنى، حين اقترب منه ليام بهدوء وحيّا بابتسامة مصطنعة. لم تمر لحظات حتى كان المخدر قد بدأ يسري في دمه، وسقط النادل أرضًا بلا صوت.

سحب ليام جسده بهدوء خلف جدار مظلم، ثم استبدل ملابسه بزي النادل، وانتزع بطاقة الهوية المزودة بشيفرة الدخول. ارتدى القبعة وانحنى قليلًا ليخفي ملامحه، وتوجه نحو البوابة.

أوقفه الحارس بنظرة رتيبة وسأله: "أين كنت؟ تأخرت."
رد ليام بصوت منخفض، مقلدًا نبرة النادل: "كان هناك تأخير في استلام النبيذ الخاص من المطبخ الخلفي."
أومأ الحارس بتكاسل، وفتح له الباب.

دخل ليام الحفل وقد خفتت الأضواء وبدا كل شيء مهيأ للجريمة القادمة.

ثم اقترب ليام من أحد النُدُل في الداخل، كان شابًا أشقر يضع منشفة على كتفه، منشغلًا بترتيب الكؤوس على صينية فضية. وقف ليام أمامه بثقة وهدوء، ثم قال بصوت منخفض لكنه حازم:

"أمرني السيد كارولوس بإحضار النبيذ الخاص به، أين هو نبيذه؟"

رفع النادل رأسه بتوتر، نظر إليه سريعًا ثم أشار نحو الطاولة الكبيرة خلف الستارة الحمراء، وقال:

"إنه هناك، في الزجاجة المغلقة بختم ذهبي، لا أحد يلمسها سواه."

أومأ ليام بثقل، ثم مضى بخطى ثابتة نحو الطاولة المقصودة، وقد بدأت ملامح خطته تتشكل على مهل بين الظلال وضوء الثريات المعلّقة.

اقترب ليام من الزجاجة المخصصة لكارولوس بهدوء متقن، ثم أخرج من جيبه قماشة صغيرة مطويّة بعناية، تبدو عادية في

ظاهرها، لكن بداخلها شيء آخر تمامًا.

فتحها على مهل، وإذا ببقايا زجاج مهشم، حاد ولامع، مقطعة لقطع دقيقة للغاية، لو لامست الجلد لجرحته على الفور. كان قد طحنها من مرآة قديمة، وصقلها بما يكفي لتبدو غير مرئية داخل أي سائل.

نظر حوله، تأكد من أن لا أحد يراقبه، ثم رفع الزجاجة، فتحها ببطء، وسكب بداخلها تلك القطع الشفافة من الزجاج الناعم كما لو كان يضيف توابل سرية لشرابٍ قاتل.

تحرك النبيذ في عنق الزجاجة ببطء، وبدأت شظايا الزجاج تغوص فيه كأنها تذوب، لكنها كانت حاضرة، حادة، تنتظر فمًا جشعًا أو شفة مطمئنة لتطلق الألم.

أعاد ليام القماشة إلى جيبه، شد ياقة قميص النادل الذي يرتديه، ثم التفت ليكمل مهمته دون أن يرف له جفن.

شقّ ليام طريقه نحو الصالة الكبيرة التي تعجّ بأصوات الكؤوس المتصادمة والضحكات المصطنعة والنغمات الراقية المنبعثة من فرقة موسيقية على الجانب. كان يسير بخطى محسوبة، يحمل بين يديه صينية تحمل زجاجة النبيذ المُخصّصة لكارولوس وكأسًا بلوريًا، تمامًا كما خُطّط له.

مرّ من أمام حراس الأمن بثقة، ملوّحًا بهويّة النادل الذي خدّره، فأومأ له الحارس برأسه دون أن يتفحّص، كمن اعتاد رؤية الوجه نفسه عشرات المرات.

دخل ليام الصالة، وبين الزحام وأضواء الثريات المتدلية، كان كارولوس واقفًا يضحك بصوت عالٍ، يلتف حوله رجال نفوذ وساسة وتُجّار، يتحدث ويُصافح، كأنه أمير الحفل المتوَّج.

اقترب ليام، وقف خلفه بثبات، ثم مال قليلًا وهمس بصوت منخفض يحمل نبرة رسمية:
"نبيذك يا سيدي، كما طلبت."

التفت كارولوس جزئيًا دون أن يهتم كثيرًا بمن يقدمه، فأخذ الكأس من الصينية، رفعه نخبًا للهواء، وقال بصوت أجشّ:
"إلى الليالي التي لا تُنسى!"

وضحك من حوله وضحك معهم... ثم رفع الكأس إلى شفتيه.

ابتسم ليام بخبثٍ خافتٍ بينما تراجع خطوةً إلى الوراء، عيناه تراقبان كارولوس عن كثب وهو يرفع الكأس إلى فمه. لحظة واحدة كانت كفيلة بأن تحبس الزمن، كأن الصالة تجمدت تحت أنفاسه.

كارولوس شرب رشفةً صغيرة، ثم أخرى. ملامحه ظلت كما هي، للحظات... ثم تغير كل شيء.

انقبض وجهه فجأة، وكأن شظية اخترقت حلقه من الداخل. قبض على عنقه، وسعل بقوة، فاندفعت قطرات نبيذ ممزوجة بالدم من فمه. صرخ أحد الحاضرين، وتراجع الآخرون بفزع، بينما تحطم الكأس على الأرض وتناثرت شظاياه بجانب حذائه اللامع.

تراجع كارولوس وهو يترنح، سقط على ركبتيه، وصوته المشروخ يهمس بشيء غير مفهوم. كانت أنفاسه ثقيلة كمن يبتلع سكاكين زجاجية. الدم ينزف من فمه وأنفه، ويداه ترتجفان كأن جسده يشتعل من الداخل.

أما ليام، فظل واقفًا في الزاوية، في ظل أحد الأعمدة، يراقب المشهد كرسامٍ ينظر إلى لوحته الأخيرة... ثم تمتم بين شفتيه بابتسامة هادئة:

"هذا ألمك الأول... فيكتور، انتظر دورك."

صار جسد كارولوس يتلوى كأن الزجاج يرقص في أحشائه. أنينٌ عميقٌ خرج من صدره، صوتٌ غليظ يتقطّع تحت وطأة الألم. قبض على بطنه بكلتا يديه، أصابعه تحاول تمزيق سترته وكأنها تبحث عن مخرج لما ينهشه من الداخل. زجاج النبيذ المطحون كان قد بدأ رحلته من فمه نحو أمعائه، يشق طريقه قاسيًا بلا رحمة.

سقط كارولوس على جنبه، يرتجف كما لو أن شبح الموت يقف عند رقبته، يحصي أنفاسه الأخيرة. تسمرت عيون الحاضرين عليه، بعضهم صرخ مذعورًا، آخرون اتصلوا بالإسعاف، فيما وقف الحرس حائرين لا يعرفون ما يفعلون. أحدهم حاول الاقتراب، لكن كارولوس صرخ صرخة عالية، حادة، كأنها من عمق الجحيم نفسه، ثم بصق دمًا فيه شظايا واضحة كالبلورات، ارتطمت بالأرض ولامعت للحظة تحت أضواء القاعة الباذخة.

عيونه بدأت تفقد تركيزها، أحدهم قال إنه يهذي، يتمتم بكلمات غير مفهومة، وربما كان يطلب النجدة، وربما كان يلعن فيكتور...

في الزاوية المقابلة، انسحب ليام بهدوء، ملامحه هادئة كأن شيئًا لم يكن. تنكر النادل ما زال يخفيه جيدًا، وخطواته المتقنة لم تثر شك أحد. توقف عند المخرج للحظة، أدار رأسه ونظر إلى كارولوس الساقط وسط بحرٍ من الذعر، ثم ابتسم ابتسامة باهتة وقال في نفسه:

"شظاياك الأولى... كُسِرت."

كانت الشظايا قد جرت بعروق كارولوس بشدّة، وكأنها جيش من الخناجر الصغيرة يغزو جسده من الداخل. كل نبضة من قلبه كانت تدفعها أبعد، أعمق، نحو كل زاوية من كيانه، تمزق الأنسجة، وتخرمش الأحشاء، وتصرخ في أعصابه ألمًا لا يُحتمل. بدت عروقه وكأنها أنابيب من لهب وسكاكين، يتقلب على الأرض متلوّيًا، وجهه ازرقّ ثم تدرج إلى الرمادي.

ارتفعت حرارة جسده حتى بدا كأنه يحترق من الداخل، عيونه اتسعت كأنها ترفض الموت، وفمه فُتح بلا صوت، يحاول الصراخ ولا يستطيع. الدم خرج من أنفه، من أذنه، وحتى من عينيه. كان مشهدًا لا يشبه سوى نهاية رجل سقط من عرش القسوة، وتحول إلى كومة من الألم.

ثم، وفي لحظة خاطفة، سكن جسده فجأة.

توقف عن الحركة.

هدأ، كأنه نام، لكن الجمر الذي انتشر داخله لم يترك شيئًا حيًا.

وصل الخبر إلى فيكتور سانتوس كطلقة نار في صمت الليل. كان جالسًا في مكتبه الكبير، الستائر نصف مغلقة، وضوء خافت يتسلل من المصباح النحاسي الذي لم يكن يكشف سوى وجهه الغاضب. دخل أحد رجاله، وجهه شاحب، خطواته ثقيلة كأنها تحمل موتًا.

قال بصوت مرتجف:
"سيدي... كارولوس... مات."

توقّف فيكتور عن تقليب أوراقه، لم يرفع نظره مباشرة، بل ظل صامتًا، وكأن عقله يعيد ترجمة الكلمة. ثم رفع رأسه ببطء، ناظرًا للرجل:

"ماذا قلت؟"

"كارولوس، مات... خلال الحفل، بطريقة غريبة... تقيأ دمًا، كان يصرخ بشدة... مات بعد دقائق فقط، أمام أعين الجميع."

ضاقت عينا فيكتور، وشدّ على قبضته فوق المكتب حتى ابيضّت مفاصله.
"كيف؟ من؟ هل هناك تسجيل؟ شهود؟"

"التحقيقات الأولية لم تثبت شيئًا بعد، لكن... البعض يعتقد أنه تسمم... بطريقة غير مفهومة، ليست مادة معروفة. بدا كأن شيئًا حادًا ينهش جسده من الداخل."

صمت فيكتور طويلًا، ثم قال:
"هذا لم يكن صدفة. أحدهم أراد إيصال رسالة."

ثم تابع، وهو ينهض من كرسيه ببطء كوحش أُيقِظ من سباته:
"من من أعدائي يملك هذه الجرأة؟ من تجرأ على لمس كارولوس؟"

اقترب من النافذة، نظر إلى انعكاسه، ثم قال:
"ابحثوا في كل الاتجاهات. تحرّوا عن منافسيّ القدامى. أي حركة مريبة، أي وجه جديد. أحدهم بدأ لعبة، لكن لا أحد ينهي اللعبة ضدي."

ثم التفت نحو مساعده وقال بصوت جامد:
"واعتبارًا من الآن... كل من حضر الحفل، كل اسم، كل نادل، كل كاميرا، كل نفس، يُراجع ويُراقب."

ثم أكمل، وهو يبتسم ابتسامة مشوهة:
"أنا لا أُلدغ من الظل... إن كان للقاتل اسم، سأحفره في جمجمة صاحبه."

عاد ليام إلى المنزل بخطوات متسارعة، ولا تزال ملابس النادل تلتصق بجسده، تفوح منه رائحة العرق والنبيذ، ووجهه يحمل مزيجًا من الإنهاك والنشوة. دخل من الباب وأغلقه خلفه بقوة، ثم انحنى قليلًا وهو يضحك بتقطّع، وكأن جسده لا يصدّق أنه فعلها، أنه فعلها حقًا.

ضحكته لم تكن صافية، بل كانت مختنقة، كأنها تخرج من أعماق جرح قديم... ثم صرخ، لكن ليس بصوت عالٍ، فقط بما يكفي ليصل إلى الغرفة المجاورة:

"كايل... تم."

لم ينتظر ردًا، بل بدأ يفك أزرار قميصه النادلي، يداه ترتجفان من فرط الأدرينالين، وصدره يعلو ويهبط. جلس على حافة الأريكة، وأغمض عينيه، يتذكر ملامح كارولوس وهو يتلوّى، الدم يسيل من فمه، الذعر في أعين الضيوف... كان المشهد يستحق كل خطوة، كل ثانية.

دخل كايل بعد لحظات، عينيه تحملان قلقًا ممزوجًا بترقّب.
"أتممته؟ دون أن تُكشَف؟"

فتح ليام عينيه، ونظر إليه بنظرة رمادية، مشبعة بشيء يشبه الرضا:

"لم يعرف أحد... حتى فيكتور لن يعرف من أين أتى الخنجر."

ابتسم ليام بخبث، وأخذ نفسًا عميقًا قبل أن يسأل كايل بنبرة مفعمة بالتوقع والدهاء:

"ماذا تتوقع أن تكون ردة فعل فيكتور بعد موت كارولوس؟ هل سيعرف من نفذ العملية؟ أم سيغرق في دوامة من الشكوك التي ستجعله يتخبط بلا هدى؟"

نظر كايل إلى ليام بعينين هادئتين، ثم أجاب بصوت منخفض لكنه واثق:

"فيكتور لن يكون فقط غاضبًا، بل سيشعر بالخيانة العميقة والارتباك الذي سيهز كيان عصابته. هو رجل متسلط لكن لديه نقطة ضعف خطيرة: لا يثق إلا بمن حوله. موت كارولوس سيزرع في قلبه بذور الشك والريبة. سيبدأ في التشكيك في كل أحد، سيعيد تقييم كل تحالف وكل كلمة قالها له أحدهم. هذا سيشعل نار الانقسامات داخل عصابته، وربما يدفعه لاتخاذ قرارات متهورة بدافع الخوف والقلق."

ابتسم ليام ببطء وقال: "إذاً نحن في الطريق الصحيح. حرب نفسية قبل أن تكون حرب دماء. حين يبدأ فيكتور بالانهيار من الداخل، سنكون نحن الأقوى، المستفيدين من فوضى عقله التي صنعناها."

نظر كايل إلى ليام، وأضاف بهدوء: "لكن لا يجب أن نغفل، فيكتور ليس رجلاً سهلاً، سيحاول شن هجوم مضاد شرس، لذلك علينا أن نكون مستعدين لكل تحركاته. خطة الانتقام هذه ليست مجرد سلسلة من الضربات، بل هي لعبة شطرنج مع خصم ذكي وقاتل."

رفع ليام رأسه وأجابه بابتسامة ثقة: "دعهم يأتوا. لقد بدأت اللعبة، ونحن من يسيطر على القطع الآن."

في جانب فيكتور، وصل إلى موقع الحادثة محاطًا بهالة من الغضب المكبوت والريبة التي تكسرت كأنها جدار هش حوله. خطواته الثقيلة تردد صدى الغضب في أزقة ريفنشيد القذرة، وعيونه تحترق بنار الانتقام والرغبة في كشف الخيانة التي ضربته في قلب عصابته.

عندما وصل، رأى الجثة هامدةً ممددةً بين زجاجات النبيذ المهشمة، والشظايا الصغيرة التي غرست في جسد كارولوس كما لو كانت سهامًا من نار تنزف في عروقه. صمت المكان ثقيل، كأن المدينة نفسها تحبس أنفاسها، فيما فيكتور يتقدم ببطء، يلمس برأس أصابعه آثار الدماء الباردة، عيناه لا تفارقان الجسد.

حوله، الرجال يتحدثون بصوت منخفض، يشاركون الأخبار دون أن يجرؤ أحد على لقاء عينيه، خوفًا من الغضب الذي قد ينفجر في لحظة، لكن فيكتور كان يعلم أن وراء هذا الحدث عملاً مدبرًا، أن اليد التي أودت بحياة كارولوس كانت تخفي شيئًا أكبر، شيء قد يهز أركان ملكيته للعالم المظلم الذي بناه.

توجه فيكتور إلى أقرب رجُل من رجاله، بصوت جهوري ومليء بالقسوة قال: "أريد أن أعرف من كان آخر من كان مع كارولوس، وأريد إجابات دقيقة... هذا ليس حادثًا عاديًا، هذه رسالة، ورسالة ستُرد."

ثم تقدّم الرجل بخطوات ثقيلة تتناغم مع وقع قدميه على أرض الصالة، وأصدر صوته كصدى مرعب في الصمت الكثيف، قائلاً بنبرة متثاقلة، وكأن كل كلمة تزن على صدره:
"إن من قدم النبيذ كان نادلاً... طويل القامة، ذا بنية متوسطة، يلبس زي النوادل المعتاد... لكن شيئًا في عينيه لم يكن طبيعيًا."

رفع فيكتور حاجبيه، عاقدًا جبينه، وهو يدرك أن هذا الوصف لا يشير إلى مجرد نادل عادي، بل إلى شخص يخفي وراءه شيئًا، شيئًا خطيرًا...
ابتلع غيظه ببطء، ثم تمالك نفسه وقال بصوت منخفض لكن حاد كالشفرة:

"لا بد أن نعرف من هو هذا الظل الذي تسلل إلى عريننا... وأنه لا يفلت من قبضتي."

كان الغضب في عينيه نارًا تكاد تحرق كل شيء حوله، ومثلها كان العزم في صدره على الانتقام... مهما كلف الثمن.

رفع فيكتور هاتفه بيد مرتجفة من الغضب المكبوت، وأدار الشاشة بأصبعه وهو يضغط على رقم غابرييل.
دق الهاتف مرتين، ثم جاء صوت غابرييل البارد كثلج يذوب ببطء: "نعم، ماذا تريد؟"

تنفس فيكتور بعمق محاولًا تهدئة اللهجة التي تخرج من بين أسنانه وقال بحدة لا تخلو من التوتر:
"الأمر صار أسوأ مما توقعت... كارولوس مات، والنادل الذي قدم له النبيذ لم يكن سوى أحد أعدائنا... أحتاجك أن تأتي فورًا.
الوضع يحتاج لمهاراتك الخاصة."

سمع فيكتور صوت غابرييل يتنهد ببطء قبل أن يجيب:
"حسنًا، سأكون هناك قريبًا... لا تدع الأمور تخرج عن السيطرة."

أغلق فيكتور الهاتف وهو يحدق في الظلام، يعرف أن المواجهة القادمة ستكون أكثر وحشية وخطورة مما تخيل.

بعد ساعات، دخل نواه المكان بهدوء، ناظرًا فيكتور بعينين باردتين تحملان أثر الماضي الثقيل. استوقفه فيكتور بنظرة حادة وصوت متهدج بالغضب:
"أين غابرييل؟"

ابتسم نواه ابتسامة مريبة، وأجاب بصوتٍ كأنه يزن كل كلمة قبل النطق بها:
"مشغول... لديه أعمال خاصة لا تسمح له بالظهور الآن."

تلاشى التوتر قليلاً على وجه فيكتور، لكنه ظل يحتفظ بحذر عميق. كان يعلم أن غابرييل، رغم غيابه، لا يترك شيئًا للصدفة. تذكر اللقاء الأخير بينهما، وكيف كان يحمل في عينيه تلك النظرة التي تخفي عاصفة من الأسرار والخيانة.

ثم قال فيكتور بصوتٍ خافت لكنه مليء بالتهديد:
"إذا كان غابرييل مشغولًا، فأنت مكانه الآن. لا تسمح لأحد بأن يعكر صفو الأمور، فهم يقتربون أكثر مما نتصور."

رد نواه بهدوء غريب، وكأنه يتعمد إثارة التوتر:
"لا تقلق... سأكون العين واليد التي تحتاجها."

وقبل أن يغادر، ترك فيكتور وراءه سؤالًا يثقل الأجواء:
"هل أنت متأكد من ولائك، نواه؟"

نظر نواه إلى فيكتور للحظة، ثم ابتسم ببرود وقال:
"الولاء؟ هذه كلمة كبيرة في عالمنا، يا فيكتور."

وانسحب تاركًا فيكتور يغوص في دوامة الشك والخوف.

تم نقل جثة كارولوس إلى قسم التشريح فوراً، حيث كانت العيون الحادة للأطباء الشرعيين تبحث عن أدق التفاصيل في جثته، محاولة الكشف عن أسرار موته الغامض. تحت الأضواء البيضاء الباردة، تحللت الشظايا التي اخترقت جسده، تاركة وراءها علامات دامية تؤكد عنف الفعل.

كان كل تحرك في المشفى يرافقه هدوء مشحون بالتوتر، فالكل يعرف أن وفاة كارولوس ليست مجرد حادث عادي، بل بداية لعاصفة قد تطيح بممالك مظلمة في تلك المدينة. بعد الانتهاء من التشريح، جرى ترتيب جنازة رسمية بآلاف الحراس والمراقبين، حيث توشح المكان بالسواد والحزن المزيف، وكانت وجوه الحضور تملؤها التحفّظ، إلا أن فيكتور سانتوس وقف هناك كتمثال من الغضب المكبوت، مهدداً بالانتقام لكل قطرة دم سالت في جسد كارولوس.

كان المشهد قاتمًا، وكأن الظلام ذاته يحكم تلك اللحظة، والجنازة تحولت إلى عرض قسوة ونذر حرب قادمة بين قوى الظل في المدينة.

بينما وقف فيكتور وسط الحشد في الجنازة، كان وجهه الصلب يظهر كجدار من الحديد لا يهتز، لكن داخله كان الألم يخنق روحه. مرض سرطان الدم الذي ينهش جسده بهدوء بدأ يرسل له رسائل قاسية؛ دوار خفيف، ضيق في التنفس، وخفقان غير منتظم في قلبه.

رغم ذلك، تجاهل كل هذه العلامات وكأنه يقهر الألم بإرادته الحديدية. لا مكان للضعف هنا، لا في هذا اليوم ولا في أي يوم قادم. كان فيكتور يعرف أن اعتماده على جسده الضعيف قد يكون نهايته، لكنه رفض أن يظهر أي نقطة ضعف، حتى لو كان ذلك يعني دفع جسده إلى حافة الانهيار.

كانت أنفاسه تتقطع بهدوء، وعيناه تلمعان بغضب يكاد يحرق كل من حوله، وكأن هذا الألم الجسدي مجرد وقود إضافي لمخططات الانتقام القادمة التي يخطط لها في الظل.

بينما أقيمت الجنازة في الخارج وسط وجوه مكلومة وأنفاس حائرة، كان ليام يجلس في مقرهم الخفي مع كايل ومايكل. عيونه تتلألأ بشيء من الغضب المنسجم مع الفرح المكتوم، وصوته يخرج بين ضحكات متقطعة وهو يروي تفاصيل خطته بكل وقاحة ودهاء. كان يصف كيف تسلل إلى الحفل متنكرًا، وكيف خدر الرجل النادل ليأخذ هويته، ثم كيف نثر الشظايا الناعمة في نبيذ كارولوس، ليصنع موتًا بطيئًا ومرعبًا.

ضحكاته لم تكن عادية، بل كانت تلك الضحكات التي تحمل بين طياتها انتقامًا صارمًا، وخبثًا لا يعرف الرحمة، واحتفالًا بانتصار غامض قادم من الأعماق. كايل ومايكل ينظران إليه بإعجاب مختلط بالتوتر، فخطوة واحدة فقط تفصلهم عن مواجهة فيكتور التي ستغير كل شيء.

ثم قال كايل ساخرًا: "تتكلم وكأنك أنجزت شيئًا كبيرًا، وكأنك قلبت الموازين. لكن الحقيقة أن فيكتور لا يزال قائمًا، ويده طويلة جدًا." نظر ليام إلى كايل بعينين لامعتين، ثم أجاب بابتسامة باردة: "ربما لم أنجز كل شيء بعد، لكن هذه البداية فقط. الحجارة بدأت تتحرك، والزلازل آتية لا محالة."

تبادل مايكل النظرات مع كايل، ثم قال بهدوء: "الخطوة القادمة ستكون أصعب، لكن إذا استمرينا معًا، فلن يكون هناك من يستطيع إيقافنا."

جلس الثلاثة وسط الظلمة المتغلغلة في الغرفة، ووسطهم شعور مشحون بالعزم والانتقام.

في جانب المحقق ريتشارد، كان الوقت يمضي ببطء قاتل داخل مكتبه الصامت. أكواب القهوة الفارغة مكدّسة، والملفات القديمة متناثرة على طاولته. كان يشعر بالملل وكأن المدينة لفظت أنفاس جرائمها فجأة، وتركته عالقًا في خواء لا يُحتمل.

مدّ يده إلى رفّ الغبار، وبدأ يقلب قضايا تم إغلاقها منذ سنوات، لا لشيء إلا ليملأ الفراغ بشيء أكثر صخبًا من الصمت. وفجأة، توقف عند ملف سميك مائل بين الملفات، وعليه ختم أحمر باهت: "مغلق - لا توجد أدلة كافية".

سحب الملف ببطء، ونظر إلى العنوان:
"قضية مقتل إيثان فوس - منذ 18 عامًا"

عقد حاجبيه، قلب الصفحة الأولى، وقرأ الملخّص:

الضحية: محقق يُدعى إيثان ڤوس

الحالة: مقتول أمام ابنه القاصر

الشاهد الوحيد: ابنه (ليام ڤوس) – لم تُؤخذ شهادته بعين الاعتبار

المتهم المحتمل: غير معروف

الإغلاق: نقص الأدلة + لا شهود معتبرين

توقف ريتشارد لحظة، ثم قال في نفسه: "ابنه كان الشاهد الوحيد؟ ولم تُؤخذ شهادته؟" ثم مرّر أصابعه على صورة إيثان داخل الملف، ورأى ملاحظة صغيرة مكتوبة بخط أحد المحققين السابقين:
"كان الصبي مصرًا على أن القاتل كان زميل والده، لكنه لم يمتلك ما يثبت ذلك. سلوك الأم بعد الحادث مشبوه."

ازداد الفضول في عيني ريتشارد، وأغلق الملف بقوة، ثم قال:
"قضية كهذه لا تُغلق... إلا إذا كان أحدهم أراد طمسها."

أشعل سيجارته ونظر من النافذة، كأن شبح الماضي بدأ يتسلل إليه، وقرر في لحظة خاطفة:
"سأعيد فتحها، حتى لو فتحَت أبواب جحيم ريفنشيد كلّها."

الملف لا يزال مفتوحًا أمامه، والاسم الذي لفت انتباهه في كل السطور هو:

ليام ڤوس
الشاهد الوحيد، ابن القتيل.

ضغط على القلم بقوة وهو يدوّن الاسم في دفتره الصغير، ثم تمتم بصوت منخفض:

"الولد كان هناك... رأى كل شيء، لكنهم تجاهلوه؟"

قلب الصفحات مرة أخرى حتى وصل إلى ملاحظات موجزة كتبها المحقق المكلف حينها، ريڤر كولينز. تساءل ريتشارد بصوت خافت وهو ينظر إلى توقيع المحقق أسفل الصفحة:

"من أنت يا كولينز؟ ولماذا دفنت القضية؟"

مد يده إلى الهاتف واتصل بأرشيف المحققين القدامى:

– "أحتاج ملف المحقق ريڤر كولينز، كل تقاريره، بالأخص المرتبطة بقضية إيثان ڤوس. وهل ما زال حيًا؟"

بعد دقيقة، جاء الرد:

– "لدينا عنوان قديم له، في حي هولبروك. لا نشاط مسجل له منذ أكثر من 10 سنوات."

دوّن العنوان، وأغلق الملف بعناية، لكن اسميْن بقيا يدوران في رأسه:

إيثان ڤوس
ليام ڤوس

تنفّس بعمق، ثم قال:

"لو تجاهله الجميع... فأنا لن أفعل."

وخرج من المكتب بخطى بطيئة لكنها حاسمة، غير مدرك أنه بدأ الآن السير على خيط هشّ يمتد إلى قلب الظلال في ريفنشيد.

كان نواه جالسًا خارج مقر التحقيق الكبير، يستند إلى الحائط البارد بعينيه الثاقبتين المغمضتين قليلاً، كأنما يحاول أن يغلق الباب على زوبعة الأفكار التي تعصف في ذهنه. تلاعبت به ذكريات كثيرة، لكنها كانت تركز على لحظة واحدة بالذات، حيث رفض خطة ليام بكل صراحة وحزم. كانت الخطة تقضي باستخدام جوليان، ذلك الشاب الذي يشبهه في البراءة والضعف، كطُعم لفيكتور، العدو الذي يحمل في قلبه كل سموم المدينة.

تذكر كلمات نفسه تردد في رأسه بلا هوادة: "جوليان ابنه صديقي... كيف لي أن أخونه بهذه الطريقة؟ كيف لي أن أجعله أداة في لعبة دم؟" كان قلبه ممزقًا بين العقل والمنطق، وبين العواطف التي امتدت عميقًا في تاريخه معهم. رغم أنه يدرك أن استخدام جوليان قد يكون الوسيلة الأقوى لإسقاط فيكتور، إلا أن فكرة أن يُساء استخدام صديقه الصغير كانت أشبه بخنجر يغرسه في خاصرته.

تراكمت في صدره أحاسيس الخيانة والواجب في آن معًا، وشعر بثقل الاختيار الذي أُلقي على كتفيه. كان يعلم أن الانسحاب من الخطة قد يعني مواجهة نيران الانتقام وحيدًا، لكنه أيضًا كان يخشى أن يُغرق جوليان في دوامة لا مفر منها. كلما تعمق في التفكير، ازداد الشعور بالارتباك والتمزق، وكأن مصيره ومصير من يحب محكوم بأحكام قاسية لا هو قادر على تعديلها.

نظر حوله إلى الأفق الرمادي خلف نوافذ المبنى، فتشبع بنظرات ضبابية تمزج بين الندم والتمرد، ثم عاد ليغلق عينيه عميقًا، كأنما يحاول أن يجد في سكون اللحظة راحةً لنفسه الممزقة بين صراع الولاء والانتقام.

سمع نواه صوتًا خلفه على يمينه، صوتٌ ناعم لكنه حاد كالسكين، قال بمرح مختلط بشيء من الحذر: "لم أعرف أنك تخفي همومًا بهذا الحجم، ظننت أنك فقط ذلك الرجل الساخر الذي لا يأخذ شيئًا على محمل الجد." التفت نواه ببطء، ليجد جوليان واقفًا هناك، عيناه تحملان مزيجًا من الفضول والقلق.

جوليان، الشاب ذو البنية القوية والوجه الصلب، كان يظهر في عينيه أكثر من مجرد صديق أو ابن لصديق، كان يحمل داخله عبء ما لم يستطع التعبير عنه بالكلمات، وها هو اليوم يكسر الحاجز بينهما، كاشفًا عن جانب من إنسانيته لم يكن نواه يتوقعه.

تردد نواه لوهلة قبل أن يرد، صوته منخفض لكنه صادق: "الهموم ليست حكراً على شخص معين، كلنا نحمل أثقالنا، لكن البعض يخفيها خلف قناع السخرية حتى لا تظهر ضعفًا." نظراته تلاقت مع نظرات جوليان، وكأنهما شاركا سرًا دفينًا من الألم والصراع.

في ظلمة الليل الحالك، تسلّل ليام بخفة النمر الجريح، مرتديًا بذلة ظل ريفنشيد التي اعتاد أن تغلفه بهالة من الغموض والرهبة. كان الليل صديقه المخلص، يمنحه الحماية وسط المدينة التي لا تعرف الرحمة، مدينة ريفنشيد التي تغوص في مستنقع الفساد والدماء.

كان قلبه ينبض بسرعة، ولكن تلك الدقات لم تكن دقات خوف بل دقات انتقام، دقات عازمة على قلب الطاولة على فيكتور وملحقاته.

كانت خطواته متأنية، لا تترك أثراً، كأنه روح تائهة تراقب فريستها من الظلال. قبل أن يقترب من مقر فيكتور، ألقى نظرة سريعة على السماء المغيمة التي كانت تخفي القمر، كأنها تحاول حجب النور عن حقائق المدينة المظلمة. تلقى من كايل قبل قليل رسالة مختصرة: الليلة الحراسة خفيفة، لا يتواجد سوى ثلاثة رجال فقط من الحراس، وهذا يعني أن فرصته سانحة.

دقات قلبه اشتدت، لكنها تحولت إلى نار تشتعل ببطء داخل صدره. "لن أقتلهم،" قال لنفسه بتصميم، "سأخذ منهم ما أريد من معلومات، سأجعلهم ينزفون من الرعب والخوف، لا من السلاح. هذا هو طريق الانتقام الحقيقي." تذكر أن فيكتور ليس رجلًا عاديًا، وأن الاقتراب منه يستوجب ذكاءً وخبثًا يفوقان كل شيء.

اقترب من البوابة الحديدية للمقر، وقف لحظة، وأمعن النظر في زوايا المكان، عيناه تلتمعان بين ظلال الليل. كان المقر يلفه هدوء مشوب بتهديد خفي، وكأن الجدران نفسها تحتفظ بالأسرار المظلمة وتتنفس عارفة بما يدبر خلف الكواليس. تردد لوهلة، ثم استجمع شجاعته، ومد يده نحو الباب الحديدي ببطء كأنها لمسة وداع قبل معركة قد تغير مصير المدينة كلها.

في رأسه كانت تدور الأفكار: كيف يدخل؟ كيف يستخرج المعلومات؟ كيف يتركهم أحياء ليشعروا برعبه؟ كان يعلم أن مجرد صراخه أو حركته الخاطئة قد تعني نهايته، ولكن داخله لم يكن هناك مجال للعودة أو التراجع.

خطواته التالية كانت محسوبة، كل حركة مدروسة، كل نفس عميق. لا مجال للخطأ، لا مجال للندم. كان ظل ريفنشيد، ذلك الطيف الذي لا يرحم، يقترب من قلب وحش المدينة، ليقطع أوصاله ببطء ودهاء.

فجأة، كسر صمت المقر ثقل وقع خطوات ثقيلة، ورأى أحد الرجال ليام، تلك اللحظة التي اعتقد أنها ستمرّ مرور الكرام تحولت إلى شرارة انفجار في وجهه. نظر الرجل إلى ليام بعينين ملتهبتين بالغضب والريبة، صوته ملؤه تهديد خفي وهو يقول: "ماذا تفعل هنا؟!" كأنما كل الظلام الذي يحمله ليام لم يعد كافيًا ليخفيه من أعين أعدائه.

كان ذلك اللقاء الأخير بين ليام وفيكتور عالقًا في ذاكرة هذا الرجل، صورة حاضرة بوضوح: ظلال ليام تتراقص في أروقة المقر، نظرات حادة تبادلها مع فيكتور قبل الانفجار الكبير. لم تكن مجرد مصادفة أن يرى هذا الرجل ليام هنا، بل كانت لحظة حاسمة قد تغير كل شيء.

توقف ليام للحظة، تنفس بعمق محاولًا إخفاء ارتباكه القليل، لكنه رد بصوت منخفض لكنه مليء بالتحدي: "أنا هنا لأخذ ما يستحقه فيكتور... لا أكثر." كانت كلماته كالسهم المشحون بالسم، تهدف لإثارة الخوف والشك في نفس الوقت.

الرجل لم يخف دهشته ولا غضبه، لكن عيناه لم تفارقا ليام، كانت تلك المواجهة بداية لمعركة قادمة، حيث لم يعد في المكان مجال للمناورة أو التراجع.

دخل رجل آخر بخطوات حازمة، نظر إليه بعينين مملوءتين بالشك، وقال بصوت جهوري وقاطع: "ما الأمر؟" ثم أمعن النظر في ليام بتمعن، كأنه يحاول قراءة نواياه خلف تلك النظرات الداكنة والقناع الغامض.

وقف ليام بثبات، يحاول أن يظهر هدوءه رغم التوتر الذي يملأ الجو، وأجاب بهدوء لكنه حازم: "جئت لأخذ معلومات مهمة عن فيكتور، وليس للقتال." كان كلامه يحاول أن يخفف من حدة الموقف، لكنه كان يعلم أن هذه اللحظة قد تتحول إلى صدام في أي لحظة.

ثم جاء الرجل الثاني بخطى حذرة، وقد انعقد حاجباه وهو يحدّق في ليام، ثم سأل رفيقه بحدة:
"ما الأمر؟ من هذا؟"

ردّ الأول، وقد تراجع قليلاً متحفّزًا:

"لا أعلم، لكنني رأيته من قبل... إنه هو من هاجم رجال فيكتور قبل أسابيع، ذاك الشبح الذي لا يترك خلفه إلا الدمار."

اشتد التوتر في الهواء، كأن الجدران نفسها شهقت. لم يكن أحدهم يعلم من هو ليام حقًا، لا اسمه، ولا قصته، فقط ظلاله التي سبقت حضوره، وصيته الغامض كمهاجمٍ يسعى لإسقاط إمبراطورية فيكتور.

قال الرجل الثاني بنبرة تهديد:
"أخطأت الليلة، يا مجهول… دخولك هنا يعني نهايتك."

لكن ليام لم يجب. كان ساكنًا كالموت، عينيه تتفحّص المكان كأنهما تبحثان عن أكثر من مجرد وجوه. كانوا ثلاثة، كما أخبره كايل، وكانت فرصته سانحة.

اندفع الأول نحوه، قبضته مرفوعة، لكن ليام انزلق جانبًا بخفة، ثم ضربه بمرفقه أسفل الأذن. سقط الرجل يتلوى.

الثاني استلّ سكينًا طويلة من تحت قميصه وهاجم، لكن ليام أمسك معصمه ودفعه نحو الحائط، ثم نطحه بجبينه نطحة عنيفة جعلت السكين تسقط أرضًا.
أما الثالث، وكان الأضخم، فقد تردد للحظة ثم ركض نحو ليام بتهور، لكن الأخير انحنى في اللحظة الحاسمة وأمسك ساقه ودفعه بقوة ليسقط ظهره على الأرض بصوت مدوٍ.

لم يمضِ سوى دقائق حتى كان الثلاثة إما فاقدي الوعي أو يئنّون من الألم.

اقترب ليام من أحدهم، جاثيًا على ركبته، ثم همس بصوت خافت وحادّ:
"أين يختبئ فيكتور؟"

الرجل، والدم ينزف من شفته، تمتم وهو يحاول التنفس:
"لا نعرف… لا أحد يعرف أين ينام… حتى نحن لا نراه إلا نادرًا… غابرييل هو من يتواصل معه… لا غيره."

صمت ليام للحظة، ثم قال:
"وهل يعلم أحدٌ مكان غابرييل؟"

"لا... إنه شبح... يظهر فقط عندما يريد هو... حتى فيكتور لا يثق بأحد كما يثق به."

وقف ليام ببطء، نظر إلى الخراب حوله، إلى الوجوه التي أدماها، ثم قال بصوت واهن يشبه الوعد:
"جميل... إذًا سأبدأ بالشبح، حتى أجرّ الملك من عرشه."

جثا ليام عند الرجل الثالث، ذاك الضخم الذي لم تزل أنفاسه تتقطع من شدّة الضرب، ورفع وجهه بقبضة ملطّخة بالدماء، ثم قال بنبرة منخفضة كمن يهمس للشر ذاته:

"هل هناك غرفة تحتفظ بالنفط؟"

رفع الرجل عينيه المرتجفتين إليه، ملامحه مشوّهة بالخوف أكثر من الألم، ثم تمتم بصوت مبحوح:

"نعم… القبو… خلف الممر الحديدي… يوجد خزان قديم، نستخدمه لتخزين الوقود وقت الحاجة... لم نعد ندخله كثيرًا."

أخفض ليام نظره للحظة، وكأن فكرة ما بدأت تنسج نفسها في ذهنه، ثم قال بصوت ثابت وهو ينهض:

"جيد... أنت من سيشعل الذكرى الليلة."

ثم سار بهدوء نحو الممر، خطواته لا تحمل تسرّع الهارب، بل يقين المنتقم، وكل ظلال ريفنشيد كانت كأنها تنتظر هذا الاحتراق منذ ثمانية عشر عامًا.

وصل ليام إلى الممر الحديدي المؤدي إلى القبو، يداه مغطاتان بآثار الصراع، وعيناه كجمرتين لا تخبو. دفع الباب الحديدي الصدئ بكتفه، فأصدر صريرًا حادًا ارتدّ صداه في المكان كأنّه أنين الزمن ذاته.

دلف إلى الداخل.

كانت الرائحة أول ما استقبله... نفط قديم، مختلط بالصدأ والعفن، ثقيلًا يخنق الهواء. أضاء مصباحًا صغيرًا من جيبه، فتراقص الضوء على الجدران الخرسانية. ثم ابتسم.

الخزانات... كثيرة، مصفوفة بتناسق كأنها نائمة تنتظر لمسة الدمار، بعضها عليه علامات تحذير باهتة، وبعضها مفتوح جزئيًا، كأن أحدًا نسي أمره منذ سنين.

اقترب ليام، مرّر يده على أحد الخزانات، ثم قال ساخرًا كمن يخاطب ميتًا:

"لم يتوقع أحد أن بيت الوحش يحتوي على قلبه القابل للاشتعال."

ثم أخرج ولاعة صغيرة من جيبه، قلبها بين أصابعه، دون أن يشعلها... بعد. فقط اكتفى بتلك النظرة الطويلة، المليئة بالاحتمالات القادمة، ثم همس:

"هذا سيكون دخان رسالتي... إلى فيكتور سانتوس."

اقترب ليام من الزاوية، حيث نافذة مكسورة تنفذ إلى الخارج، الزجاج المحطم ما يزال عالقًا بالحواف المعدنية، والبرد الليلي يتسلل منها كأنّه يراقب خطواته. رفع رأسه ونظر عبر الفتحة، فرأى على بعد أمتار مبنًى أصغر مجاورًا للمقر الرئيسي، سطحه أقرب قليلًا، وربما سيكون كافيًا للهرب إن قفز في الوقت المناسب.

تراجع خطوة، ثم أدار رأسه نحو الخزانات الممتلئة، زفر ببطء، وأخرج الولاعة مجددًا. اشتعل اللهب الصغير في راحة يده، وارتسم على وجهه ظل شيطانٍ قرر الانتقام من الجحيم ذاته.

قال بصوت خافت، وكأنّه يحدّث ماضيه لا الحاضر:
"ليست البداية... بل تحية الوداع يا فيكتور."

ثم قذف الولاعة نحو أحد الخزانات المفتوحة.

اللحظة التالية لم تكن هدوءًا، بل صمتًا خانقًا... قبل أن تنفجر شرارة أولى، ثم ثانية، ثم اشتعلت ألسنة اللهب كوحوش مسعورة في أحشاء المبنى. تصاعد الدخان بسرعة، وبدأت الأرض تهتز بصوت الانفجار الأول.

ركض ليام نحو النافذة، داس على الحافة المعدنية وقفز، الهواء اخترق صدره، والأصوات خلفه تطارده كأنها تطلب دمه... لكنه

سقط فوق سطح المبنى الصغير الآخر، تدحرج قليلًا ونهض فورًا، ثم ركض، دون أن ينظر خلفه.

كان لهب الانتقام قد بدأ، وفي سماء ريفنشيد... ارتفع عمود من النار والدخان، يعلن أن ظلها لم يعد في الظلال فقط، بل بات يحرق ما فيها.

بدأت الخزانات تنفجر تباعًا، واحدة تلو الأخرى، بانفجارات عنيفة زلزلت الأرض تحتها، فاندفعت النيران في السماء كألسنة غضب خارقة. ارتفعت أعمدة الدخان واللهب، وارتجّت النوافذ في محيط المقر، وبدأت أضواء الحريق تعكس على الجدران البعيدة كأنها إعلانٌ عن انتقامٍ طال انتظاره.

في الطابق العلوي، سمع الرجال الثلاثة الأصوات. توقفوا عن الحركة، وجمدوا في أماكنهم للحظة، ثم دوّى الانفجار الأكبر، جعل الجدران ترتجّ والصراخ يعلو من جهة القاعة.

قال أحدهم وهو يركض نحو الدرج، وجهه مصفَرّ والرعب يقطر من عينيه:
"ما هذا بحق الجحيم؟!"

صرخ الثاني خلفه:
"إنه النفط! أحدهم فجّره!"

أما الثالث، فوقف في مكانه مذهولًا، ثم همس لنفسه كأنّه تذكّر شيئًا مألوفًا في ملامح ذاك المتسلّل:
"ذاك اللعين... لم يكن لصًا، بل جحيمًا يتنكر بهيئة رجل..."

ومن بعيد، في الزقاق الضيق خلف المبنى، كان ليام يقف على أحد الأسطح المرتفعة، يراقب النيران تتصاعد، ووجهه بارد كأنّه لم يفعل شيئًا. شدّ قبعته السوداء، ثم همس بصوت لا يسمعه أحد:
"هكذا تبدأ رسالتي... بالرماد."

تحوّل المبنى بأكمله إلى جحيم متّقد.

تصاعدت ألسنة النار من النوافذ والسقف، تراقصت كوحوش حمراء تلتهم الجدران والأثاث وكل ما اعترض طريقها. الزجاج انفجر من النوافذ إلى الخارج، وتناثرت شظاياه تحت ضوء اللهب كأنها شظايا نجم محترق.

صار الهيكل الحديدي يئن من الحرارة، يصدر صريرًا مرعبًا كأن المبنى يحتضر، وكأنّ أركانه تصرخ قبل الانهيار. السقف بدأ بالانهيار تدريجيًا، وحرارة النيران اجتاحت الأزقة المجاورة كأنها لعنة لا تعرف الشفقة.

في الحي القريب، استيقظ الناس على صوت الانفجار، وارتعبت المدينة من مرأى النيران التي تلتهم الليل، وتغمر السماء بدخان أسود كثيف.

كل من مرّ بجانب المبنى لم يرَ سوى برج من اللهب يصرخ... ويعلن أن شيئًا أكبر بدأ.
المقر الذي كان يومًا وكرًا من أوكار فيكتور، صار الآن رمادًا يتطاير في الريح.

توقّفت سيارة فيكتور عند أول تقاطع مطلّ على المقر المحترق. كان الدخان الأسود يتصاعد في السماء مثل لسان شيطان، واللهب ينعكس على زجاج سيارته المعتم، يحوّل كل ما حوله إلى ألوان الجحيم.

ترجّل فيكتور من السيارة ببطء، يرافقه رجلان. وقف هناك، صامتًا، والنار أمامه تتغذى على الماضي والحاضر في آن واحد.

ظلّ يحدّق، بلا رمشة، في المشهد المتفجّر. وجهه شاحب لكنه لا يظهر رعبًا، بل غضبًا صامتًا كبركان لم ينفجر بعد.

قال أحد رجاله خلفه، بصوت خافت مرتجف:
"سيدي... لا أحد نجا. المبنى كله ضاع."

لكن فيكتور لم يرد. عيناه ما تزالان معلّقتين باللهيب، يراقب كيف يتحول جزء من سلطته إلى رماد.

ثم تكلم أخيرًا، بصوت منخفض كأنه يكلّم الجحيم ذاته:
"هذا ليس هجومًا... هذه رسالة."

مرر يده على صدره، وشعر بألم خافت أسفل أضلعه، لكنّه تجاهله. نظر نحو أحد رجاله وقال:
"أريد كل شيء عن هذا الحثالة... من هو. من أين جاء. ولماذا اختارنا."

ثم استدار، والوهج الناري يلمع على عينيه كأنهما تشتعلان هو الآخر.

"إنه يظن أن النار سلاح... سأريه كيف تتحوّل النار إلى لعنة تلتهم من أشعلها."

بعد ساعات طويلة من الصراع مع ألسنة اللهب، هدأ الجحيم أخيرًا.

وصلت فرق الإطفاء تباعًا، يتصبب منهم العرق رغم برودة الليل، وجرافات تسحب الأنقاض المحترقة، وخراطيم الماء تصرخ تحت ضغط المياه، تصب فوق الخزانات المنفجرة التي كانت تهمس حتى اللحظة الأخيرة بدخانها الأسود.

المبنى لم يعد مبنى، بل كومة من الحديد الذائب، والجدران المنهارة، وأرضية متفحمة تشهد على فوضى مهندسة بعناية.

رجال الشرطة أحاطوا بالمكان، أضواؤهم الحمراء والزرقاء تتراقص على الحطام، يحاولون أن يجدوا أي أثر... أي ناجٍ... أي جثة... أي إجابة.

لكن كل ما وجدوه كان الصمت، والدخان، ورائحة الاحتراق التي تسللت إلى أرواحهم قبل أن تسكن أنوفهم.

كان أحد الضباط يهمس لزميله: "لم أرَ شيئًا كهذا... وكأن شخصًا قرر محو كل أثر لهذا المكان من الوجود."

ردّ الآخر وهو ينظر إلى قلب الركام: "بل وكأن أحدهم أراد أن يعلن الحرب، لا أن يهرب منها."

دخل فيكتور بخطاه الثقيلة إلى ما كان يومًا يُدعى "مكتبه".

صوت حذائه يصدر طقطقات مكتومة فوق بقايا الخشب والفحم، والغبار الأسود يغطي كل شيء. الجدران التي كانت تتباهى بلوحات نادرة أصبحت جمرًا متفتّتًا، والمكتب الضخم الذي طالما جلس خلفه صار كتلة محترقة مائلة، تئن تحت ثقل الرماد.

توقف فيكتور في المنتصف. لا هواء يُستَنشق. فقط دخان دافئ يحمل رائحة الرماد والأسرار المحترقة.

نظر حوله ببطء، عيناه تتفحّصان الرماد كأنهما تبحثان عن تفسير... أو خيط... أو نجاة.

رأى الخزنة، مفتوحة... فارغة. الأوراق، تبعثرت ثم ذابت. الأموال، صارت رمادًا رماديًا لا يختلف عن التراب. كل شيء ثمين... كل شيء كان يحمل سلطته... احترق.

ضاقت عينه قليلًا. لم يكن الانفجار هو ما أثار غضبه. بل الرسالة.

قال بصوت خافت كأنه يهمس إلى الجدران السوداء: "هذا لم يكن مجرد هجوم... هذا توقيع."

ثم انحنى والتقط قطعة من إحدى الأوراق التي لم تكتمل احتراقًا، كانت نصف كلمة واضحة: "ڤوس".

تجمد قلبه، وخرج صوته كزمجرة خافتة: "ليام..."

قبض بيده على الورقة حتى تفتت ما بقي منها، وحدقت عيناه في الفراغ، كأن فيه صورة واحدة فقط: وجه من عاد من الموت، ليحرق كل شيء.

تلوح الظلال في مكتب فيكتور الخرب، حيث بقي وحيدًا وسط ركام ما كان يوماً مقرّ سلطته، وكومة أوراق متفحمة تذكّر بما خسره. ما بين جدران الغرفة، حيث تختلط رائحة الفحم المحترق بالهواء الثقيل، بدأ الألم يتسلل إليه بثبات لا يرحم.

أمسك بحافة المكتب الخشبي المحترق، وضغط على يديه حتى شعرت أصابعه بوخز حاد من قوة قبضته. ركبته بدأت تترنح، وخطواته الأولى كانت متعثرة كمن يمشي على حافة هاوية. وجهه، الذي طالما كان صلبًا وقاسيًا كالصخر، بدا الآن مغطى بعرق بارد وشاحب، كأنه يواجه وحشًا داخليًا لا يُقهر.

تثاقل التنفس في صدره، وأصبح الهواء بمثابة نار تحترق في حلقه. تسلّل الألم من صدره إلى قلبه، وكأنه سيف مسموم يغرز نفسه عميقًا مع كل نبضة. كل ثانية كانت عقابًا جديدًا، كل شهيق وزفير معركة صامتة ضد نهاية محتومة.

وقف للحظة، ينظر إلى النوافذ المكسورة التي تعكس له ضوء القمر البارد، وفكر في كل ما جمعه من قوة ونفوذ على مدى سنوات. "كل هذا من أجل ماذا؟" تمتم بصوت مبحوح.

لكن رغم كل ذلك، رغم الألم الذي يحاصره، ظل قلبه ينبض بعنف، متشبثًا بغريزة الانتقام التي كانت روحه النارية. تذكر اسم ذلك الرجل، ذاك الشبح الذي حطّم مملكته دون أن يترك أثرًا، ذاك الذي يحلم بتدميره: ليام ڤوس.

سقط فيكتور على كرسيه المهترئ، وأغلق عينيه للحظة. ثم رفع رأسه ببطء، عازمًا على أن يعيد ترتيب أوراق اللعبة، مهما كلفه ذلك من دم أو ألم.

همس بصوتٍ يختنق بين الألم والغضب: "لن أنهي هنا... لن أسمح له بأن ينهيني."

وبقلب يشتعل كالجمر، بدأ يخطط، يتنفس الغضب كوقود، مستعدًا لأن يمضي قدمًا في حربه المستعرة، مع علمه أن جسده قد يكون ضعيفًا، لكن إرادته لا تزال لا تُقهَر.

لكن الألم الذي انتشر في صدر فيكتور لم يكن مجرد وجع عابر، بل كان يثقل عليه كما لو أن نارًا جامحة تلتهم قلبه، وشعر وكأنه ينسحب ببطء نحو هاوية الموت، حيث يتلاشى كل شيء في ظلمة قاتمة لا عودة منها. ركبته ارتجفت تحت جسده، ووقع على الأرض متكئًا على الحائط المتهالك، عيناه تلتقطان أنفاسه المتقطعة، وكل نبضة من قلبه كأنها تهوي به أعمق في الهاوية.

في تلك اللحظة، دخل أحد رجاله إلى المكتب، فصدم من رؤية سيده وهو ملقى على الأرض، شاحب الوجه، والعرق يتصبب من جبينه. صرخ بصوت مملوء بالذعر: "سيدي! هل أنت بخير؟! ما هذا؟ هل أنت مصاب؟!"

فيكتور حاول أن يرد بصوتٍ متقطع، لكنه وجد كلماته تخرج منه بصعوبة كأنه يُصارع لعله ينجو من نفسه: "آ... لا، لا... لا

تتركوني... ليس الآن... ليس هنا..."

الرجل أسرع إليه، حاول رفعه ببطء، لكن فيكتور أشار إليه أن يبقى بعيدًا قليلاً، وعينيه المليئتين بالألم والثورة التقت به بنظرة تردد بين الضعف والغضب، كأنه يقول بلا كلمات: "هذه ليست نهاية فيكتور سانتوس".

ثم، مع تدهور وضعه، أدرك الرجل أن ما يواجهه سيده ليس مجرد وعكة عابرة، بل نذير موت قادم، وعليه أن يتصرف بسرعة قبل أن يفقده للأبد.

ثم فجأة، تلاشى وعي فيكتور كقطع خيطٍ يقطّع على نحو مفاجئ، وسقط بلا حراك على الأرض الباردة، تاركًا خلفه صدى صرخته الخافتة. انتاب الرجال الذعر، تجمّعوا حوله بسرعة، رفعوه على الأذرع بحذر وهم يتبادلون النظرات المثقلة بالقلق. هرعوا به نحو أقرب مستشفى، لكن الباب كان يُغلق في وجوههم بلا رحمة، وكأن المدينة كلها تشكّ في حقه في البقاء.

واحدة تلو الأخرى، المستشفيات رفضت استقباله، بحجج واهية تُبرر الرفض، تارة لغياب التأمين، وتارة أخرى لأن حالته معقدة جدًا، أو لأنّ الرجل المطلوب كان فيكتور سانتوس نفسه، زعيم المافيا، الذي لا تريد أي جهة الوقوف إلى جانبه.

الألم الذي كان في صدره تضاعف مع كل لحظة رفض، وكأن القدر يريد أن يدفنه وهو على قيد الحياة، محاصرًا بين جدران اللامبالاة والبرود، بينما الحياة تسحب منه أنفاسه ببطء قاتل.

في جانب ريتشارد، وقف أمام باب شقة المحقق ريڤر كولينز. رفع يده بثقل وطرق على الباب بثلاث طرقات متأنية، صدى الصوت يملأ الممر الضيق. كان قلبه يرفرف بين خوف وحماس، فهذه اللحظة قد تكون مفتاحًا لحل لغز ظلّ غامضًا طوال ثماني عشرة سنة.

بعد لحظة، سُمع صوت خطوات تقترب ببطء، فُفتح الباب قليلاً، وظهرت ملامح ريڤر، وجهه متعب وحاد، عيناه تلمعان بتجربة سنوات من التحقيقات التي لم تنتهِ.

نظر ريتشارد إليه بعينين ثابتتين وقال بصوت منخفض لكنه يحمل إصرارًا:
"ريڤر، أحتاج للحديث معك عن قضية مقتل إيثان ڤوس. الأمر لم يُحسم كما تعتقد. هناك أسرار دفنت تحت رماد الوقت، وأنا مصمم على إعادتها إلى الواجهة."
ريڤر نظر إلى ريتشارد بنظرة حذرة، كما لو كان يزن كل كلمة قبل أن يقرر إما فتح الباب على مصراعيه أو إغلاقه إلى الأبد.
صمت لفترة قصيرة، ثم قال ببطء وهو يحاول أن يبدو جديًا:
"أنت تعرف أن هذه القضية معقدة، ريتشارد. لقد أغلقت منذ زمن بعيد، والناس يريدون أن ينسوها."

تقدم ريڤر خطوة إلى الوراء ليفسح الطريق لريتشارد للدخول، وأضاف:
"لكن إذا كنت مصرًا، فتعال، نجلس ونراجع ما لديك. لكن اعلم، لا أضمن لك شيئًا، لأن الماضي له وجوه كثيرة، بعضها قاتمة أكثر مما نتوقع."

دخل ريتشارد الشقة، مفعمًا بشعور غريب بين التفاؤل والخوف. كانت الجدران مغطاة بصور وقصاصات صحف قديمة عن جرائم المدينة، وبعض الخرائط الملصقة التي توضح أماكن الحوادث. وضع ملف إيثان ڤوس على الطاولة وقال:
"هذه القضية ليست عادية، ريڤر. والد الفتى لم يمت بسبب حادث عادي، هناك من أراد أن يطمس الحقيقة، وأعتقد أن من قتل إيثان لا يزال طليقًا."

أومأ ريڤر كولينز بهدوء وهو يجلس على الكرسي المقابل لريتشارد، ثم تناول الملف وبدأ يقلب صفحاته القديمة بعينين ذابلتين تحملان أثر سنوات طويلة من الخدمة.

قال بعد لحظة صمت:
"نعم... هذه القضية. أذكرها جيدًا. رجل شرطة محترم، إيثان ڤوس. لقي حتفه أمام ابنه... كان فتى صغيرًا حينها، بالكاد تجاوز السادسة. "

رفع ريتشارد حاجبيه قليلًا، ثم قال:
"وما الذي حدث بالضبط؟ لماذا أُغلقت القضية بهذا الشكل السريع؟"

تنهد ريڤر وأشار إلى إحدى الملاحظات المدونة في الهامش:
"الفتى – لا أذكر اسمه الآن، لكن أعتقد أن اسمه ليام – أصرّ على أن القاتل كان زميل والده في العمل. قال اسمه بوضوح... غابرييل هانتر. لكننا لم نتمكن من إثبات شيء. لم تكن هناك أدلة، لا بصمات، لا سلاح، لا شهود آخرين. والأهم... لم يكن أحد مستعدًا لتصديق طفل كان في حالة صدمة."

توقّف ريڤر قليلاً ثم أضاف بنبرة أكثر تحفظًا:
"غابرييل كان محققًا موثوقًا وقتها. لم يخطر ببال أحد أن يشك فيه... على الأقل، رسميًا."

ظل ريتشارد صامتًا للحظة، عيناه تحدقان في اسم غابرييل بين السطور، ثم قال بصوت خافت:
"لكن الفتى كان مصرًا، أليس كذلك؟"

هز ريڤر رأسه مؤكدًا:
"بشدة. لكنه كان صغيرًا، والأم... تصرفت بغرابة لاحقًا. اختفت عن الساحة فجأة، وتركت الطفل مع أخيه على ما أظن. القصة كلها كانت فوضى."

أغلق ريتشارد الملف ببطء، ثم قال:
"ربما حان وقت أن ننظر من جديد في شهادة ذلك الفتى... حتى وإن كان العالم كله قد اختار تجاهلها."

ثم قال ريتشارد وهو يتصفح صفحات الملف باهتمام:
"هل لديك معلومات عن هذا الفتى؟"

أجابه ريڤر كولينز بعد لحظة صمت وهو يعقد حاجبيه:
"الفتى... آه، تقصد الشاهد، ابن القتيل؟ ليام ڤوس، أليس كذلك؟"

أومأ ريتشارد برأسه دون أن ينبس بكلمة.

تنهد ريڤر وهو ينهض متجهًا نحو خزانة قديمة بجانب مكتبه، فتحها وأخرج منها مجلدًا عتيقًا، ثم بدأ يقلب أوراقه حتى توقف عند صفحة مهترئة وقال:
"كان صبيًا منطويًا، رافضًا للكلام. حتى حين حاول أحد المحققين إعادة استجوابه، كان يكتفي بالصمت... أو نظرات فارغة لا تحمل أي شيء مفيد."

اقترب ريتشارد ونظر إلى الورقة.
"هل أكد اتهامه لأي أحد؟"

رد ريڤر بنبرة حذرة:
"أجل... قال إن غابرييل هانتر هو من قتل والده. لكنه لم يقدم دليلًا، ولا حتى وصفًا واضحًا. كان مجرد صبي مكسور، والجميع افترض أنه يهلوس من الصدمة. لم يُؤخذ كلامه على محمل الجد."

قال ريتشارد ببطء:
"وغابرييل... لم يتم التحقيق معه أبدًا؟"

هز ريڤر رأسه.
"تم استدعاؤه مرة واحدة، جلس في الغرفة أقل من عشر دقائق. كان وقتها له سمعة نظيفة، ومحمي من كل الجهات. لم يكن هناك أي شيء نملكه ضده، وملف القضية أُغلق بعد ذلك."

ظل ريتشارد صامتًا للحظات، عيناه تتابعان كل كلمة مكتوبة على الصفحة أمامه، ثم تمتم بصوت يكاد لا يُسمع:
"ربما لم يكن يكذب."

ثم فجأة، وبينما كان ريتشارد ما يزال يتأمل الورقة، قلب ريڤر صفحة أخرى في الملف، فتوقفت يداه فجأة وحدّق في السطر الأول بعينين متسعتين.

قال بصوت مبهوت:
"مهلاً..."

اقترب ريتشارد أكثر، وهو يحدق في تعبير وجه زميله المتغير.

أكمل ريڤر بصوت خافت، وكأنه يقرأ من سجل سري:
"في سن العشرين... تورط ليام ڤوس في ثلاث جرائم قتل، كل ضحية لقي حتفه بطريقة مختلفة. تم القبض عليه، ووجهت له تهم القتل من الدرجة الثانية."

سحب أنفاسه وأكمل:
"سُجن لخمس سنوات... وتم الإفراج عنه هذه السنة، في الربيع الماضي."

تبادل النظرات مع ريتشارد الذي قال بهدوء حذر:
"هذا الفتى لم يختف إذًا... كان ينتظر."

ثم أضاف بصوت أقرب للهمس:
"خمسة أعوام خلف القضبان، بعد ماضٍ منسي... والآن، عاد."
ثم قال ريڤر وهو يمرر أنامله على أطراف الأوراق:
"هل تريد المزيد؟"

رفع ريتشارد عينيه إليه، بنظرة مترددة لكنها فضولية.
فأكمل ريڤر بنبرة محايدة:
"بعض التقارير النفسية تشير إلى اضطرابات سلوكية بعد وفاة والده، لكن لا شيء يستحق الذكر قانونيًا. عاش فترة في عهدة الدولة، ثم خرج. لا يوجد سجل واضح حول مكانه خلال السنوات الأولى بعد السجن."

ثم مال إلى الخلف في كرسيه وأضاف:
"كل ما تبقى مجرد فراغات، لا أحد يبدو مهتمًا بملئها."

رد ريتشارد وهو يضع الملف جانبًا:
"لا أحتاج أكثر. أحيانًا ما لا يُكتب، يقول الكثير."

لم يعلق ريڤر، فقط أومأ برأسه.

وبقي كلاهما صامتين للحظة، يراقبان سطورًا صامتة تحكي عن فتى ضاع بين الظلال... فتى لا أحد يعلم أنه صار الظل ذاته.

ثم قال ريتشارد وهو يتكئ بمرفقه على حافة المكتب:
"هل لديك له صورة؟"

أومأ ريڤر ببطء، فتح أحد الأدراج، وأخرج منه ملفًا قديمًا بدا أن الزمن مرّ عليه بأصابع مترِبة. قال دون أن ينظر لزميله:
"ليس لديّ صورة لوجهه الحالي... لكنني أحتفظ بصورة له وهو صغير، من ملف القضية القديمة، عندما شهد بمقتل والده."

فتح الملف بعناية، وسحب صورة باهتة بالأبيض والأسود. في الصورة، فتى في السابعة، عيناه واسعتان تغمران وجهًا غائمًا بالحيرة والخوف. لم تكن النظرة نظرة طفل عادي، بل تلك النظرة التي تراها فقط عند من رأى شيئًا لا يجب لطفل أن يراه.

مدّ ريڤر الصورة نحو ريتشارد. نظر إليها طويلًا، صامتًا. وكأن الصورة لا تُريه ملامح طفل، بل بداية حكاية لم تُفهم بعد. ثم تمتم:
"هذا الطفل... عينه ما تزال تتحدث."

في جانب آخر من المدينة، داخل شقة صغيرة ذات نوافذ معتمة وستائر داكنة، جلس ليام وكايل حول طاولة خشبية بالكاد تتسع للحاسوب المحمول وعدد من الأوراق المتناثرة. كان الليل قد أسدل ظلاله، والهدوء يخيم على المكان إلا من صوت المروحة القديمة التي تدور بتعب، وصوت نقرات كايل السريعة على لوحة المفاتيح.

قال كايل بصوت منخفض وهو يحدّق في الشاشة:
"لا شيء رسمي بعد... لكن وسائل الإعلام بدأت تتحدث عن انفجار غامض في ممتلكات فيكتور سانتوس. الشرطة تقول إنه حادث عرضي، لكن..."

قاطعته ابتسامة جانبية على وجه ليام، تلك الابتسامة التي لا تحمل ضحكًا بل نذرًا قادمًا.
"لكننا نعرف... أن ما يسقط لا يقوم، خاصة إن كان محترقًا."

ضغط كايل على زرٍ آخر، فتبدلت الشاشة إلى موقع إخباري محلي. ظهرت صورة جوية للمبنى المتفحم، والدخان الذي ما زال يتصاعد منه رغم مرور ساعات.
"هذا هو،" قال كايل، "التقارير تقول إن فيكتور أصيب بنوبة قلبية، حاولوا نقله لكن المستشفيات رفضت استقباله."

لم يتكلم ليام مباشرة، فقط استند إلى الخلف، عينيه تلمعان في الظل، وكأن شيئًا بداخله يهدأ ببطء... أو يشتعل بطريقة مختلفة.

"كل خطوة تزعزع توازن الوحش، تجعله يرتجف." همس ليام، ثم التفت نحو كايل:
"لكن لا تفرح كثيرًا. هذا مجرد بداية."

ثم قال كايل، وهو ينهض من كرسيه بنظرة مشدوهة ووجه متوتر:
"لم أعرف أنك مجنون إلى هذه الدرجة، يا ليام... الأوراق التي كانت في مكتبه — تلك التي ربما تثبت تعاونه مع غابرييل — قد تكون احترقت بالكامل في الانفجار."

توقف ليام عن التنفس للحظة. كانت عيناه تتسعان شيئًا فشيئًا، كأن كلمات كايل اخترقت جدار صمته وسقطت كصاعقة في صدره.

"ماذا قلت؟" سأل بصوت منخفض لكنه يحمل تحت نبرته شيئًا أشبه بالذعر المكتوم.

أكمل كايل وهو يقترب:
"أقول... إذا مات فيكتور، سنفقد الرابط الوحيد الذي قد يفضح غابرييل. لا شهود. لا أوراق. لا صفقة مسجلة. لا أدلة ملموسة... كل

شيء كان هناك، في ذاك الجحيم الذي أشعلته."

ليام جفل، خطا خطوتين للوراء كمن صُفع، ثم مرّر يده ببطء على وجهه، كأنه يوقظ نفسه من كابوس لم يدركه بعد.
"لماذا... لماذا لم تخبرني بذلك سابقًا؟!" صرخ، ليس غاضبًا من كايل، بل من نفسه، من حماسته، من ناره التي التهمت أكثر مما ينبغي.

قال كايل بجدية، لكنه لم يخفِ الألم من صوته:
"كنت أظن أنك تعلم. ظننت أنك خططت لكل شيء كما تفعل دائمًا. لم أتخيل أنك أضرمت النار دون أن تتأكد مما ستحرقه معها."

ساد صمت ثقيل بينهما، لم يكن صمت انتقام، بل صمت الخوف من أن تكون نار الظل قد التهمت الضوء الوحيد الذي كان يمكنه أن يفضح الظلام.

ثم قال ليام باستعجال، وقد بدت نبرته مشدودة كوترٍ على حافة الانفجار:
"أين موقع فيكتور الآن؟!"

نظر إليه كايل بدهشة للحظة، ثم ردّ وهو يتجه نحو الحاسوب:
"آخر معلومة لدينا... أنه نُقل إلى مبنى مهجور في أطراف ريفنشيد. مكان معزول، كان يستخدمه قديمًا كمقر احتياطي. رجاله نقلوه هناك بعد أن رفضت المستشفيات استقباله."

ليام لم ينتظر أكثر، التفت نحو سترته وأخذ سلاحه وسكينه، خطواته كانت عنيفة كأن الأرض لا تحتملها.
"سأذهب إليه."

كايل حاول اعتراضه:
"ليام، أنت لا تعرف حالته، ربما يحتضر فعلًا! لن تستفيد شيئًا إن متّ معه في ذات المكان!"

لكن ليام رد بعينين مشتعلتين:
"إن بقي على قيد الحياة، قد يكون ما تبقى لي من خيط. وإن كان يحتضر... فسيجرّ الحقيقة معه إلى القبر."

شدّ القناع على وجهه، وخرج كمن يحمل مصيرًا أثقل من جسده. كانت خطاه تكتب على الإسفلت وعدًا جديدًا:
لن ينجو غابرييل... ليس إن كان في قلب الرماد كلمة واحدة يمكن أن تدينه.

في غرفتها الهادئة، حيث يسكن الليل جدرانًا رمادية بلا ضجيج، كانت إليورا تجلس على طرف الأريكة، الهاتف في يدها، والوقت يمضي كأنه لا يعنيها.

فتحت المحادثة، نظرت إلى الاسم في الأعلى: Liam Voss. لا قلق ولا دموع ولا ارتباك... فقط شعور هادئ بالاعتياد.

كتبت دون تردد:
هل ما زلت حيًّا؟

نظرت إلى الرسالة... ابتسمت بخفة، ثم أضافت:
أمزح. نوعًا ما.

وبعد ثوانٍ، تابعت:
إن لم تكن مشغولًا بتفجير مدينة، أعتقد أنك مدين لي بعصير تفاح وعدتني به ولم توفِ.

ثم ضغطت "إرسال".
وضعت الهاتف جانبًا، واستلقت. لا انتظار، لا لهفة. كانت فقط تريد أن تقول شيئًا... وقالته.

ثم انتقلت إلى ألبوم الصور، تقلب اللحظات بإصبع خفيف ونظرة خافتة، لا تبحث عن شيء بعينه... لكنها توقفت فجأة.

كانت تلك الصورة.
هي وهو تحت الثلوج، والسماء تنثر فوقهما غيمًا مكسورًا بالبياض. كان هو واقفًا بجانبها، شعره رطب من المطر الثلجي، وعيناه تحدّقان فيها، كأن العالم لحظة متجمّدة.

ضغطت على الصورة، فامتلأت الشاشة بتلك الذكرى. تذكّرت صوته حين قالها، بهدوء مفاجئ لا يشبه طباعه

كانت تلك طريقته بالاعتراف، دون أن يقول الكلمات مباشرة. ابتسامة مائلة، نظرة مشوشة، وصمت طويل بعدها.

أغمضت عينيها للحظة، ثم فتحتها وأعادت الهاتف إلى وضعه.
همست كأنها تكلم الهواء:
"أين ذهبت الآن، أيها الظل الثلجي؟"

وصل ليام بسرعة إلى أطراف ريفنشيد، المكان الذي وصفه كايل كمقر مهجور ومُنعزل. كانت الأجواء قاتمة، ضباب خفيف يتسلل بين الأشجار، ورائحة الدخان لا تزال تلوح في الأفق. لا أحد يجرؤ على الاقتراب من هذا المكان، كأن الظلال تراقب كل خطوة.

اقترب ليام من الباب المعدني الصدئ، ضربه بقبضة يده بقوة، لكن لم يأتِ رد. حاول مرة أخرى، صدى الطرقات تردّ في الفضاء الفارغ، ثم سمع صوت همس بعيد.

فتح الباب ببطء، دخله دخان باهت ورياح باردة. في الزوايا كانت هناك أصوات خافتة، تنفس متقطع، وألم مخنوق. تبع الصوت حتى وصل إلى غرفة صغيرة كانت نوافذها محطمة، وعلى سرير مهترئ رأى فيكتور ملقى، وجهه شاحب، جسده يهتز بنوبات الألم.

نظر إليه ليام ببرود قاتل، ثم همس: "هل تعرف، يا فيكتور، أن كل شيء سينتهي هنا؟ لا أوراق، ولا شاهد، ولا مهرب."

تنهد فيكتور بصعوبة، محاولاً أن يجد نبرة صوته: "أنت... لم تفهم... غابرييل ليس فقط قاتل... إنه وحش... هو من قتل إيثان... لم تكن مجرد مؤامرة."

نظر ليام في عينيه وقال بثقة: "الوحش سيُقضى عليه. وأنت، مهما بلغت، لن تنجو."
أخرج ليام هاتفه من جيبه ببطء، يده ثابتة رغم اضطراب قلبه. فتح تطبيق التسجيل الصوتي، وضغط على الزر الأحمر، ثم اقترب من فيكتور وهو يوجه الهاتف نحو وجهه الشاحب.

قال بنبرة صارمة، منخفضة لكنها واضحة كالسيف:

"الآن، قُل... الجرائم التي ارتكبها غابرييل، بشاعته، كل ما تعرفه عنه. لا تترك شيئًا. هذه فرصتك الأخيرة لتفضح من صنعت منه شيطانًا."

تنفس فيكتور بصعوبة، عيناه نصف مغلقتين، ثم ارتجف صدره وهو يحاول الكلام. كانت كلماته تتقطع كأنها تُسحب من داخله قسرًا:

"غابرييل... بدأ كل شيء منذ سنوات... حتى قبل أن يُقتل إيثان... هو من دفع ماركوس لقتل العائلات التي فضحت الصفقات... هو من أمَر بتصفية المحققين... كان... يمسح كل أثر خلفه كما يمسح عَرَق جبهته."

سعل، تناثرت بقع دم على طرف فمه، ثم أكمل بصوت أجشّ:

"هو من خطط لتوريط أبيكَ بملفات زائفة... ليدمّره ثم يُظهِر نفسه بطلاً أمام المجلس... قتل من أجلك، ليام... لتتألم... لم يكن القتل عقوبة، بل رسالة... لك."

اقترب ليام أكثر، جفنا عينيه يرتجفان، لكن صوته بقي جامدًا:

"تابع."

شهق فيكتور، وكأنه يلفظ آخر أنفاسه:

"كان... يسجّل كل شيء، كان يحتفظ بالأدلة لنفسه... حتّى عليّ. ملفات... مخفية... لا أعلم أين... لكنه قال إن سقوطه لا يجب أن يكون بيد غيره... غابرييل... غابرييل هانتر لا يثق حتى في ظله."

ثم اختنق صوته، وارتعش جسده للحظة، ثم بدأ يسعل بعنف، حتى هدأ تمامًا، كأنه تلاشى.

ليام لم يُنهِ التسجيل بعد. بقي الهاتف مُمددًا في الهواء، وعيناه تحدّقان في الجسد شبه الميت أمامه، ثم أغلق الشاشة وقال بصوت لا يسمعه أحد:

"اللعنة عليك... لقد أعطيتني ما يكفي."

ثم خرج من الغرفة بخطوات بطيئة، لكن كل واحدة منها كانت تنزف قرارًا... المرحلة القادمة بدأت.

بعد أن أُغلق الباب، وبقيت الغرفة غارقة في صمت خانق، تحرك شيء بالكاد يُلحظ على السرير المعدني.

فتح فيكتور عينيه ببطء، وكأن وزن جفنيه يعادل سنوات من الخطيئة. الضوء الخافت اصطدم بوجهه المرهق، وملأ الظلال تحت عينيه كهوفًا من الندم.

بصوت مبحوح بالكاد خرج من بين شفتيه اليابستين، همس وكأن أحدًا في قلبه يسمعه:

"جوليان..."

نطق الاسم كما يُنطق الرجاء الأخير. لم يكن مجرد نداء، بل كانت الكلمة ثقيلة، حزينة، مشبعة بشيء يشبه الاعتراف المتأخر أو الغفران الذي لم يصل.

ثم أغمض عينيه من جديد، هذه المرة دون أن يقاوم التعب، كأن كل ما تبقى فيه قد سُحب مع تلك الكلمة.

في الجانب الآخر من المدينة، كانت السماء ملبدة بالغيوم الثقيلة، والريح تعصف بين البنايات القديمة كما لو كانت تحمل خبرًا ثقيلًا على جناحيها.

في شقة صغيرة تقع فوق محل بقالة مهجور، جلس جوليان على كنبة مهترئة، يحدّق في شاشة التلفاز المطفأة، والسيجارة تشتعل بين أصابعه دون أن يدخّنها. المكان صامت إلا من طنين الثلاجة القديمة ونفَس الغبار المتجمع على الأرفف.

طرقٌ على الباب. لم يكن طَرقًا خائفًا، بل ثلاث دقات صارمة، قصيرة، وكأن من خلف الباب لم يأتِ ليسأل، بل ليقول.

لم يتحرك جوليان في البداية. فقط نظر نحو الباب كمن يعرف ما ينتظره، ثم نهض بتثاقل وسار بخطى ثابتة وباردة، وفتح الباب.

وقف رجل في منتصف العمر أمامه، يرتدي معطفًا أسود ونظرة مرهَقة، وكأن المسافة التي مشاها حتى هنا كانت أطول من خطواته. عيونه لم تكن حزينة... بل واجبة.

قال بصوت مبحوح:
"جوليان... والدك، فيكتور، توفي."

لم يرمش جوليان، لم يتغير شيء في وجهه. فقط تنهد ببطء وأدار نظره إلى داخل الشقة، ثم قال بهدوءٍ يشبه السخرية:

"أخيرًا فعل شيئًا مفيدًا."

ثم أغلق الباب ببطء، دون كلمة وداع. وكأنّ الخبر لم يفتح جرحًا، بل أغلقه.

جلس جوليان مجددًا على الكنبة، وأمسك السيجارة التي كادت أن تحترق بأكملها. لم يشعل غيرها. فقط ظل يحدق في فراغ أمامه، وكأن الهواء بات أثقل، لا من الحزن، بل من عبء ذاكرة ما كان يريد حملها.

لم يكن بينه وبين فيكتور ودّ. لم تكن بينهما علاقة تُرثى أو تُذكر. بل كانت سلسلة من الأوامر، والقيود، والدماء التي سقطت بأمرٍ من رجلٍ لم يعرف كيف يكون أبًا... بل كان فقط "زعيمًا".

وفي تلك اللحظة، خُيّل له أنه يسمع صوته... فيكتور، وهو يصيح به عندما كان فتى: "احترم اسمك، أنت سانتوس!"
لكنه لم يشعر بأي فخر بهذا الاسم، بل شعور ثقيل كالصّدأ يلتف حول صدره منذ سنوات.

رنّ هاتفه على الطاولة فجأة. رقم مجهول.

أجاب بصوت أجشّ: "نعم؟"

جاء الصوت من الجهة الأخرى، حذرًا، مترددًا، كأنه يخطو على الزجاج:
"أنت... جوليان سانتوس، أليس كذلك؟"

ضاقت عينا جوليان وهو يرد بفتور:
"يعتمد على من يسأل."

"أنا... أنا كنت أعمل مع والدك سابقًا. كنت أراقب الوضع، وهو كان في خطر. هل... هل تعرف شيئًا عن غابرييل هانتر؟"

سقط اسم غابرييل على أذنه مثل شرارة أضاءت ظلمة الجحيم. اعتدل جوليان فجأة، وأجاب بنبرة أقل جمودًا:

"غابربيل؟ ما علاقته بموت والدي؟"

"أشياء كثيرة... أظن أن الوقت قد حان لتعرف."

جوليان لم يغلق الخط. لم يسأل من المتصل. فقط التفت إلى النافذة، حيث المطر بدأ يتساقط أخيرًا، كما لو أن المدينة قررت أن تبكي عن أحدٍ لا يستحق البكاء.

لكن هناك شيء تغيّر في عينيه... نظرة جديدة، ليست حزينة، ولا ساكنة.

بل يقظة.

كأن شيئًا بدأ في التحرك داخل صدره، شيء لم يشعر به منذ سنين.

رنّ الهاتف مرة أخرى، صوت النغمة كان ثقيلاً، متقطعًا، كأن الزمن نفسه يتردد في الاستجابة.

وفي الجهة الأخرى، لم يأتِ الردّ سريعًا، بل بصمتٍ دام طويلًا حتى تنفس جوليان بضيق وقال بحدة:
"هل تسمعني؟ أجبني... ما علاقة غابرييل بوالدي؟ لماذا جعلني أعمل معه؟ لماذا قتل أمي رغم أنه حزن عليها؟ ولماذا أصيب بالسرطان وهو كان بصحة ممتازة؟"

تنهد المتصل ببطء، ثم قال بصوت أقرب إلى الهمس:
"كنت أعلم أنك ستسأل هذا... كنت أترقب اللحظة التي تنهار فيها الصورة المزيفة التي رسمها والدك حولك."

صمت قليل، ثم تابع:
"فيكتور لم يكن الزعيم الحقيقي... كان مجرد واجهة. الرجل الذي تحركه الخيوط من الخلف كان غابرييل هانتر. والدك كان مدينًا له، لدرجة أنه لم يكن يملك خيارًا سوى أن يُدخل ابنه — أنت — إلى السلسلة القذرة، فقط ليضمن بقاءه."

ارتجف فكّ جوليان، لكنه بقي صامتًا، واليد القابضة على الهاتف تشدّ أكثر.

"أما والدتك..." أكمل الصوت بعد برهة، بنبرة أكثر حذرًا، "فقد كانت تعرف. عرفت أن فيكتور يعمل تحت إمرة غابرييل. وعرفت ما يُهرّب، وما يُقتل، ومن يُباع. كانت تهدده بفضح الأمر... فاختفى خيار الرحمة."

شهق جوليان بصوت خافت، ثم سأل بحنجرة مشتعلة: "ولكنه بكى عليها. بكى كالأطفال، لأيام."

"لأنه لم يكن يريد قتلها،" ردّ الصوت مباشرة، "كان عبدًا، وجب عليه تنفيذ الأوامر. جريمة واحدة إضافية كانت ثمن استمراره... لكنه مات منذ ذلك اليوم، والسرطان؟... لم يكن طبيعيًا."

"ماذا تعني؟"

"غابرييل سمّمه ببطء، عقابًا على تردده، عقابًا على حزنه، عقابًا على أنّه تجرأ أن يحب."

أسند جوليان ظهره إلى الحائط، شعر وكأن الهواء هرب من رئتيه. أصوات المدينة في الخارج تلاشت. ولم يبقَ إلا تلك الحقيقة التي سُمعت كرصاصة في قلبه.

قال أخيرًا، بصوت أقرب إلى الهدير: "كيف أقضي على غابرييل؟"

لكن المتصل لم يجب... فقط أغلق الخط.

ترك جوليان الهاتف ينزلق من يده إلى الأرض.
وفي عينيه — لأول مرة منذ أعوام — ظهرت دمعة.

ثم مسحها بعنف، وهمس:
"أقسم... لن ينجو."

في جانب ليام، كانت الشقة تغرق في صمت ثقيل، يعكره فقط صوت جهاز العرض الصغير الذي يعيد بثّ مقاطع الفيديو واحدة تلو الأخرى. الأوراق مبعثرة على الأرض، الجدران مغطاة بصور، تواريخ، خرائط، وأسماء متصلة بخيوط حمراء، كما لو أن كل زاوية في الغرفة أصبحت جزءًا من عقل ليام.

كان قد حضّر كل شيء.

كل دليل التقطه، كل تسريب جمعه، كل تسجيل اختطفه من فم الموتى ومن فوضى النيران، رتّبه بصبر قاتل.
تسجيل فيكتور وهو يلفظ آخر أسراره، التقارير الطبية المزوّرة، التحويلات المالية التي ربطت غابرييل بشركات وهمية، والمكالمات المشفّرة التي التقطها من شبكات الاتصالات القديمة للمافيا.

جلس أمام الطاولة، يدوّن بقلم أسود ملاحظات أخيرة على ورقة عنوانها العريض: "سقوط غابرييل".

ثم رفع رأسه، ناظرًا نحو صورة غابرييل المُثبتة بدبوس صدئ على الحائط. عينيه كانتا ثاقبتين، كأنهما تكشفان كل طبقة زيف تختبئ خلف وجه ذلك الرجل.

همس ليام دون أن يرمش:
"لم يتبقَ شيء بينك وبين الهاوية... إلا توقيعي."

مدّ يده، وأخرج من الدرج ملفًا أسود، كان يحوي كل ما جمعه، كل خيط، كل ورقة، كل نقطة دم تحوّلت إلى دليل.

أغلقه بإحكام، ثم قال وهو ينهض:
"الليلة لن أكون ظلًّا. سأكون القاضي."

كان كايل بجانب ليام، وعيناه تركزان على شاشة الكمبيوتر المظلمة أمامهما، بينما كانت الأوراق المتناثرة على الطاولة تشير إلى حجم التحضير الذي قام به ليام لهذه اللحظة. ضغط ليام على أصابعه على حافة الطاولة ثم نظر إلى كايل بجدية قبل أن يسأله بصوت منخفض، كأن كل كلمة تحمل وزنًا أكبر من العادة: "هل سيحضر الهاكر الليلة؟ أريد تصوير البث في مبنى مهجور، وأنت وأنا والهاكر فقط الموجودين."

أومأ كايل ببطء، ثم رفع رأسه وقال بصوت منخفض، وكأن الكلمات تحتاج إلى وقت كي تخرج: "نعم، سيأتي في الساعة العاشرة. وهكذا سيتم فتح البث. كل شيء معدّ."

توقف ليام لحظة، ثم نظر إلى كايل بعينين غامضتين، وكأن هناك أمرًا آخر يساوره، لكن لم يتحدث عن شيء. فقط تمتم لنفسه: "لا مجال للخطأ."

أخذ كايل نفسًا عميقًا وأكد مجددًا: "كل شيء تحت السيطرة. الهاكر سيتولى الجزء التقني. أما نحن، فسنعرض الحقيقة، كما هي، بلا رتوش."

ليام هز رأسه بإيجاز، ثم نظر إلى السقف، وكأن ذهنه كان يسافر في مكان آخر، ثم قال: "لا أريد أن يتوقف البث في منتصفه، لا أريد أن أجد نفسي محاطًا بالظلام من جديد. يجب أن نكشف كل شيء، حتى لو كانت العواقب وخيمة."

كايل ابتسم ابتسامة ساخرة وقال: "أنت تحب التحدي، أليس كذلك؟"

أجاب ليام ببرود: "التحدي هو الذي يجعل الحياة تستحق العيش. والأمر هنا ليس تحديًا، بل بداية النهاية."

ثم ساد صمت بينهما لبضع ثوانٍ. كان الصوت الوحيد الذي يمكن سماعه هو نبضات المروحة القديمة التي تدور بصوت خافت. ولكن داخل هذا الصمت كان كل شيء يتشكل ببطء، وكان كل منهما يعلم أن هذه الليلة قد تغير كل شيء للأبد.

ثم فجأة، رن هاتف كايل بنغمة الرسائل. أخرج الهاتف بفضول، ضغط على الشاشة، وما لبث أن تجمّد للحظة قصيرة وهو يحدّق في اسم المرسل: نواه.

فتح الرسالة وقرأها بصوت شبه هامس: "كايل... أنا آسف لأنسحابي سابقًا، أعلم أن جوليان صديقي، وكنت مشوشًا، لكن الآن... الآن أنا مستعد. مستعد لأكون معكم، بكلّي. دعوني أساعدكم في إتمام ما بدأه أبي."

رفع كايل رأسه، التقت عيناه بعيني ليام، وقال بصوت خافت لكنه محمّل بالمعاني: "نواه... عاد."

ليام لم يرد مباشرة، فقط أومأ برأسه ببطء، كأن عودته كانت متوقعة... أو على الأقل مأمولة. أدار نظره نحو لوحة الصور المعلّقة، وهناك، في الزاوية، صورة قديمة لإيثان ڤوس تحت ضوء أصفر باهت، كانت عيناه في الصورة تشعّان بذلك النوع من الهدوء الذي لا يأتي إلا من رجل يعرف أنه يسير نحو النار من أجل شيء أعظم.

"هو ابن أبي أيضاً..." تمتم ليام وكأنما يتذكّر من جديد لماذا بدأ هذا كله.

نهض كايل واقترب منه، يضع يده على كتفه: "نحن الثلاثة، الليلة، سننهي ما بدأه إيثان. كلنا كنا أولاده، بطريقتنا."

تسلّل شيء يشبه الابتسامة إلى وجه ليام، لكنه كان بعيدًا جدًا عن الفرح، أقرب إلى مرارة النصر الوشيك.

في تمام العاشرة، وصل الهاكر.

شاب لا يتحدث كثيرًا، بعيون محاطة بالهالات السوداء، وحقيبة ظهر ممتلئة بأسلاك، وأقراص، وعتاد لا يفهمه إلا هو. لم يطلب شيئًا سوى العزلة، جلس في إحدى الزوايا المظلمة من المبنى المهجور، وبدأ يجهز نقطة البثّ إلى كل شبكة يمكن أن تصل إلى الشعب.

في الخارج، كانت رياح الليل تمرّ عبر النوافذ المهجورة مثل شهقات أشباح قديمة. وفي الداخل، جلس الثلاثة في دائرة، على طاولة مهترئة، أمامهم المايكروفون، الكاميرا، والملف الأسود.

ليام أمسك بالملف، ثم نظر إلى الهاكر وسأله: "هل بدأ العدّ التنازلي؟"

ردّ الشاب بصوت بارد: "البث سيُفتح بعد خمس دقائق. الكاميرات تعمل. كل من على الشبكة سيتلقى إشعارًا. كل من في المدينة... سيكون مجبرًا على الاستماع."

كايل نظر إلى الشاشة، حيث كان العداد ينقص ثانية بعد أخرى.

ليام تمتم لنفسه، بينما ضغط على الورقة الأولى في الملف:

"هذا ليس بثًا فقط... هذه محكمة."

ثم قال بصوت مرتفع، وكأنما يخاطب المدينة كلها، كأن كل روح في ريفنشيد كانت تصغي:

"أنا ظل ريفنشيد. وأنا أحمل الحقيقة التي لم يريدوا لكم أن تعرفوها. الليلة... لن تبقى الكواليس مظلمة بعد الآن."

وبدأ البث.

وبدأت المدينة في الاستيقاظ، رغم أنها لم تنم.
كان ليام يرتدي قناعًا أسود بسيطًا، يغطي نصف وجهه، يخفي ملامحه ويكشف فقط عينيه اللتين تشتعلان بالغضب والحقيقة. لم يكن القناع للتمويه فقط، بل كان إعلانًا: أن من يتكلم الآن ليس مجرد شاب، بل هو "ظل ريفنشيد"، الصوت الذي لم يَسمعوه من قبل، الوجه الذي رفضوا رؤيته، والانتقام الذي طال صبره.

خلف الكاميرا، وقف كايل متوترًا، عيناه تراقبان الشاشة وأصابعه مشدودة على الطاولة، وكأنه يخشى أن تنطفئ الكاميرا فجأة.
الهاكر جلس بجمود على الأرض، سلكٌ بين يديه، وعيناه تتابعان تدفق البيانات من الشاشات الصغيرة المرتبطة بجهازه الغريب. بدا كأن روحه متصلة بالشبكة مباشرة، وكأن البث ينبض من قلبه.

قال ليام بصوت متزن، خالٍ من أي تردد، مُخاطبًا المشاهدين، المدينة، والعدالة:

"أنا هنا لأقول ما خاف الجميع من قوله. أنا هنا لأفضحهم، بالأدلة، بالأسماء، بالأصوات. هذه ليست نظريات، ليست شائعات... هذه الحقيقة التي دفنها القتلة."

رفع أول صورة من الملف، وعرضها أمام الكاميرا. كانت صورة والده، إيثان ڤوس، مرتديًا بدلته الرسمية كمحقق، بابتسامته المتعبة، ونظرته الشريفة.

"هذا الرجل... كان أبي. محقق، شريف، صادق. تم قتله لأن شرفه كان أكبر من صمتهم. والقاتل؟ القاتل هو من وثق به."

ثم سحب تسجيلًا صوتيًا من جيبه – ذاك الذي سجّله لفيكتور سانتوس – وأشار للهاكر ليبثّه عبر البث المباشر. الهاكر أومأ، ثم ضغط أمرًا على جهازه، وانطلق صوت فيكتور، ضعيفًا، منهكًا، لكنه واضح:

"غابرييل هانتر... هو من خطط لكل شيء. أنا كنت أداة فقط. هو جعلني أقتل، أغطي، أدفع، وأصمت. أنا لم أكن سوى دمية في يده."

شهقات انتشرت من خلف الشاشات، في المنازل، في المقاهي، في دور الشرطة نفسها. البعض جلس فجأة، البعض صرخ "هذا صوت فيكتور سانتوس"، والبعض... أغلق التلفاز في هلع.

لكن البث لم يتوقف.

ليام قال بعدها: "غابرييل هانتر ليس مجرد شرطي فاسد. هو العقل المدبّر، هو اليد الخفية، وهو من قتل والدي بدم بارد. والآن، سأثبت لكم كيف غطّى جريمته وكيف سحقت الدولة صوته."

فتح صورة أخرى، كانت لتقرير التشريح المعدّل، ثم أخرج النسخة الأصلية، المقارنة كانت فاضحة.

كايل همس خلف الكاميرا: "كل شيء واضح... لن ينجو."

لكن ليام لم يكن قد انتهى.

قال بصوت خافت لكنه حاد كالنصل: "هذه البداية فقط. عندي تسجيلات، وثائق، شهود. الليلة، ستُكسر القيود. وغدًا... يبدأ الحساب."

واستمر البثّ.

وبدأت المدينة... تتحول.
صفحات جديدة تُقلب من التاريخ الأسود لريفنشيد.
كانت إليورا جالسة في غرفتها الصغيرة، الأضواء الخافتة تتراقص على جدرانها بينما هاتفها يهتز بإشعار جديد. رفعت عينيها لتقرأ الرسالة التي تحمل عنوانًا غريبًا: "ظل ريفنشيد بدأ البث." قلبها تخفق بسرعة، ليس لأن الاسم غريب عليها، بل لأنها تعرف جيدًا من يقف خلف هذا القناع، من هو ليام.

تنهّدت بعمق، تتذكر الليالي التي تحدث فيها ليام عن رغبته في الانتقام، عن الظلم الذي تغلغل في عروق ريفنشيد كسم قاتل. كانت تعرف كم كان هذا البث محفوفًا بالمخاطر، ولكنها شعرت بفخر نادر، كأنها تشاهد مولدًا جديدًا للعدالة، رغم قساوة الطريق.

تجاهلت أصوات المدينة الخافتة من النافذة، وأغلقت الباب خلفها بهدوء، استعدادًا لأن تكون جزءًا من هذه اللحظة. لم تكن مجرد متفرجة، بل شريكًا في القتال، وستقف بجانب ظل ريفنشيد حتى النهاية.

في المبنى المهجور، استمر ليام في سرد قصته، يعرض الأدلة واحدة تلو الأخرى، كل كلمة منه تصيب أعمق جرح في قلب الفساد. الصوت الذي كان يُخشى أن يُسمع، صار الآن صدى يتردد في كل ركن من أركان ريفنشيد.

كانت التعليقات قد بدأت تنهال على البثّ، تتزاحم في الشاشة كطلقات متفرّقة بين الشك، الصدمة، والشتائم. البعض كتب: "هذا مفبرك! لا تصدقوا كل ما يُعرض!"، وآخرون علّقوا: "صوت فيكتور... مستحيل، هذا حقيقي."، بينما كتبت فتاة: "من هذا؟ هل هو مجرم أم بطل؟"

لكنهم جميعًا، دون اتفاق، عرفوا من يكون.

"ظل ريفنشيد"، الاسم الذي كان يُتداول ككابوس في الأروقة، كمجرم مختفٍ لا يُعرف له ملامح.

أحد رجال الشرطة كتب في محادثة خاصة: "تأكدوا من تتبّع الإشارة فورًا. يجب إسكات هذا الوغد."
وفي أحد المقاهي، أُسقطت فناجين القهوة من الأيدي المرتجفة، وامتلأت الشاشات بالوجوه المذهولة، لأنهم لم يعودوا ينظرون إلى مجرم... بل إلى الحقيقة التي أخفوها طويلًا.

ليام لم يتأثر. كان يقرأ التعليقات، لا ليرد، بل ليراقب كيف يتحرك الشك داخلهم، كيف يتصدّع الجدار الذي بناه غابرييل لسنوات.

قال بصوت ثابت:
"أنا أعلم أن بعضكم يظنني مجرمًا. أعلم أن صورتي في الأخبار كانت دائمًا مشوهة، أنني هارب، خطير، مهووس... لكن كل هذا كان حتى لا تروا ما أحمله. الحقيقة التي قتلوا والدي من أجلها."

ثم سحب ورقة جديدة من الملف. كانت صورة لغابرييل هانتر، بابتسامته الواثقة، في مؤتمر صحفي قديم.

"هذا هو قاتل أبي. ليس فيكتور سانتوس، بل هذا الرجل... غابرييل، من كان يُقنعكم أنه صوت العدالة."

الهاكر أشار بإصبعه، ثم نقل بثًّا مباشرًا من شاشة داخلية، تُظهر عنوان منزل غابرييل، صورة حرارية، ونبضًا مباشرًا... كأنهم يضعونه الآن تحت المجهر.

"لا مزيد من الأقنعة، غابرييل."

في أحياء مختلفة من المدينة، رجال العصابة بدأوا يتحركون، أجهزة تتبع، سيارات تُسحب بهدوء، وأوامر وصلت إلى الميدان: "اقتلوا البث."

لكن البث لم يكن في مكان واحد.

الهاكر ضغط على لوحة مفاتيحه وهو يهمس لكايل:
"أنا شغّلت 12 نسخة احتياطية. حتى لو حرقوا هذا المبنى... البث سيكمل."

كايل ابتسم، رغم التوتر، وقال لليام:
"لقد فزنا بالأول... لكن الحرب بدأت للتو."

ليام أكمل، حمل تسجيلًا آخر، هذه المرة مكالمة بين غابرييل وماركوس فيغا، تتحدث عن تطهير الأدلة، واختفاء الشهود.

الصوت كان واضحًا، باردًا، لا يحمل ندمًا:

"لا يهم من مات. المهم أن لا يبقى أثر."

العالم الخارجي بدأ يشتعل، والمبنى المهجور صار كأنّه غرفة محكمة تحاكم مدينة بأكملها.
العدّ التنازلي انتهى، والحقيقة خرجت من القبو إلى السماء.
في أحياء مختلفة من المدينة، بدأت الهزّة تنتقل كعدوى بطيئة، تخترق الجدران والأرواح. في مركز الشرطة، توقّف المحقق ريفر كولينز عن مراجعة الملفات، ورفع نظره إلى الشاشة التي بثّ عليها أحد أفراد الفريق الفيديو دون إذنه. كانت عيناه تتحركان بين وجه ليام المقنّع وصورة غابرييل على الشاشة، وداخله يشتعل بشكٍّ قديم لم يمت، لكنه كان يُسكت نفسه دومًا بحجج الواجب.

أحد الضبّاط صاح خلفه: "سيدي! العنوان الذي ظهر على البث... إنه حقيقي. إنه مبنى مهجور. "

هتف كولينز، وهو يضغط على جهاز الاتصال: "أرسلوا فريقًا للموقع فورًا. لا نعلم ما إن كان هذا فخًا... أو بداية النهاية."

في أحد الأزقّة القذرة، وقف جوليان سانتوس يحدّق في شاشة هاتفه. كان وحده، ظهره مستندًا إلى جدار خرب، ووجهه مبلّل بماء المطر. تمتم بمرارة: "أخيرًا قالها... اللعنة عليك يا غابرييل." ثم رفع عينيه نحو السماء المعتمة، وضحك ضحكة قصيرة لم تحمل أي مرح، فقط راحة ممزوجة بالاحتراق.

في الجهة المقابلة من المدينة، كان نواه ڤوس يُشاهد البثّ على شاشة ضخمة في ورشة قديمة مهجورة حوّلها إلى مأوى. لم يكن بحاجة ليُقنعه أحد. عيناه ظلّتا معلّقتين على أخيه، على صوته، على صموده، ويده قبضت على سلاح كان قد خبّأه منذ زمن. قال بصوت خافت: "إذا بدأ الحساب... فليكن لي فيه نصيب."

عادت الكاميرا إلى وجه ليام، كانت عيناه أكثر حدة، وصوته أكثر حزمًا. قال:

"الآن... إلى التسجيل الأهم."

ضغط على زر على الطاولة، وانطلق تسجيل صوتي التُقط قبل أربع سنوات، لم يُسمع من قبل. كان حديثًا بين غابرييل هانتر وإيثان فُوس، والد ليام. كان الصوت مشوشًا قليلًا، لكنه واضح بما يكفي، كان يسجل آخر حوار بين غابرييل وإيثان

في بيتها، كانت إليورا واقفة الآن، يدها على فمها، دموعها تسيل بصمت. لم يكن في الصوت فقط ما صدمها، بل الحقيقة العارية، المجردة من أي تبرير. قالت لنفسها: "لقد فعلها... لقد مزّق الغطاء."

أمسكت هاتفها، وكتبت رسالة قصيرة، أرسلتها إلى ليام دون أن تنتظر ردًا:
"لن تمشي وحدك، لا الليلة... ولا بعد الآن."

وفي المبنى المهجور، نظر ليام إلى الكاميرا للمرة الأخيرة في تلك الليلة، وقال:

"ما فعلته اليوم... ليس النهاية. إنه بداية المحاكمة. أنا ظل ريفنشيد في نظرهم... والشاهد الوحيد في نظر الحقيقة.
وغدًا... سنرى من يحاكم من."

وانطفأت الكاميرا.

لكن المدينة لم تعد مظلمة.
الليل لم يعد ليلًا كما عرفته ريفنشيد.

نزع ليام قناعه ببطء، كأن قطعة من روحه كانت تلتصق به. أنفاسه كانت متسارعة، وحبات العرق تزحف على جبينه رغم برودة الليل. بدا وكأن البث قد استنزف آخر ذرة من صبره.

كايل اقترب منه، صوته حائر وممتزج بقلق:
"لماذا لم تكمل البث؟ كان عليك أن تفضح كل شيء الليلة."

لكن ليام لم ينظر إليه. بقي يحدق في نقطة غامضة في الجدار، كأن عقله لا يزال في مكان آخر، ثم قال بصوت مبحوح:
"لو قلت كل شيء الآن... سينهار كل شيء مرة واحدة. الناس بحاجة إلى جرعة واحدة في كل مرة، لا إلى انفجار يُفقدهم البوصلة."

كايل لم يقتنع، عضّ على شفتيه، وركل الكرسي القريب بعصبية مكتومة:
"هم ليسوا مستعدّين، أو نحن؟"

حينها فقط التفت ليام إليه، بعينين مرهقتين، لكنهما صلبتان.
"غدًا سأكمله. وسنكون وحدنا، أنا والهاكر، لا كاميرات احتياط، لا دعم، لا أعذار."

الهاكر، الذي كان لا يزال في مكانه أمام الأجهزة، لم يعلّق، فقط حرّك يده بتثاقل ومسح عينيه كأنما لم ينم منذ قرن، ثم قال دون أن يلتفت:
"سأكون هنا... النظام جاهز ليشتعل مرة أخرى، لكن إن فعلتها غدًا، لن يعود هناك طريق للعودة."

ليام عقد حاجبيه، وشد الحقيبة إلى كتفه وقال بصوتٍ كأنما خُتم بالحرب:
"أنا لا أبحث عن طريق للعودة."

بعد أن انطفأت الشاشات فجأة، وغابت صورة الظل الغامض وسط التشويش والضوضاء، ساد الصمت في غرفة المراقبة للحظات، كأن الجميع توقف عن التنفّس. ثم، ومع كل ثانية تمر، ازداد التوتر كثافة.

كان الضابط المسؤول واقفًا أمام الطاولة، يداه ترتجفان فوق لوحة المفاتيح، في حين كانت محاولة استعادة الاتصال تبوء بالفشل واحدة تلو الأخرى. تحرّك أحد عناصر الفريق الخلفي نحو الشاشة محاولًا إعادة البث، لكن لا شيء... مجرد شاشة سوداء وصدى صامت لما قيل منذ لحظات.

عندها صرخ أحد أفراد الشرطة، وهو يقذف قبعته على الأرض بغضب مكتوم:
"تبًا! لقد فقدنا الاتصال بالكامل!"

رمى أحدهم ملف التحقيق على الطاولة، الأوراق تطايرت، والصور المأخوذة من البث المجهري تناثرت كأشلاء دليل ضائع. رفع ضابط شاب صوته وسط الفوضى:
"نحن لا نملك حتى اسمه الحقيقي... فقط هذا اللقب، 'ظل ريفنشيد'!"

لكن القائد، رجل في منتصف العمر له ندبة قديمة على حاجبه الأيسر، ضرب قبضته على الطاولة وقال بصوت خشن يكاد يحطم الجدران:
"أريد معلومات عن هذا الفتى... حالًا! من هو؟ من أين جاء؟ ومن يكون والده اللعين؟!"

عمّ صمت قصير بعد كلماته، وكأن الجميع أدرك فجأة أن هذا السؤال هو المفتاح، أو لعلّه الكارثة التي لطالما تجاهلوها.

اقترب مساعده ببطء، ملف مهترئ في يده، وعيناه تنظران للأسفل، ثم تمتم بنبرة قلقة:
"سيدي... والده كان شرطيًا... اسمه إيثان ڤوس."

ارتفعت رؤوس الجميع كأن زلزالًا قد دوّى في الغرفة. همسات خافتة، أعين متبادلة، وصدمة طغت على الملامح. القائد لم يتكلّم، فقط تسمر في مكانه، وعيناه ضاقتا كمن رأى شبحًا من ماضٍ دفنوه على عجل.

"إيثان ڤوس...؟" قالها بصوت أشبه بالاعتراف.
ثم بصوت أخفض، كأنما لنفسه:
"الملف الذي أُغلق قبل ثمانيّ عشر سنة... والفتى الذي شهد كل شيء."

في الجانب الآخر من المدينة، حيث النوافذ محصّنة والستائر لا تُفتح أبدًا، جلس غابرييل هانتر على كرسيه الجلدي الفاخر، يشاهد البث حتى لحظته الأخيرة. وجهه بلا تعبير، لكن عينيه... كان فيهما احتراق صامت، قلقٌ مقنّع، وارتجاف خفيّ لا يراه أحد إلا من يعرفه.

كان البث مباشرًا، وصوت الفتى – الذي بات اسمه يُهمَس في الأروقة الأمنية – قد اخترق جدران العالم كله. ومع انقطاع الإشارة، بقيت الشاشة أمام غابرييل مظلمة، لكنه لم يحرّك ساكنًا. فقط ارتشف من كأسه نصف الممتلئ وهمس لنفسه:

"لقد عاد... ابن الكلب عاد فعلًا."

بعد دقائق من الصمت، وقف بتثاقل، ذهب نحو النافذة، وأزاح الستار قليلًا.
وهنا... رأى الفوضى الحقيقية.

صفوف من الصحفيين تقف خارج المبنى، الكاميرات موجهة، والميكروفونات مرفوعة، والعيون تتوهج بالأسئلة التي لا تُقال بعد، والأسنان تترقّب الدم.

بمجرد أن فتح باب شقته، انفجرت الأصوات دفعة واحدة:

"السيد هانتر! هل كنت تعلم أن الفتى في البث هو ابن شريكك السابق؟!"
"ما تعليقك على ما ورد في البث؟ هل كنت متورطًا في قضية إيثان ڤوس؟!"
"هل صحيح أن التحقيق أغلق بأمر منك؟!"
"هل هذا هو من كنت تخشاه طوال هذه السنين؟!"

كان غابرييل واقفًا في المنتصف، ببدلته الرمادية الداكنة وربطة عنق سوداء، كأن الظل ذاته تمثّل به. لم يبتسم، لم يتكلم، فقط نظر إليهم جميعًا بعين باردة ثم قال:

"لا تعليق."

لكن صوته لم يخفِ الحقيقة التي انفجرت خلف عينيه...
الفتى الذي ظنّ أنه مات في جحيم الماضي عاد... وعاد وهو يعرف كل شيء.

زمّ غابرييل فكه، وحين أغلق باب شقته خلفه بشراسة، عمّ الصمت الثقيل المكان. مشى خطوات متسارعة إلى غرفة مكتبه، ألقى سترته على الأريكة، ثم ضرب بيده سطح المكتب بعنف حتى ارتجفت الأوراق فوقه.

زفر بشدة، وعيناه تشتعلان حنقًا، ثم صرخ لنفسه وهو يدور في الغرفة كذئب محاصر:

"لو أن فيكتور لم يمت... اللعنة، لو أنه ما زال حيًّا، لكنت بخير الآن!"

صوته ارتدّ في الجدران وكأنه يوقظ شياطين الماضي.
رمى كأسًا زجاجيًا على الحائط، تناثر شظاياه كما تناثرت أعصابه.
ظل يحدق في شاشته المظلمة، حيث اختفى وجه ليام... كأنه ظلّ يطارده حتى داخل الظلام.

تابع بين أسنانه المشدودة:

"ذلك الأحمق جَرّ كل شيء للهاوية... ترك لي العار، ترك لي اللعنة... والآن، هذا الصغير يرفع الغطاء عمّا دفنّاه بأيدينا."

وضع يديه على رأسه، كأن الألم يكاد يفجّره، ثم همس بشيء بالكاد يُسمع:

"ليام ڤوس... أي شيطان أنجبكَ؟"

جلس ليام على الكرسي الحديدي داخل الغرفة المهجورة، النور المتدلّي من السقف يصدر طنينًا ضعيفًا، كأنه ينذر بالعاصفة القادمة.
الغرفة كانت شبه خالية، لا شيء سوى الحاسوب المحمول، وبعض الأسلاك المبعثرة، وملفّات مطوية بعناية أمامه. عينيه كانتا غارقتين في نقطة لا مرئية، كأن أفكاره مشدودة بحبل مشدود نحو الهاوية.

رفع يده ببطء ولمس القناع الموضوع بجانبه... نفس القناع الذي خبّأ وجهه، قاد به الرعب، ونشر به الحقيقة، وأحيا به أسطورة "ظل ريفنشيد". تأمل انعكاسه في الشاشة السوداء، وقال بصوت خافت وكأنه يعاهد نفسه:

"البث القادم... سيكون الأخير من نوعه."

سحب نفسًا عميقًا ثم أكمل:

"سأظهر للناس كليام ڤوس... لا كظل. آن الأوان أن يعرف الجميع من كنت... ومن أصبحت."

مرت لحظة صمت، كأن الزمن نفسه توقف ليسمع اعترافه القادم. لم يكن قرارًا عاديًا... بل بداية النهاية، ونهاية البداية.

في الغد... لن يكون هناك أقنعة.
في الغد... سيتواجه ليام ڤوس مع المدينة، مع العدالة، مع الدم.

وهمس لنفسه بابتسامة بالكاد تُرى:

"فلتحترق ريفنشيد... وأنا معها."

حدّق ليام طويلًا في شاشة الحاسوب التي ما زالت تعكس وجهه المتعب، يداه متشابكتان أمام فمه، وعيناه تغليان بأفكار لا ترحم.
همس في نفسه:
"سأعدهم... نعم، سأعد الشرطة وكل من يتقيأون كلمات العدالة، أنني... سأسلّم نفسي إن قبضوا على غابرييل."

ارتفعت زوايا فمه بسخرية مريرة، وكأن الفكرة بحد ذاتها نكتة سوداء.
"لكنهم لا يعرفون... أنني لا أنوي العيش بعد كل هذا. لا أنوي أن أدخل زنزانة يقف خلفها الفاسدون ويصفق لها الجمهور."

تحسس جبهته، كأن ثقلاً يطرق عظامه من الداخل. فكرة واحدة التصقت برأسه كأنها حبل مشنقة لا يفلت:
لن يعرف أحد ما أنويه. لن أخبر أحدًا. لن أترك أثرًا ولا رسالة.

سيكون وعده مجرّد تمويه... غطاءً أخيرًا يُهدّئ به العيون المحدقة، ريثما يشعل هو النهاية بيده. وفي أعماقه، بدأت الظلمة تتسع، لا يُرى فيها سوى ظلّه وهو يسقط إلى الأسفل... بلا صرخة، بلا مقاومة.

وفكّر:
"حين يسقط غابرييل... سأسقط أنا أيضًا. لكن بطريقتي."

ثم أغلق الحاسوب... وكأن الفكرة حُفرت فيه، لا تحتاج لتوثيق.

توقف البث فجأة، تاركًا خلفه توترًا مكثفًا في غرفة العمليات. ضغط المحقق ريتشارد كرين على زر الإيقاف، ثم قال بجمود:

"أعيدوا اللقطة الأخيرة... دققوا على وجهه، حتى لو كان مظللًا."

أحد الضباط سأله:
"تظن أنك تعرفه؟"

رد ريتشارد بعد لحظة تفكير:

"لا... "

سحب ملفًا قديمًا من الخزنة الجانبية، غلافه متهالك كتب عليه: قضية إيثان ڤوس – مفتوح. فتحه ببطء، قلّب الصفحات حتى وصل إلى سطرٍ خطّه بخط اليد يومها:

"ابنه: ليام ڤوس. الشاهد الوحيد."

همس ريتشارد وهو يحدق في الاسم:

"ليام ڤوس... "

صورة الطفل في الملف لا تُساعد. مضى على القضية ثمانية عشر عامًا، والشخص الذي ظهر في البث رجل في بداية العشرينات، يحمل وجع مدينة كاملة في صوته.

في اليوم التالي، انطلقت شاشة البث مجددًا، لكن هذه المرة بلا تمهيد، بلا مؤثرات، بلا ظلال... فقط وجهٌ شابٌ منهك، بملامح نضجت قبل أوانها.
كان ليام واقفًا في منتصف الغرفة، قميصه الأسود مشدود على صدره من التوتر، وشعره يتدلّى على جبهته، كأن الليالي لم تسمح له بالنوم منذ أعوام.

لا قناع هذه المرة.

وجهه مكشوف.
عيناه صافيتان... ودامعتان.

في جيب سترته، كان المسدس يضغط على ضلوعه بصمت، قطعة باردة من الحقيقة لا يراها أحد، ولا يشك بوجودها أحد. وحده الهاكر كان في المبنى، خلف الحواسيب، يراقب إشارات الاتصال، يقطعها عن أيّ جهة خارجية، ويؤمّن البث في الخفاء.

قال ليام بصوتٍ هادئ، لكنّه يحمل بين طبقاته انفجارًا قادمًا:

"هذا وجهي... أنا لست خيالًا... ولا شبحًا...
أنا ليام ڤوس. ابن الرجل الذي قتلتموه، ودعوتم موته حادثًا."

ارتجّ التعليق في غرف الشرطة، في البيوت، في هواتف المشاهدين، في قلوب المذنبين. اسم كان منسيًا منذ عقدين، عاد الآن محمولًا على لسان صاحبه... عائدًا ليحرق.

لم يكن هناك صراخ في صوته. فقط وضوح صادق، يشبه الهدوء قبل سقوط السقف على رؤوسهم.

"أنا ظلّ ريفنشيد... نعم، هذا صحيح. لكن قبل ذلك... كنت طفلًا بعمر السابعة، أنظر إلى جسد أبي المغطّى بالدماء، ولا أحد يصدقني."

صمت... ثم نظر جانبًا، حيث الكاميرا تلتقط كل ارتعاشة في عينيه.

استدار ليام قليلاً نحو الزاوية، وكأنّه يبحث عن شيء في الظلال، ثم عاد للنظر مباشرة في الكاميرا، عيونه تحترق بنار الانتقام التي لا تخمد.

"سأكشف كل شيء... كل فساد، كل جريمة، كل خيانة. غابرييل هانتر ليس سوى وجهٌ كاذبٌ على قناع العدالة المزعومة."

أخرج يده ببطء من جيبه، لكن المسدس بقي مخفيًا تحت قميصه، كأنه ذكرى ثقيلة لا يريدها أن تظهر بعد. ثم تابع بصوت يكاد يهمس:

"سيسمع الجميع صوتي، ولن أترك لأحد فرصة للهرب أو الإنكار. غدًا ستبدأ العدالة الحقيقية."

ثم أومأ برأسه للهاكر الذي كان يراقب عن بعد، إشارة للبدء ببث ملفات وصور وأدلة، بدأت تظهر على شاشة خلف ليام، كشريطٍ مرعب من الحقائق التي كان يحملها سنوات.

وبينما يتابع الجمهور دهشته، كان ليام يحس بثقل القرار الذي يحمله بين صدره — المسدس، القصة، والسر الذي لم يخبر به أحد، ذلك القرار الذي يقربه أكثر فأكثر من حافة الهاوية.

ابتسم ابتسامة قاتمة، وكأنه يلعب مع الموت لعبة خاصة به.

"ليس مجرد بث... بل إعلان حرب."
كانت إليورا جالسة في غرفتها، الهاتف في يدها، وصوت ليام يتردد عبر مكبرات الصوت الصغيرة، يملأ المكان بصدى هادئ ولكنه مليء بالعزم والحدة. نظراتها كانت مركزة، عينها لا تبرح الشاشة، ولكن في عينيها كان هناك أكثر من مجرد مشاهدة؛ كان هناك شيء أعمق، شيئًا من الألم والحنين، شيء يشبه ذلك الشوق المشتعل داخل قلبها الذي يعرف معنى القهر والظلم.

تحدث ليام بصوتٍ ثابت، دون قناع هذه المرة، كاشفًا عن وجهه، عن الجرح المكبوت تحت طبقات الغموض، عن الشاب الذي لم يُسمع صوته طوال سنوات، عن ظل ريفنشيد الذي قرر أن يظهر للعالم على حقيقته. كانت الكلمات تنساب من فمه مثل لهيبٍ يكوي صمت المدينة المظلمة، وكأنها سكاكين حادة تخرق جدران الكذب التي بنيت حوله.

إليورا لم تستطع كبح دموعها التي بدأت تتسلل برقة من زوايا عينيها، لكنها لم تكن دموع ضعف، بل دموع أمل، دموع تمنيات متشابكة مع العزم. همست بصوت يكاد يكون تنهدًا من أعماق قلبها، "ليام... أتمنى أن تحصل على ما تريد... أتمنى أن تنتقم..."

كلماتها لم تكن مجرد أماني، بل كانت نداءً صامتًا لروح تائهة في دوامة الألم والظلم، دعوة لأن لا يستسلم، لأن يكسر القيد الذي كبل سنوات عمره، حتى وإن كان الطريق محفوفًا بالدم والدموع. كانت تعرف، كما يعرف كل من عانى، أن الانتقام ليس مجرد حقنة من القوة، بل هو معركة نفسية تكسر أو تبني، تنهي حياة قديمة لتبدأ حياة جديدة، قد تكون مظلمة، ولكنها على الأقل حقيقية.

في هذه اللحظة، شعرت إليورا بأنها جزء من قصة أكبر، قصة ليام نفسه، قصة الانتقام التي تشبه نارًا لا تنطفئ. نظرت إلى شاشة الهاتف مرة أخرى، إلى وجهه الذي صار يتلو حكمته وثورته، وكأنها تمنحه قوة خفية عبر تلك الكلمات، وكأن روحها تسري في عروقه لتزيده صلابة، لتمنحه شجاعة مواجهة كل ما سيأتي.

ركض ريتشارد في ممرات مركز الشرطة كمن رأى شبحًا، كانت خطواته سريعة ومتخبطة، ووجهه مشدودًا بقلقٍ واضح. صرخ وهو يفتح باب قسم التسجيلات والاتصالات بعنف:
"افتحوا لي قناة مباشرة الآن! البث الجديد بدأ! إنه ليام! أريد التحدث معه فورًا!"

الضباط نظروا إليه بدهشة، بعضهم لم يفهم حجم الحدث بعد، لكن ملامحه كانت كافية لتجعلهم يتحركون بلا نقاش. قال أحد التقنيين وهو يجلس بسرعة أمام الحاسوب:
"سيدي، البث مشفّر لكنه من داخل ريفنشيد، مصدره واضح... الجهاز متصل بشبكة واحدة فقط، قد نتمكن من اختراقه صوتيًا إن استخدمنا قناة الطوارئ المفتوحة للنداء الخارجي."

رد ريتشارد بحدة: "افعلها. افتح القناة الآن."

مرّت ثوانٍ ثقيلة قبل أن يومض الضوء الأخضر أمامه، أشار التقني بيده: "لك الإذن، تكلّم."
أمسك ريتشارد بالمايكروفون، صوته خرج واضحًا في القناة المفتوحة، وقال بثبات رغم توتره:

"ليام... أنت تسمعني، أليس كذلك؟ هذا المحقق ريتشارد كرين، أريد أن أتكلم معك... ليس كعدو، بل كرجل يبحث عن الحقيقة."

سكت للحظة، ثم تابع بصوت أخفض، أكثر إنسانية:

"رأيت كل شيء... ورأيتك بدون قناع، ورغم أنني لا أعرفك شخصيًا... أشعر أن هناك قصة يجب أن تُقال. لا أطلب منك أن تثق بي، ولا أن تسلّم نفسك، فقط... دعني أسمعك. دع العالم يسمعك. لا تُنهِ قصتك بهذه الطريقة، لا الآن."

ثم انتظر، يحدّق في الشاشة التي يظهر عليها ليام، دون أن يعرف إن كان سيسمع ردًا…

تردّد صوت ريتشارد في أرجاء المبنى المهجور الذي جلس فيه ليام، ودوّى صداه في الغرفة الباردة مثل همس قديم من الماضي.
استدار ليام نحو الميكروفون الموضوع أمامه، نظر إلى الشاشة للحظات وكأنه يحدق في وجه ريتشارد من خلف الجدار الرقمي، ثم قال بصوتٍ هادئ، لكنه مائل إلى الحدة:

"الاشاعات عنك لا تزال حية يا ريتشارد... بعضهم يقول أنك كنت تتغاضى عن فساد المدينة، وآخرون يظنون أنك مثلي... تبحث عن عدالة لا يصدق بها أحد."

توقف لحظة، نبرة صوته مزيج من السخرية والمرارة.

"لكن دعني أخبرك بشيء... إن حاولت مساعدتي الآن، علنًا، ستزداد الاشاعات، وسيقولون إنك كنت تعمل معي منذ البداية، إنك تستر عليّ... وربما، سيطردونك من منصبك، أو يحاكمونك."

خفض صوته قليلًا، وكأن شيئًا داخله يرتجف:
"لن تُنقذني، بل ستغرق معي... وأنا لا أريد شهيدًا آخر بسبب اسمي. سقط والدي من أجل الحقيقة، ولن أسمح لك أن تلحق به."

ثم أشاح وجهه عن الشاشة، عاقدًا حاجبيه بشدة، يضغط على المسدس في جيبه دون أن ينتبه أحد. الصمت عاد لثوانٍ، كأن الهواء نفسه صار أثقل.

تردّد صوت ريتشارد من جديد، أكثر وضوحًا هذه المرة، أكثر ثقلًا:
"لقد فتحت قضية والدك، ليام... بعد ثمانية عشر عامًا من الصمت. راجعت الملف المهمل، دققت في كل سطر، في كل صورة، في كل تقرير مزوّر. وجدت أدلة... شهادات لم تُفتح، تسجيلات تمّ تجاهلها، وتاريخًا دُفن عمدًا."

ثم توقّف قليلًا، وكأنه يختار كلماته التالية بعناية فائقة.

"وكلها... بدون شك... تشير إلى رجلٍ واحد. غابرييل هانتر."

ارتعشت شفتا ليام للحظة، حاول أن يخفي الصدمة التي اجتاحت وجهه. رفع عينيه نحو الكاميرا، لم يقل شيئًا، لكن الصمت الذي تبعه كان كافيًا ليُفهم أن العالم الداخلي بداخله يتزلزل. كانت تلك الكلمات أشبه بطلقة في صدره، لكنها ليست من المسدس الذي في جيبه، بل من الماضي الذي لطالما حاول إثباته، وحده، في الظل.

ريتشارد تابع بصوت أكثر ليونة:
"أعرف أنك لم تعد تؤمن بأحد، لكن... دعني أذهب معه حتى النهاية. أنا لا أعمل معك، لكنني لن أعمل ضدك أيضًا. دعني أضع غابرييل في القفص... بالقانون."

صمت ليام من جديد، ثم همس لنفسه دون أن يسمعه أحد:
"القانون...؟ متأخر جدًا..."

كان غابرييل قد جلس في مكتبه، الشاشة أمامه تلمع بوجه ليام الخالي من القناع، والكلمات تتوالى من فمه كالسكاكين، كل حرف منها يُمزّق جزءًا من غلاف الأكاذيب الذي بناه طيلة سنوات.

قبض غابرييل على طرف الطاولة بقوة، تكاد مفاصله تتهشم من شدة التوتر. وجهه احمرّ، أنفاسه تسارعت، وعيناه تراقبان البث كأنها تراقب نهاية ملكٍ سُرقت عرشه. قال بين أسنانه وهو يشد على فكه:

"الوقح... جرؤ على نزع القناع... أمام الجميع؟"

ألقى بكأس كان بجانبه فأصابت الجدار وتهشمت، تناثرت قطع الزجاج على الأرض كرمزية لحياته التي بدأت تتفتت علنًا. تابع البث وهو يهمس بغضب أشبه بالزئير المكتوم:

"هذا الأحمق لا يعرف من يلعب معه... أنا من صنع النظام... أنا من دفن والدك بيدي، ولن أسمح لك بأن تعيد فتح القبر."

ثم نظر إلى هاتفه، ضغط زرًا واستدعى أحد أتباعه، قال بصوت منخفض حادّ:

"راقبوا المبنى... لا أريده أن يغادره حيًا."

ساد صمت قصير في المبنى المهجور، لم يُسمع فيه سوى طنين أجهزة البث وضوء الشاشات الذي انعكس على وجه ليام المتوتر. نظر نحو الكاميرا بثبات، وفي أذنه صدى صوت ريتشارد الذي ما يزال على الطرف الآخر من الاتصال.

قال ليام بصوت هادئ، لكنه يحمل تحت طبقاته نيرانًا راكدة:

"إذًا... قوموا بالقبض على غابرييل، بالعدالة، أمام الجميع، وبكل الوسائل القانونية."

ثم أخذ شهيقًا خفيفًا، نظر للحظة نحو الأرض، ثم أعاد عينيه إلى العدسة وقال بنبرة أثقل:

"وحينها... سأفي بوعدي. سأسلم نفسي... بالعدالة."

لم يكن صوته مترددًا، بل مشبعًا بإصرارٍ مرير، وكأن تسليم نفسه ليس استسلامًا، بل نهاية عهد ظلّ فيه وحده، حاملاً عبء جريمة نُسيت عمدًا. وأثناء حديثه، ظلّت يده قريبةً من جيبه، حيث يستقر ذلك المسدس المخفي... احتمالٌ آخر، طريقٌ لا يعرفه أحد، ولا يراه أحد... سوى هو.

في قسم التسجيلات، كان ريتشارد ما يزال يُمسك بسماعة الاتصال، وعيناه لا تفارقان الشاشة التي يُعرض فيها البث المباشر. حوله كانت الأجواء متوترة، الأنفاس محبوسة، والعيون تتنقل بين ليام والكلمات التي قالها للتو.

أغلق الخط بهدوء، ثم التفت بسرعة إلى الضابط الواقف بجانبه وقال بنبرة قاطعة:

"أنت، خذ فرقة من العمليات الخاصة... فورًا، اذهبوا إلى العنوان المسجل لغابرييل هانتر. أريد القبض عليه الآن، وبالطريقة الرسمية."

الضابط لم يطرح سؤالًا واحدًا، فقط أومأ بقوة وانطلق وهو ينادي رجاله، بينما ريتشارد حدّق مجددًا في الشاشة، حيث كان ليام ما يزال واقفًا، بلا قناع، يُظهر وجهه للعالم ولأول مرة... وكأن تلك اللحظة كانت بين طرفين فقط: صوت الحقيقة، وظلّ الانتقام.

كان غابرييل قد انكمش على نفسه في شقته، يملأ حقيبة جلدية قديمة بيدين مرتجفتين، الأوراق تتناثر، والملفات السرية تُحشر عشوائيًا بين ثيابه. عرقه يتصبب، أنفاسه متسارعة، وعيناه تتفقدان النافذة كل لحظة وكأنها ستنطق بما لا يريد سماعه.

فتح خزانة حديدية صغيرة وسحب منها ظرفًا سميكًا، كان آخر ما تبقى من أمواله المخبّأة. دسّه في سترته وانطلق نحو الباب، خطواته ثقيلة رغم سرعته، وكأن الأرض ترفض مساعدته على الهرب.

ما إن فتح الباب حتى فوجئ بوهج الأضواء وصفارات سيارات الشرطة تخترق الأفق، أحاطت به عشرات البنادق، ورجال ببدلات سوداء أحكموا الطوق حول المبنى.

صاح أحدهم بصوت قوي:
"غابرييل هانتر، أنت مُتهم رسميًا بجريمة قتل إيثان ڤوس، وكل تحركاتك مسجلة. ارفع يديك ببطء."

غابرييل تجمّد في مكانه، نظر من حوله كمن فقد كل احتمالات النجاة، ثم ابتسم بسخرية باهتة وهو يرفع يديه ببطء وقال:
"أخيرًا، جاءني ظلّي..."

أعاد ريتشارد الاتصال بالبث، وصوته هذه المرة كان يحاول أن يحمل نبرة طمأنينة، رغم التوتر الظاهر خلفه. قال بثبات:

"ليام، تم القبض على غابرييل هانتر قبل دقائق. كل شيء مسجل، كل خطوة تمت بمذكرة رسمية. لقد بدأت العدالة تتحرك."

لكن ليام لم يُظهر أي رد فعل، كانت عيناه جامدتين، وصوته منخفضًا وهو يرد:

"هذا لا يكفي... مجرد القبض عليه لا يعني أنه سيُدان. أنت لا تعرف كم من مرة أفلت من المحاسبة. أحتاج أكثر من وعود، أحتاج يقين."

حينها، أخرج هاتفه الشخصي واتصل على كايل. لم تمر سوى ثوانٍ حتى جاءه صوت شقيقه، واضحًا، بلا ارتباك:

"نعم، تم القبض عليه. كنت معهم. رأيت القيود تُغلق على معصميه. هذه المرة، لن يهرب، أقسم."

ليام أغمض عينيه للحظة طويلة. خلف تلك الجفون، اشتبكت ذكريات والده، الدم، صراخ الكوابيس، صمت القضبان، والظل الذي صار اسمه. ثم فتح عينيه مجددًا، نظر إلى الكاميرا مباشرة، وأطفأ الاتصال مع كايل بصمت.
كان على وشك اتخاذ قراره الأخير.

أخرج ليام المسدس بهدوء، دون أن يرفّ له جفن، وكأن القرار قد نضج في داخله منذ زمن. رفعه ببطء نحو رأسه، ووجهه ما زال ثابتًا أمام الكاميرا، نظرته عميقة، قاتمة، تخترق الشاشة كما لو كان يتحدث لكل من ظلمه، لكل من خذله، ولكل من لم يفهمه يومًا.

قال بصوتٍ منخفض لكنه واضح، فيه نبرة حزن لا تشبه أي حزن، نبرة رجل قرر أن يختتم فصله الأخير بنفسه:

"سأسلم نفسي... لكن بالعدالة الصحيحة، العدالة التي لا تعرف الأقفاص ولا الأقنعة، بل تعرف الحقيقة فقط."

كانت يده ثابتة، إصبعه يلامس الزناد ببطء، صمْت ثقيل سيطر على البث، كأن الزمن تجمّد.

وفي الجهة الأخرى، شهقت إليورا وهي تضع يدها على فمها، والدموع تغلّف عينيها. صرخت دون صوت: "لا..."

وفي مركز الشرطة، صرخ ريتشارد عبر الميكروفون: "ليام!! توقف!!"

لكن ليام لم يكن ينظر إليهم، لم يكن يراهم أصلًا... كان يرى والده فقط، إيثان، مبتسمًا في ذلك الحلم الوحيد الذي لم يغادره يومًا.

ابتسم ليام ابتسامة غريبة، ليست فرحًا ولا حزنًا، بل خليط من رضا قاتم ووداع ثقيل. نظراته كانت صافية، تخترق الكاميرا كما لو كان يرى العالم كله بعيونٍ صافية لم تعهدها من قبل. ظلَّ واقفًا دقيقة كاملة، لا يحرك ساكنًا، مجرد تحديق عميق يشع حكاية ألمٍ قديمٍ ونارٍ مستعرة في صدره.

ثم بدأ الكلام بصوت منخفض ينساب من أعماق روحه:

"لقد وصفني الناس بالجنون، بالقاتل، بالظل الذي لا يُرى... لكن من سأل نفسه يوماً لماذا؟
أنا لست بطلاً، ولا أنا ضحية... أنا إنسانٌ انخذل، قرر أن يرد الخذلان...
لم أطلب الانتقام لأرتاح، بل لأذكّر الجميع بما يحدث عندما تسكت النفوس عن الظلم."

تنفّس ببطء، وكأنّه يزرع كلماتٍ حارقة في أذن الزمن:

"إن رأت عيونكم وجهي اليوم، فاعلموا أن ظل ريفنشيد قد مات، ولم يبقَ سوى ليام فوس، ابن إيثان، الذي حاول أن ينطق بالحقيقة، فدفنوه أحياءً وسط صمت العالم."

نظر إلى الكاميرا بنظرة طويلة، ثاقبة، وكأنها وداعٌ صامتٌ، رسالةٌ تتغلغل في الأعماق قبل أن تختفي في الظلام.

همس الهاكر، صوته مهتز كمن تردّد فجأة أمام شبح الموت:
"لا... لا تفعلها."

لكن ليام لم يرد. التفت بنظرة قصيرة نحوه، نظرة صامتة لا تحمل غضبًا ولا استعطافًا، بل شيء أثقل... كأنها تعني: "هذا ليس شأنك، ولا أحد يستطيع إيقافي الآن."

ثم أعاد نظره إلى الكاميرا، إلى العالم، إلى كل شيء... وأغمض عينيه.

ظلَّ المسدس ثابتًا على صدغه.
فجأة—

انطلق صوت الرصاصة.

لم يكن مجرد صوت.
كان ارتجاجًا عميقًا اخترق الهواء، البث، الوجدان، وكأن الزمن انشطر في لحظة واحدة.

شهقت إليورا شهقة مفزوعة، حادة وعالية، كأن روحها انتزعت من صدرها. اتسعت عيناها على آخرهما وهي تضع يديها على فمها، ثم انفجرت بالبكاء... دموعها سقطت دفعة واحدة، غزيرة، بلا توقف، كما لو أن قلبها سقط مع تلك الطلقة.

أما الشاشة، فقد اهتزّت للحظة... جسد ليام سقط خارج زاوية الكاميرا. الدم تناثر على الجدار خلفه، واللون الأحمر صار إطار النهاية.

في مركز الشرطة، ريتشارد كان لا يزال متصلاً عبر الخط المباشر، يحدّق في الشاشة بصمت مصدوم، قبل أن ينطق فجأة بصوت مكسور:
"ليام؟... هل تسمعني؟"

لا مجيب.

"اللعنة... ليام!!"

صوت ارتطام الكرسي، وصراخ داخلي لم يُسمع، فقط ظهر على وجه المحقق الذي أدرك... أن هذه ليست مجرد نهاية تحقيق. هذه كانت نهاية شبحٍ حارب وحده، وقرّر أن يغلق آخر صفحة بدمه.

البث ظلّ مستمرًا لثوانٍ، صامتًا، ينقل صورة الكرسي الفارغ، وجدارًا لطخه الدم، والظلّ الذي غاب.

ثم...

انطفأ كل شيء.
الشاشة صارت سوداء.
والعالم، لوهلة، أصبح أكثر برودة.

دخل كايل المبنى وهو يركض، قلبه ينبض بعنف كأنه يريد أن يخرج من صدره، عيونه واسعة تتلمّس الظلام الذي ملأ المكان بعد صمت البث المفجع. خطواته تتعالى بسرعة على الأرضية الصلبة، وكل نبضة تحفر جرحًا عميقًا في روحه، كأنه يحمل وزر العالم على كتفيه.

وصل إلى غرفة البث، قلبه يخفق بعنف، يحدق في الشاشة السوداء التي لم تعد تبث شيئًا، يلمس المكان حيث كان ليام يجلس، الدم الجاف يروي قصة نهايته الدامية، وفي عينيه تتلألأ دموع الغضب والحسرة، يتحول الألم إلى عزم صلب لا يلين.

"ليام... لماذا؟" همسها كأنه يخاف أن يسمع الرد، لكنه يعرف أنه لن يأتي.

جثا كايل على ركبتيه أمام جثة أخيه، جسده يرتجف بقوة من كبت الألم والانهيار، يديْه ترتعشان وهو يلامس الدم الذي روت الأرض، رائحة الموت الثقيلة تملأ أنفاسه، وعيونه تغمرها دموعٍ تحترق كالحمم الساخنة.

صوت قلبه المسحور بالألم يدوي في رأسه، يردد صدى فقدان أخٍ لم يكن فقط دمًا ودموعًا، بل كان كل شيء: الحامي، الرفيق، الظل الذي لم ينطفئ حتى في أقسى اللحظات.

همس كلماتٍ مشوهة تحت أنفاسه المُقطعة، "لماذا تركتني وحدي يا ليام؟ لم أعد أعرف كيف أعيش بدونك... كيف أتنفس؟"

بدأت أضواء السيارات تلمع في شارع هولبروك ككائنات برّاقة تقترب ببطء من المبنى، تكسير الزجاج، أصوات الأقدام، وصرخات متقطعة تنبعث من كل زاوية. كان الصمت الثقيل بعد إطلاق النار قد تحطم فجأة، ليحل محله هياج الناس وارتباكهم.

هرع الضباط إلى الداخل، وجوههم متوترة، أصابعهم على مسدساتهم، لكن المشهد الذي أمامهم لم يكن كما توقعوا.

كايل، متهالكًا، لا يملك إلا أن يركع على ركبتيه أمام جثة أخيه ليام، عينيه تذرف دموعًا قاتمة تمزقها صرخات الصمت، قلبه يكاد ينفجر من الألم والخسارة التي لا توصف.

الضباط تجمعوا بحذر، فُتح الباب واسعًا وبدأت أصواتهم تتردد في الممرات: "احتفظوا بالمساحة... لا تلمسوا شيء..."

وصل نواه إلى المكان والدم ينساب في عروقه كأنه دفق بارد من الحقيقة المرّة التي طالما حاول الهروب منها. وجهه كان شاحبًا، وعيناه محمرتان من كثرة السهر والتعب، لكنه لم يكن مستعدًا لما سيواجهه هناك. في تلك اللحظة، بينما كان يقترب من المبنى الذي تصدر منه البث المباشر، رأى كايل جاثيًا على ركبتيه أمام جثة ليام. مشهدٌ حطم كل ما تبقى من قوة في داخله، كأن الزمن توقف عن الحركة، وكأن الهواء نفسه تجمد في صدره.

توقف نواه لوهلة، فقدت كلماته طريقها إلى شفتيه، وبدأ قلبه ينبض بسرعة متقطعة وكأنه يحاول أن يقول له بصمت: "هذه ليست النهاية". لكنه كان يعرف الحقيقة جيدًا، لا نهاية سعيدة، ولا خلاص من الألم الذي يثقل صدورهم جميعًا.

اقترب بحذر، كأنه يقترب من قبور الأحياء، ولم يستطع أن يمنع دموعه التي سالت على وجنتيه كأنه يذرف دماء روحه مع دمعه. جلس إلى جانب كايل، الذي كان كئيبًا محطمًا، واحتضن أخاه الأكبر في صمتٍ رهيب، وكأنهما وحدهما في عالمٍ مظلمٍ لا يسمع سوى صدى الحزن.

نظر نواه إلى ليام، الذي كان ما زال يرتدي تعبيرًا غريبًا، خليطًا من السلام والألم، ثم تنهد بمرارة قائلاً بصوتٍ خافت، لكنه مليء بالخذلان:

"لقد اختارك الموت، ولم نعد نملك سوى هذا الصمت الموجع. ماذا نفعل بعد الآن؟ لمن نصرخ؟ كيف نكمل الطريق بعد أن مات صوت الحقيقة؟"

كانت كلماته تعبيرًا عن انكسار أعظم من أن تحكيه الكلمات، بينما حولهما بدأ العالم ينهار، وسيارات الشرطة تضيء المكان بأضوائها، ولكن كل ذلك لم يكن سوى خلفية باهتة لواحدة من أعظم المآسي التي عرفتها ريفنشيد.

إليورا حاولت أن تخطو خطوة نحو المبنى، قلبها ينبض بعنف، والأدرينالين يتصاعد في عروقها، كان هناك شيء في داخلها يدفعها بقوة إلى هناك، إلى حيث استقر الألم والدمار. لكن صوفيا، أمها، جاءت كالجبال الصلبة، ممسكة بذراعها بقبضة حديدية لا ترحم.

"لا يا إليورا! أنتِ لن تذهبي إلى هناك أبداً!" قالتها بصوت صارم وعالي، الصوت الذي لا يقبل الجدل أو المفاوضة، كأنه صاعقة فجّرت كل الأمل في قلب الفتاة.

كانت عينا صوفيا مشحونتين بالغضب والقلق، تتلألأان كنجمتين ثاقبتين في ظلام تلك اللحظة. نظراتها لم تكن مجرد رفض، بل كانت تحذيرًا صارمًا من أن الاقتراب من ذلك المكان لن يجلب سوى مزيد من الألم والدموع، وأنها ستظل تقاوم بكل ما أوتيت من قوة لمنعها من الوقوع في دوامة لا تنتهي.

إليورا شعرت بالدموع تخانقها، لكن صوت أمها القوي والثابت أعادها إلى الواقع، أوقف زئير قلبها، وكأنها أدركت فجأة أنها لن تستطيع مواجهة ما ينتظرها هناك وحيدة.

حاولت أن تقترب مرة أخرى، لكنها لم تستطع، صوفيا كانت أقوى من كل رغباتها، تقف في وجهها كجدار صلب يحول دون انكسارها، وتكرر بحزم: "أنا لن أدعك تذهبي إلى هناك. لا الآن. لا أبداً."

وقفا معًا، الأم والابنة، في صمت ثقيل، يحترقان بألم لا يُحتمل، كل واحدة منهما تحاول أن تحمي الأخرى بطريقتها الخاصة، رغم

أن الأقدار قد رسمت طريقًا مظلمًا لا مهرب منه.

أقيمت الجنازة لليام في مشهد كان كئيبًا إلى أبعد الحدود، فقد كانت السماء مظلمة كأنها تشارك أهل المدينة في حدادهم، والرياح تعصف بهدوء محملة بأصوات النحيب والصمت الثقيل الذي يلف المكان. جمع الحضور في ساحة المقبرة، أناسٌ لا يعرفون سوى أنه "ظل ريفنشيد" الذي مات، بعضهم يشعر بالندم على ما فات، والبعض الآخر يحمل قلبًا مثقلاً بحقيقة مريرة لم تُكشف بعد. وسط كل ذلك، كانت إليورا واقفة بثبات، عيناها مرصعتان بالدموع التي حاولت أن تخفيها، لكنها لم تستطع كبح موجة الحزن التي غمرت روحها، وجسدها الذي بدا صغيرًا وسط هذا البحر من الألم.

كايل ونواه، الأخوان اللذان فقدا أخاهما الوحيد، وقفا أمام القبر، يحدقان فيه بغصةٍ ثقيلة، كأن الزمن تجمد عند تلك اللحظة، ووجهاهما يشعّان ألمًا عميقًا ممزوجًا بالدهشة والصدمة. كان كايل، الذي لطالما حمل عبء حماية العائلة، يشعر بثقل الجرح يتسرب إلى قلبه شيئًا فشيئًا، أما نواه، فكان صامتًا، يحاول فهم ما حدث، لكن ذلك الوجع لم يكن قابلاً للاستيعاب أو النسيان بسهولة.

فجأة، تحرك الحشد وتسللت امرأة مسنّة ببطء، تكاد خطواتها تحمل معها عبء سنوات الغياب والتعب، شعرها الرمادي المتناثر حول وجه متجعد قليلاً، يعكس سنواتٍ من المعاناة والحيرة. عيونها، التي احتفظت ببريقٍ خافت رغم عتمة التجاعيد، كانت تحمل مزيجًا من الأسى والحنين. اقتربت من كايل ونواه، ووجهها يرتجف من تأثر عميق.

نظرت إليهما بثبات، وأطلقت صوتًا هادئًا لكنه يحمل كل أوجاع الغياب: "نواه؟ كايل؟"

كانت ميرا، تلك الأم التي تركتهم سنوات طويلة، غابت عنهم في أحلك اللحظات، وجاءت اليوم تحمل في عودتها دموعًا لا تكفيها كلمات، محاولةً أن تعيد لم شمل عائلة تكاد تتفتت بين زوايا الألم والخذلان. لم تكن كلماتها مجرد تحية، بل كانت صرخة صامتة في وجه الزمن الذي سرق منها سنوات حياتها معهم، محاولةً أن تعيد لنفوسهم بعضًا من الأمان والدفء الذي فقدوه.

وقف كايل جامدًا للحظة، يحدق في ميرا بعينيه الحادتين، تختلط فيهما مشاعر الغضب والخيانة مع رغبة دفينة في الفهم والتسامح، بينما نواه تغرق في دوامة الحيرة والحنين، كأنه لم يصدق أنه يرى والدته الحقيقية بعد كل هذه السنين.

صرخ كايل بصوت مختنق: "أمي... لماذا الآن؟ لماذا غبتِ؟"

أغمضت ميرا عينيها، وكأنها تستجمع قواها للحديث، ثم قالت بصوت ملؤه الألم والندم:
"كنت أبحث عن نفسي بين الضياع، كنت أهرب من ظلال الماضي الذي لم أستطع تحمله... لكنني عدت، لا أطلب منك السماح، بل فقط فرصة لأن أكون جزءًا منكم مرة أخرى."

كانت الكلمات كالسكاكين التي تغرز في قلب كايل، تزرع فيه صراعًا ما بين الماضي الذي حمل جروحًا عميقة، وبين الحاضر الذي يطالب بالحب والعائلة. أما نواه، فكان يرتجف، يمد يده بخفة نحو ميرا، وكأنها آخر أمل له في هذا العالم المليء بالخسائر.

وقف الحشد يراقب هذا اللقاء المتوتر، كلٌ يحمل قصته الخاصة، لكنهم جميعًا يعرفون أن شيئًا جديدًا بدأ، وأن جروح الماضي لن تلتئم بسهولة، وأن الغياب الذي تركته ميرا سيظل شبحًا حاضرًا في قلوبهم، محكومًا عليه بالصراع بين الغفران والكره، بين الألم والفرصة الأخيرة للقاء.

النهايـة